

ابن خلدون

حياته وراثته الفكرية

تأليف

محمد عبد الله غنّان

الطبعة الثانية

نشرت بعناية المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة

مطبعة مصر شركة مساهمة مصرية

2271
4653
742
12

2271.4653.742.12

‘Inān

Ibn Khaldūn

ISSUED TO

[illegible]

Princeton University Library



32101 074442334

ابن خلدون

حياته وراثته الفكرية

Ibn Khaldūn

تأليف

محمد عبد الله غنيان

الطبعة الثانية

نشرت بعناية المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة

مطبعة مصر شركة نيل مصر

الطبعة الثانية
الحقوق كلها محفوظة

القاهرة
١٣٧٢ هـ — ١٩٥٣ م

بَابُ الْمُحَصِّلِ

أصول المير تصنيف العبد والابن الله
تقلى الفتى به يحسن سواه الراجى عفى
ممنز الرحن بن محسن بن خلدون العيسى
م عفى الله له ولو الربى والجميع المسلمين

صفحة العنوان

من كتاب باب المحصل فى أصول الدين لابن خلدون
وهو المحفوظ بمكتبة دير الاسكوريال (باسبانيا)
برقم ١٦١٤ . والكتاب مكتوب بخط مؤلفه

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

أَحْمَدُ من تَعَبَهُ بعظمته وكبريائه وتفرس بصباهه
واسماؤه وتشره عن مشابيه خلقه بنزله ونفاؤه لخالقه
بكل شيء علما بلا يعز عنه شغل ذره في أرضه وسماؤه
ووسعت قدره الممكنات بلا مبرح عن إزاعه وانشائه
وَدَلَّ حُرُوفُهُما وتخصيصهما برفق كما يجاء على إزاعه
وفضائه **وَأَمِلَ** على أول النعم من النعمانية المحققة
ببشرية واعتقائه خوضا على سيرته بمحرم المعطى
خاتم انبيائه وعلى آله وأصحابه وعترته وأوليائه ملا
هامة أعرضها لهم لغائه **وَلَعَنَ** من ألعن
كثيره والمعارف حجة غزيره وأشرها العلم كالمس
الخبز بانجماله بالسعادة واعتد له الحسن وزياؤه
تفتقر العلم اليه وايقنوا ليا وتوكلوا بمقراتنا عليه
وايعزلوا علينا **سَاحَسَ** من كان رادى من غنا الفياضة

الصفحة الأولى من كتاب لباب المحصل

وهي نموذج حسن من خط ابن خلدون في شبابه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ما زال تراث ابن خلدون فريداً بين آثار التفكير الإسلامي ، وما زال يحتفظ رغم كثر العصور بكل قيمته وروعته وجدته ، ويتبوأ مقامه بين تراث التفكير العالمي . ولكن ابن خلدون الذي اكتشفه الغرب وعكف منذ أكثر من قرن على دراسة آثاره ونقدها وتحليلها ، يغمر في الشرق حقه ، ويكاد يغمر ذكره ، وينسى تراثه . وبينما ظهرت في الغرب عنه وعن تراثه تراجم وبحوث نقدية عديدة ، إذا به لا يكاد يظفر بشيء من ذلك في الشرق موطنه وصاحب تراثه .

وقد كان مما يدعو إلى الغبطة أن تجددت ذكرى ابن خلدون في العهد الأخير ؛ وفي سنة ١٩٣٢ ترددت الدعوة لإحياء ذكره المناسبة لانتضاء ستمائة عام على مولده ؛ فاستجابت دوائر التفكير والأدب في جميع البلاد العربية لهذه الدعوة الكريمة ، وأقيمت عدة حفلات علمية للإشادة بذكره وخالد آثاره ، ولا سيما في تونس مسقط رأسه ومطلع مجده ، وفي مصر مقام شيخوخته ومشى رفاقته ؛ وحفلت المحلات والصحف العربية حيناً بمختلف البحوث عنه ؛ والتفتت الأنظار نوعاً إلى قراءته ودرسه ؛ وظهرت

في الأعوام الأخيرة عنه وعن تراثه بعض الكتب والدراسات المفيدة .
ولما كان ابن خلدون في مقدمة المفكرين المسلمين الذين
عرفتهم وقرأت لهم منذ الحداثة ، وطبعوا ذهني بطابع عميق ؛ وكان
في مقدمة المؤرخين الذين أكبرت فهمهم للتاريخ ونقده وقيمته ،
فان هذه الدراسة التي أقدمها اليوم في طبعها الثانية للتعريف
بابن خلدون وتراثه ، والتي التمت لكتابتها هذه الذكرى السبائة
لمولد المؤرخ الفيلسوف ، إنما هي عنوان الوفاء والتقدير للمفكر العظيم .
وقد عنيت بأن أتبع حياة ابن خلدون بإفاضة ، وأن أفصل
الحوادث السياسية التي اشترك فيها واتصل بها . ولما كانت حياته
قطعة من تاريخ الدول المغربية في أواسط القرن الثامن ، فقد
رأيت أن أفصل تاريخ هذه الدول وتقلباتها في هذه الحقبة ، وأن
أشرح أوضاعها السياسية . كذلك عنيت بحياة ابن خلدون في مصر
عناية خاصة ففصلتها تفصيلاً وافياً ، وشرحت علائق المؤرخ
بالجتماع المصرى المفكر ، وما وقع بينه وبين الكتاب المصريين من
صنوف الخصومة والجدل ، شرحاً ضافياً .

أما تراث ابن خلدون فقد رأيت أن أتناوله بطريق العرض
والشرح المرسل ، ورأيت أن أجتنب الجدل والمقارنات المعقدة ،
مع حرصى في الوقت نفسه على مواطن التقدير والجدل المفيد .
وقصدى بما كتبت في ذلك أن أقدم تراث ابن خلدون الى الشباب
المثقف بطريقة موجزة واضحة ، حتى إذا وقف عليه واستطاع
أن يسيغه وأن يقدره ، ارتد الى أثر ابن خلدون نفسه يقرأه
ويدرسه بإمعان وإفاضة . أما دراسة البحث الغربى لابن خلدون

وما تناول به تفكيره ونظرياته من التقدير والتحليل والمقارنة ، فقد أفردت له فصلاً خاصاً يضم خلاصة وافية لكل ما كتب في هذا الشأن . كذلك رأيت أن أضع بياناً فهرسياً عن كتاب العبر يتضمن شرح الأدوار التي مر بها حتى تم نشره وظهوره ، والمخطوطات التي رُجع إليها في نشره ، وما ترجم منه الى مختلف اللغات الأوربية ، وما يوجد من مخطوطاته في مختلف المكتبات . وشفعت ذلك ببيان مفصل لجميع المصادر العربية والغربية التي رجعت إليها ، والتي يُدرس فيها ابن خلدون وأثره ، لكي يرجع إليها من شاء التوسع والمزيد . وقد تناولت هذه الطبعة الجديدة بكثير من التنقيح والإضافة ، ورأيت أن أذيّلها بتراجم الكتاب المصريين المعاصرين لابن خلدون ومعظمها لا يزال مخطوطاً ، وكذلك بالترجمة التي وضعها له صديقه ومعاصره المفكر الأندلسي العظيم ابن الخطيب ، وذلك زيادة في التعريف به وبخلاله ممن عرفوا شخصه حق المعرفة .

وعرضت في هذه الطبعة أيضاً عدة نماذج من خط ابن خلدون ، في مختلف أدوار حياته ، في شبابه ، وفي اكتمال كهولته ، وفيها يرى القارئ أثراً مادياً من آثار المفكر الكبير ، هذا فضلاً عما تدلّ به من وقائع وبيانات تاريخية ذات شأن .

وأود أن أذكر هنا أن هذه الدراسة التي أقدمها عن ابن خلدون قد ترجمت الى الإنجليزية منذ أعوام طويلة ، وصدرت منها إلى اليوم عدة طبعات ^(١) .

(١) نشرت الترجمة الانجليزية بمدينة لاهور ، بعناية ناشر الكتب السيد محمد اشرف بعنوان "Ibn Khaldun; his Life and Work" وظهرت الطبعة الثالثة منها في سنة ١٩٤٦ .

ان ابن خلدون على قدمه من حيث الزمن ، يجب أن يكون
أستاذاً لجميع الشباب الذى ينطق بالعربية . ويجب أن يقرأ الشباب
مقدمة ابن خلدون ، وأن يستعيدوا مراراً وتكراراً ، لا ليعجب فقط
بما حوت من رائع التفكير والبحث ، ولكن أيضاً ليستنى منها أساليب
البيان والتعبير عن كثير من الآراء والخواطر الإجتماعية التى تجول
بذهنه وكثيراً ما يتعثّر فى التعبير عنها ؛ ذلك أن مقدمة ابن خلدون
إذا كانت ثروة لا تقدر فى تراث التفكير العربى ، فهى أيضاً ثروة
لا تقدر فى تراث البيان العربى .

فالى الشباب المثقف فى مصر ، وفى جميع البلاد العربية ،
أقدم هذه الدراسة — فى طبعها الثانية — لشخصية ممتازة فى
التفكير الإسلامى ، وذهن عظيم مبتكر ، سبق الغرب كله إلى
وضع مبادئ الاجتماع ، وما زال موضع إعجاب التفكير الغربى
وتقديره ، راجياً أن يجد الشباب فى هذه الدراسة ما يحفزه إلى قراءة
ابن خلدون ودرسه والانتفاع بنفيس تراثه .

محمد عبد الله عنان

القاهرة فى مايو سنة ١٩٥٣

الكتاب الأول

حياة ابن خلدون

١

في المغرب والأندلس

٧٣٢ - ٧٨٤ هـ : ١٣٣٢ - ١٣٨٢ م

الفصل الأول

نشأة ابن خلدون

بنو خلدون . نشأتم بالآندلس وظهورهم في ميدان الرياسة . نزوحهم إلى المغرب . محمد بن خلدون والد المؤرخ . نشأة ابن خلدون ودراسته الأولى . فقده لأسرته وصحبه أثناء الغناء الكبير . دعوته لتولى كتابة العلامة في بلاط تونس .

كانت سنة ١٩٣٢ مبعث ذكرى خالدة في التفكير الإسلامي : تلك هي انقضاء ستمائة عام كاملة على مولد ابن خلدون المؤرخ والسياسي والفيلسوف الاجتماعي . ولما كانت آثار هذا المفكر العظيم تبوأ بين تراث العربية أسمى مكانة ، فقد كانت هذه الذكرى فرصة سانحة لدراسة حياته واستعراض آثاره ؛ فلم يحظ ابن خلدون رغم شهرته الواسعة ، ولم تحظ آثاره رغم نفاستها وطرافتها ، من تفكيرنا المعاصر ، بما يجب من درس ونقد واطلاع .

ترك لنا ابن خلدون ترجمة نفسه^(١) ، ودون لنا بقلمه حوادث حياته منذ نشأته حتى مشرف خاتمته ، وصور لنا كثيراً من خلاله وخواصه ونواحي نفسه ؛ وقد نحسب لأول وهلة ونحن نتلو تلك السيرة الفياضة التي تركها لنا المؤرخ عن نفسه ، انه لم يترك لمرجه كبير مجال للبحث والتحقيق ، وأن ليس عليه إلا النقل والتكرار ؛ وفي هذا الفرض كثير من الصحة ، فابن خلدون هو

(١) سنتناول وصف هذه الترجمة عند الكلام على تراث ابن خلدون .

أخصب مصادرها وأهمها في كل ما يتعلق بسيرة حياته وحوادث عصره ؛ ولكن مهمة المترجم الحديث لا تقف عند تدوين الوقائع والحوادث المسادية ؛ فإذا لم تكن تلك ثمرة حاجة الى تحقيق الوقائع والحوادث ، فهناك دائماً وجهة التقدير واستخلاص النواحي المعنوية ؛ وهناك اختلاف الفهم والعرض . وإذا كان ابن خلدون يقدم لنا سيرة حياته وحوادث عصره التي ارتبطت بهذه السيرة ، فإنه يعرضها طبقاً لفهمه ووجهة نظره ، وقد يتأثر عرضه في كثير من الأحيان بالعاطفة والهوى . وتحري الحقيقة خلال هذه المؤثرات مهمة شاقة . فإذا كنا نغيبط بهذا التراث الذي تركه لنا المؤرخ عن نفسه ، ونجد فيه ما يسهل مهمة ترجمته ، فانا قد نشعر من جهة أخرى بالخرج في كثير من المواطن التي نلمح فيها أثر العاطفة والهوى . وإذا فسيكون تراث المؤرخ عمدتنا الأولى في ترجمته ؛ ولكنه لن يكون مصدرنا الوحيد ؛ فهناك مصادر وتراجم عديدة أخرى جديرة بالبحث والمراجعة ، ولا سيما عن حياته في مصر . وسوف نستشيرها جميعاً . وسنتبع أدوار حياته خلال هذا التراث كله . ولكننا سنحاول أن نفهمها على ضوء الحقيقة المجردة ، وأن نستخلصها من مختلف المؤثرات والأهواء .

ولد ابن خلدون بتونس في غرة رمضان سنة ٧٣٢ هـ (٢٧ مايو سنة ١٣٣٢ م) في أسرة أندلسية نزحت من الأندلس الى تونس في أواسط القرن السابع الهجري . وهو ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ابن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن ابراهيم بن

عبد الرحمن بن خلدون . ويُرجع ابن خلدون أصله الى العرب اليمنية في حضرموت ، ونسبه الى وائل بن حجر ، ويعتمد في ذلك على رواية العلامة النسابة الأندلسي ابن حزم^(١) ، التي أوردتها بمناسبة الكلام عن نسب بني خلدون الإشبيليّين حيث يقول : « وكان من أكابرهم كُريب وأبو عثمان خالد ، القاتمان بإشبيلية ، اللذين قتلتهما ابراهيم بن حجاج اللخمي غيلة ، وهما ابنا عثمان بن بكر بن خالد المعروف بخلدون الداخل من المشرق » .

وأما نسب جده خلدون هذا الداخل الى الأندلس ، فهو طبقاً لابن حزم أيضاً « خالد بن عثمان بن هانيء بن الخطاب ابن كريب بن معبد يكرّب بن الحارث بن وائل بن حجر » ، فابن خلدون طبقاً لهذه النسبة سليل أصل من أعرق الأصول اليمنية . ولكن ابن خلدون يشك في صحة هذه السلسلة لأنه إذا كان خلدون هو جده الداخل الى الأندلس عند الفتح ، فإن عشرة أجداد لا تكفي لقطع الستة قرون ونصف التي انقضت منذ الفتح حتى مولده ، وفي رأيه أنه يجب لقطعها عشرون

(١) في كتاب « جبهة أنساب العرب » (ص ٤٣) وقد نشر في سنة ١٩٤٨ بالقاهرة بعناية صديقي العلامة الأستاذ ليثي بروفسال . وابن حزم هو أبو محمد بن سعيد بن حزم الأندلسي . وهو فقيه ومفكر كبير ، ولد بقرطبة وبرع في الفقه والأصول ودراسة الفرق الاسلامية . وأشهر مؤلفاته كتاب « الأحكام في أصول الأحكام » و « الفصل في الملل والأهواء والنحل » و « طوق الحمامة » وغيرها . توفي سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) . وقد خصه العلامة الاسباني آسين بلاثيوس بكتاب باللغة الاسبانية عنوانه

« ابن حزم القرطبي » Abenhazm de Cordoba

باعتبار ثلاثة أجداد لكل قرن . ومن جهة أخرى فهناك ما يحمل على الشك في صحة هذا النسب البعيد الذى يدونه ابن حزم لأول مرة في القرن الخامس الهجرى ، ويقوى هذا الشك لدينا مانعرفه من ظروف الحصومة والتنافس بين العرب والبربر في الأندلس ؛ فقد اشترك البربر في فتح الأندلس ، وقاموا بمعظم أعبائه ، ولكن العرب انفردوا دونهم بالرياسة والحكم ؛ واستمرت الحصومة بينهما أحقاباً طويلة حتى اضمحلت العصبية العربية ، وبدأت غلبة البربر منذ أوائل القرن الخامس . وكانت العروبة في الأندلس شرفاً يرغب في الانتساب إليه ، لما كان لها من السيادة والنفوذ ؛ ولكن الشك كان يحيق بأنساب كثير من أهل العصبية والرياسة ؛ بل لقد تطرق هذا الشك إلى أصول وأنساب زعماء الفاتحين أنفسهم ، فقليل مثلاً عن طارق ابن زياد ، إنه من البربر وقليل إنه فارسي من موالى العرب . وهناك أيضاً ما يبعث على التأمل في تعلق ابن خلدون بهذه النسبة العربية ، وهو أنه في مقدمته يضطرم نحو العرب بنزعة قوية من الحصومة والتحامل ، بينما نراه في مكان آخر من تاريخه يمتدح البربر ويشيد بخلاصهم وصفاتهم^(١) .

وعلى أى حال فإن ابن خلدون ينتمى الى بيت من بيوت الرياسة في الأندلس يرجع الى عصر الفتح ذاته . قدم جده الأكبر خالد المعروف بخلدون الى الأندلس في جند إيمانية ونزل أولاً في مدينة قرمونة ، ونشأ بها بياته . ثم انتقل بنوه الى إشبيلية .

(١) منعرض إلى ذلك في فصل قادم .

ولم يظهر بنو خلدون على مسرح الحوادث إلا في أواخر القرن الثالث في عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأموي (٢٧٤ — ٣٠٠ هـ) ، ففي عهده اضطربت الأندلس بالفتن ، وامتدت الثورة الى معظم النواحي ؛ وكانت إشبيلية في مقدمة المدن الثائرة ؛ ثار بها أمية بن عبد الغافر بن أبي عبده ، وعبد الله و ابراهيم ابنا الحجاج ، وكريب^(١) وخالد ابنا خلدون ، وهم يومئذ زعماء البيوت الكبيرة . وكان أمية حاكم المدينة من قبل الأمير محمد ، فخلع الطاعة واستبد بها ، ودس على عبد الله ابن الحجاج من قتله ؛ فثار عليه بنو خلدون وبنو الحجاج ، واشتدوا في مناوئته ، وقتلوه حتى قتل ؛ واستبد كريب بن خلدون بالأمر ، واستقل بإمارة إشبيلية . ولكن ثار عليه بنو الحجاج ، وتحالف زعيمهم ابراهيم مع عمر بن حفصون أعظم ثوار الأندلس يومئذ المتغلب على جنوبها ما بين مالقة ورندة ، فخشي كريب أمره وأشركه معه في حكم إشبيلية . ولما اشتدت الفتنة أرسل الأمير عبد الله قواته الى إشبيلية ، فقاتلت الثوار حتى هزموا ، وقتل منهم عدد كبير ، وأسر زعماء الفتنة . واتفق في النهاية على أن يشترك في حكم المدينة ابراهيم بن حجاج وكريب بن خلدون باسم الأمير وفي طاعته . وكان كريب صارماً شديد الوطأة فانحرف عنه أهل إشبيلية ومالوا إلى ابراهيم لما رأوه من رفقه

(١) وردت في التعريف (كريت) — كتاب العبر ، ج ٧

ص ٣٨٠ . وهو تحريف واضح والصواب أنها كريب .

ولينه ؛ واتصل ابراهيم بالأمير عبد الله وحصل منه سرّاً على عهد بولاية إشبيلية ؛ ثم ثار في أهل المدينة بكرىب وقتله ، واستقل بالإمارة وعظم أمره . واستمر بنو خلدون بإشبيلية ، طوال عهد الدولة الأموية ، ولكن دون زعامة أو رياسة ، حتى كان عهد الطوائف واستيلاء بنى عباد على إشبيلية ؛ فعندئذ سطع نجم الأسرة ثانية ، وورقت الى مراتب الرياسة والوزارة في دولة بنى عباد ، وشهد زعماءها موقعة الزلاقة الشهيرة التي انتصر فيها المرابطون بقيادة أميرهم يوسف بن تاشفين اللمتون وحلفاؤه الأندلسيون وعلى رأسهم المعتمد بن عباد على ألفونسو السادس ملك قشتالة (٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) واستشهد جماعة منهم في الموقعة . ثم دالت دول الطوائف سريعاً ، واستولى المرابطون على الأندلس مدى حين ؛ ثم قام الموحدون بالمغرب وقضوا على دولة المرابطين وانزعوا منهم سيادة الأندلس ؛ وأقطعوا زعماءهم الولايات والمدن ، فولى على إشبيلية وغرب الأندلس أبو حفص زعيم قبيلة هنتانة ، وتوارث بنوه الولاية . واتصل بنو خلدون بالولاية الجدد ، واستعادوا قسماً من الجاه والرياسة .

ولما اضمحلّت دولة الموحدين واضطربت أمور الأندلس ، وتضعفت قواعدها وثغورها ، وأخذت تسقط تبعاً في يد الاسبان ، نزع الأمير أبو زكرياً الحفصى حفيد أبي حفص الى إفريقية سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) وخلع طاعة الموحدين بنى عبد المؤمن ودعا لنفسه . وخشى بنو خلدون سوء العاقبة فغادروا إشبيلية قبل أن تقع في يد النصارى ، ونزلوا حيناً بسبته ، فأكرمهم حاكمها الحفصى ؛ ثم لحق زعيم الأسرة يومئذ وهو الحسن بن

محمد بن خلدون رابع جد للمؤرخ بالأمير أبي زكريا في مدينة بونه ، فأعقد عليه عطفه ونعمه ؛ ثم توفي الأمير أبو زكريا وخلفه ابنه المستنصر ، فولده يحيى ، فأخوه إسماعيل ؛ وبنو خلدون خلال ذلك ينعمون بالجاه والسعة . وفي عهد أبي إسماعيل ، ولى أبو بكر محمد بن خلدون جد المؤرخ الثانى شئون الدولة ، وولى ولده محمد جد المؤرخ شئون الحجابة حيناً لأبى فارس ولد أبى إسماعيل وولى عهده ، وكان قد استقل بحكم بجاية . ثم اضطرب ملك بنى حفص ، وثار بهم زعيم يدعى ابن أبى عمارة وتغلب على تونس ، واعتقل أبابكر بن خلدون وقتله وصادر أمواله ؛ وبقي ولده محمد فى بلاط بجاية ، وخاض نحر المعارك التى نشبت يومئذ بين بنى حفص والخوارج عليهم ؛ ولبت يتقلب فى ظل بنى حفص فى مراتب الدولة . ثم غلب على تونس زعيم الموحدين الأمير أبو يحيى اللحيانى سنة ٧١١ هـ فقربه وتولى حجابته حيناً . ثم اعتزل الحياة العامة ، وبقي مع ذلك على مكانته ونفوذه فى الدولة حتى توفي سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٧ م) . أما ولده محمد وهو أبو المؤرخ ، فقد زهد فى الحياة السياسية ، وآثر حياة الدرس والعلم ، وبرز فى الفقه وعلوم اللغة ، ونظم الشعر . وتوفى إبان الفناء الكبير (أو الطاعون الجارف) سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) وله من الولد عدة : أبو زيد ولى الدين وهو المؤرخ ، وكان وقتئذ فى يافعا فى الثامنة عشرة ، وعمر وموسى ويحيى ومحمد وهو أكبرهم ، ولم يظهر منهم إلى جانب المؤرخ سوى يحيى الذى تولى الوزارة فيما بعد (١) .

(١) ذكر ابن خلدون أخوته هؤلاء فى مواضع متفرقة من « التعريف » .

كان ابن خلدون إذاً سليل أسرة عريقة ناهية ، وبيت علم ورياسة ، فنشأ في مهدها هذا التراث الذي تلقاه عن أسرته ، تهديه جدودها وتقاليدها ، ودرج في حجر أبيه ، فكان معلمه الأول ؛ وقرأ القرآن وحفظه ، وتفقّه في القراءات السبع ، ودرس شيئاً من التفسير والحديث والفقه ، ودرس النحو واللغة ، على أشهر أساتذة تونس . وكانت تونس يومئذ مركز العلوم والآداب في بلاد المغرب ؛ وكانت منزل رهط من علماء الأندلس الذين شتتتهم الحوادث أو ضاق بهم الوطن . ويذكر لنا ابن خلدون أسماء معلميه وأساتذته في كل علم وفن ، ويعنى عناية خاصة بترجمتهم ووصف مناقبهم ؛ ويذكر لنا أيضاً أسماء بعض الكتب التي درس فيها . ويبدو مما كتبه في ذلك أنه تخصص نوعاً في درس الحديث والفقه المالكي ، وعلوم اللغة والشعر^(١) . ثم درس المنطق والفلسفة فيما بعد أثناء حياته العملية ؛ وبنوه ابن خلدون بتفوقه في درسهما^(٢) ، وقد شهد له جميع أساتذته وأجازوه^(٣) . وعكف ابن خلدون على التحصيل والدرس حتى بلغ الثامنة عشرة . وهنا طافت بالمغرب تلك الكارثة العظمى التي نكبت العالم الإسلامي كله من سمرقند إلى المغرب ، ونعني بها الفناء الكبير أو الطاعون الجارف كما يسميه ابن خلدون ؛ وهو نفس الوباء

(١) راجع التعريف — كتاب العبر — ج ٧ ص ٣٨٤ و ٣٨٥ .

(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٣٨٦ و ٣٩١ .

(٣) من الإجازة وهي شهادة الأستاذ لتلميذه بأنه أتم دروسه

الفاتك الذى عصف يومئذ بايطاليا ومعظم الأمم الأوربية ،
والذى ترك لنا عنه معاصره وشاهده بوكاشيو أروع الصور (١) .
وقد وقعت هذه النكبة بالمشرق والمغرب معاً سنة ١٣٤٩ م
(٧٤٩ هـ) ، وهلك فيها والدا المؤرخ وجميع شيوخه ومعظم
سكان تونس . ويشير ابن خلدون الى تلك النكبة غير مرة فى
لهجة مؤثرة فيقول إنها : « طوت البساط بما فيه » ، وفيها :
« ذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة وهلك أبواى رحمهما الله » ،
ثم يقول لنا إنه استوحش لذهاب أهله وشيوخه وتعذر عليه الاستمرار
فى الدرس ، فعول على النزوح الى المغرب الأقصى حيث نزح بعض
شيوخه وأصحابه ، فرده عن ذلك أخوه الأكبر محمد .

وتبدو روعة النكبة فيما ذكره ابن خاتمة الأندلسى فى رسالة
له عن هذا الوباء الذى طاف بالأندلس فى نفس الوقت وعصف
بمدنها ومجتمعاتها أما عصف . فقد ذكر أن الوباء لبث فى بلده
المرية أشهراً وأحصى من يموت كل يوم بسبعين . ثم يقول .
« وأين هذا العدد مما بلغنا عن غيره من بلاد المسلمين والنصارى
فقد بلغنا على السنة الثقات أنه هلك فى يوم واحد بتونس ألف
نسمة ومائتا نسمة ، وبتلمسان سبعمائة نسمة ، وهلك بجزيرة
ميورقة فى يوم أربعة وعشرين من شهر مائة ألف نسمة . . . وكذا
كان سائر البلاد صغيرها وكبيرها على ما تأتى إلينا » (٢) .

(١) تناولنا تاريخ هذا الوباء ووصف منظره فى الشرق والغرب
فى فصل خاص فى كتابنا مصر الاسلامية (ص ٨٨ — ٩٥) .

(٢) اطلعنا على هذه الرسالة ضمن مجموعة خطية بمكتبة الأسكوريال
وعنوانها « محصيل غرض القاصد فى تفصيل المرض الوافد » ورقم هذه المجموعة

ولم يمض طويل على ذلك حتى سنحت لابن خلدون فرصة
النزول الى ميدان الحياة العامة ، إذ استدعاه أبو محمد بن تافراكين
طاغية تونس يومئذ ، لكتابة العلامة عن مجوره وأسيره السلطان
الفتى أبي اسحاق ؛ وكتابة العلامة هي التوقيع باسم السلطان وشارته
على المخاطبات والمراسيم الملكية ؛ وكان المؤرخ يومئذ حدثاً في دون
العشرين .

الفصل الثاني

ابن خلدون في بلاط فاس

أوضاع إفريقية السياسية في القرن الثامن . بنو حفص وبنو عبد الواد وبنو مرين . السلطان أبو الحسن واستيلاؤه على تونس . أحوال الدول والقصور المغربية في هذا العصر . تأثر الحركة الفكرية بالتطورات السياسية . أمنية ابن خلدون في النزوح إلى المغرب . فراره من تونس . اتصاله بالسلطان أبي عنان ملك المغرب الأقصى . توليه الكتابة والتوقيع له . أطماعه ونفسه الوثابة . خوضه لغمار الدسائس . اتهامه بالتآمر . سجنه ومحتنته . إفراج الوزير الحسن بن عمر عنه ورده إلى وظائفه . انتهاءه للفرص وانقلابه على الوزير الحسن . دعوته للسلطان أبي سالم وتآمره على السلطان منصور . جلوس أبي سالم وتوليته كتابة السر والانشاء لابن خلدون . شعر ابن خلدون ونثره في هذا العهد . ولايته لحظّة المظالم . سقوط أبي سالم ومصرعه . تغلب الوزير عمر بن عبد الله على الدولة . انضواء ابن خلدون تحت لوائه . النفرة بينه وبين الوزير . إعتزازه الرحلة إلى الأندلس

— ١ —

ويجدر بنا قبل أن نتبع المؤرخ في أدوار حياته العامة ، وتقلباته في دول المغرب وقصوره ، أن نذكر كلمة عن أحوال هذه الدول والقصور .

كانت إفريقية الشمالية منذ أواخر القرن السابع الهجري مسرحاً لثورات السياسية العنيفة ، وكانت دولة الموحدين قد انهارت دعائمها وقامت على أنقاضها دويلات وإمارات عديدة . فقامت في تونس

(إفريقية) دولة بنى حفص ، وقامت دولة بنى عبد الواد فى تلمسان والمغرب الأوسط ، وقامت دولة بنى مـرـين فى فاس والمغرب الأقصى . وقامت فى ظل هذه الدول وخارجها إمارات صغيرة فى بعض القواعد والثغور على يد بعض الخوارج والزعماء الأقوياء . وكان أكبر غنم فى تراث الموحدين لبنى مـرـين ؛ وكانت دولتهم أعظم الدول الجديدة وأقواها ، تشمل المغرب الأقصى وسبـتة وجزءاً من المغرب الأوسط وأحياناً جبل طارق . وكان عميدهم ومؤسس دولتهم السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى عبر الى الأندلس وغزا أرض النصارى وهزمهم أكثر من مرة مجدداً بذلك عهد الجهاد ، وتوفى سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٦ م) . وتعاقب من بعده على العرش عدة من الملوك الأقوياء . وكان على عرش فاس فى العصر الذى نتحدث عنه السلطان أبو الحسن ؛ تولى الملك بعد وفاة أبيه السلطان أبى سعيد سنة ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) . وكان يجيش بأطماع ومشاريع كبيرة . فى سنة ٧٣٣ هـ غزا جبل طارق وافتتحها من يد النصارى . ثم زحف على المغرب الأوسط ، وما زال يفتتح ثغوره تباعاً من يد بنى عبد الواد حتى استولى على تلمسان قاعدة ملكهم سنة ٧٣٧ هـ . وبذا امتدت دولة بنى مـرـين شرقاً حتى حدود إفريقية (تونس) . وأخذ السلطان أبو الحسن بعد ذلك يتطلع الى فتح إفريقية من يد بنى حفص أصهاره وأصدقائه ؛ فسار إليها فى أوائل سنة ٧٤٨ هـ بعد أن عقد لابنـه السلطان أبى عنان على المغرب الأوسط . واستولى على تونس من يد سلطانها عمر بن أبى يحيى ؛ ولبث نحو عامين فى تونس يوطد شئونها ؛ ولكن الثورة سرت أثناء غيابه الى المغرب الأقصى

وخرج كثير من الثغور عن طاعته ، وبلغه تحفز ولده السلطان
أبي عنان لانتزاع العرش ، فاختر ولده الفضل لولاية تونس ،
وغادرها سنة ٧٥٠ هـ إلى المغرب الأقصى . وفي ذلك الحين كان
بنو حفص قد استجمعوا أمرهم لاسترداد ملكهم ، وظاهرتهم
الثغور وبايعتهم ؛ فلما غادر أبو الحسن تونس ، زحف عليها المولى
الفضل بن السلطان أبي يحيى ، واستولى عليها ، واستعاد ملك أسرته .
ولكنه لم يلبث طويلا حتى خرج عليه الوزير أبو محمد عبد الله
ابن تافراكين ، وانتزع منه العرش ، وأقام فيه أخاه الطفل أبا اسحق
ابن أبي يحيى في كفالتسه وتحت استبداده ، وذلك في أوائل
سنة ٧٥١ هـ . (١٣٥٠ م) .

هكذا كانت أحوال الدول المغربية في منتصف القرن الثامن
الهجرى : كانت الثورات والانقلابات السياسية دائمة لا تنقطع ؛
والدول تتعاقب بين مختلف المتغلبين والأسر . وكانت تقوم إمارات
صغيرة متعاقبة ، في القواعد والثغور الوسطى مثل بجاية وقسنطينة ،
وبونه ، وتلمسان ، وتضطرم حول امتلاكها معارك لا نهاية لها ،
فكانت عروش المغرب يومئذ تهتز كلها في يد القدر ؛ وكانت
قصوره لذلك مهبط الأطماع والمنافسات ، ويمكن الدسائس
والمكايد ، ومطمح أنظار المتغلبين والمتنافسين في طلب الرياسة
والملك ؛ وكانت العروش والإمارات دائمة التقلب والتداول ،
والحروب والمعارك الأهلية دائمة الضرام بين مختلف الأسر أو فروع
الأسرة الواحدة . ومع ذلك فقد كانت هذه القصور المضطربة
تسطع في فترات السلم القليلة ، وتنافس في البهاء والبذخ ، وتجذب

إليها رجال التفكير الأدب . وكان بنو حفص ، وبنو مرين بالأخص ملاذ العلماء والأدباء ، يلتفون حولهم ويستظلون برعايتهم ويتقبلون في نعمهم ؛ ويتولون لديهم مناصب النفوذ والثقة . ونلاحظ في تاريخ المغرب في هذه الحقبة أن الحركة الفكرية تزدهر وتستقر وتنقل طبقاً لأحوال الدول وتقلباتها ، وإنها كانت كالدول دائماً الاضطراب والتنقل ، وإنها لا تكاد تحتشد حول قصر معين ، حتى تهرع إلى غيره كلما انتابه الوهن والانحلال . وكما أن الحركة الفكرية كانت يومئذ في المغرب دائماً الاحتشاد والتنقل حول دوله وقصوره ، فكذا كانت دائماً التردد بين المغرب والأندلس . وكانت غرناطة لا تزال مهد حركة فكرية زاهرة ، ولكن الأندلس كانت تضيق يومئذ بعلمائها وأدبائها خصوصاً بعد أن قصت مملكة قشتالة النصرانية أطرافها ، واستولت على كثير من أراضيها وقواعدها ؛ ولذا نرى كثيراً من علماء الأندلس وأدبائها ينزحون إلى المغرب باعتباره أوسع آفاقاً ، وأوفى طمأنينة وأيسر رزقاً .

في معترك هذه الظروف والأحوال بدأ ابن خلدون حياته العامة . وكان بنو خلدون مذ نزحوا إلى إفريقية في أواسط القرن السابع يستظلون برعاية بنى حفص وينعمون في ظل دولتهم بمراتب الجاه والنفوذ . ولكن الدولة الحفصية كانت يومئذ في دور انحلالها ؛ وفقدت أسرة المؤرخ كثيراً مما كانت تتمتع به من الجاه والرزق ؛ وكان ابن خلدون يتطلع بلا ريب إلى اجتناء تراث أسرته ، وإحياء نفوذها الذاهب ، وكان رأسه الفتي يضطرم بلا ريب بكثير من الأطماع والمشاريع . وقد سنحت له أول فرصة للنزول إلى ميدان

الحياة العامة ، حينما استدعاه ابن تافراكين كما قدمنا لكتابة العلامة عن محجوره السلطان أبي اسحاق ، وذلك في أواخر سنة ٧٥١ هـ (١٣٥٠ م) . ولكن ابن خلدون كان ينظر الى ضعف حكومة تونس واضطراب أحوالها بعين التوجس والخزع . وكان بنو مرين قد غلبوا على تونس نحو عامين كما قدمنا ، وشهد ابن خلدون قوتهم وضخامة سلطانهم ؛ ولما غادر السلطان أبو الحسن تونس الى المغرب الأقصى ، غادرها في ركبه معظم المفكرين والأدباء من شيوخ ابن خلدون وأقرانه ، إثاراً للعيش في ظل الدولة القوية الظافرة ، وطموحاً الى اجتناء الجاه والرزق بعد أن نفقت سوقهما في تونس . وكانت مثل هذه الأمنية تجيش بنفس المؤرخ ، ولكن أخاه الأكبر صده حيناً عن تحقيقها ؛ فلما استدعى لكتابة العلامة أخذ يترقب الفرص للنزوح الى المغرب الأقصى لبحث وراء طالعه ، وليعالج تحقيق أطماعه حينما يلوح أفق المغامرة أوسع وأجدى .

— ٢ —

ولم يمض سوى قليل حتى سنحت هذه الفرصة ؛ ففي أوائل سنة ٧٥٣ هـ ، زحف أمير قسنطينة أبو زيد حفيد السلطان يحيى في قواته وجموعه على تونس يريد الاستيلاء عليها واسترداد تراث أسرته من قبضة الوزير المغتصب ابن تافراكين . فسار ابن تافراكين في جنده الى لقائه ، وصحبه ابن خلدون في ركبه . ووقعت بين الفريقين عدة معارك كانت الدائرة فيها على جند تونس ؛ وانسل ابن خلدون خلصة من المعسكر المهزوم ناجياً بنفسه ، وأقام حيناً في أبة عند بعض شيوخ المرابطين ؛ ثم قصد سبتة ، ثم ارتد الى

قفصة حيث وافاه بعض فقهاء تونس ، وكان يحاصرها عندئذ أمير قسنطينة ؛ ومن هنالك سار معهم الى بسكرة وقضى بها الشتاء .

وفي ذلك الحين كان السلطان أبو الحسن ملك المغرب الأقصى قد توفى (في ربيع الثاني سنة ٧٥٢) على أثر خروج ولده السلطان أبي عنان عليه واستيلائه على فاس . وكان أبو عنان أميراً وافر البأس والعزم ، فما كاد يستقر على عرش أبيه ، حتى أخذ يهيء العدة لافتتاح المغرب الأوسط واستعادة تلمسان التي افتتحها أبوه من يد بني عبد الواد ثم استعادوها لأعوام قلائل . فزحف عليها في أوائل سنة ٧٥٣ واستولى عليها وقتل ملكها أبا سعيد ؛ ثم استولى على بجاية بدخول صاحبها في طاعته . وكان ابن خلدون يومئذ في بسكرة كما قدمنا ، فسعى الى لقاء السلطان أبي عنان أثناء مقامه بتلمسان ؛ ويقول لنا المؤرخ إن السلطان أكرمه بما لم يكن يحتسب ، وردّه مع حاجبه ابن أبي عمرو الى بجاية حيث شهد مراسيم البيعة والتسليم . فلما عاد الحاجب الى السلطان ، وهرعت معه الوفود الى ركابه سار ابن خلدون معهم ، وحظى بلقاء السلطان وأكرم وفادته مرة أخرى . ثم ارتد السلطان الى فاس عاصمة ملكه ، وارتد ابن خلدون مع ابن أبي عمرو الى بجاية ، وأقام هنالك عنده حتى أواخر سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣ م) .

ولبث ابن خلدون يسعى في الالتحاق ببطانة السلطان أبي عنان حتى ظفر ببغيته . ويقول لنا ابن خلدون إن السلطان هو الذي استدعاه بعد أن جرى ذكره أمامه في مجلس عقد لاختيار طلبة العلم ؛ فقدم الى فاس سنة خمس وخمسين ، وعينه السلطان عضواً

فى مجلسه العلمى ، وكلفه بشهود الصلوات معه . وما زال يدنيه ويقر به حتى عينه فى العام التالى ضمن كتابه وموقعه . على أن ابن خلدون يقول لنا إنه قبل هذا المنصب على كره منه لأنه ليس من المناصب التى شغلها أسلافه ، أو بعبارة أخرى كان دونها مقاماً وخطورة . وفى ذلك ما يدل على مبلغ ما كان يجيش به المؤرخ رغم حدائته من الأطماع الكبيرة . على أنه استطاع أثناء مقامه بفاس ، أن يستأنف الدرس والقراءة ، على جماعة من أكابر العلماء الوافدين إليها من الأندلس وباقى أقطار المغرب . ولا ريب أنه استفاد كثيراً فى تلك الفترة ، ونمت معارفه نمواً كبيراً .

ومن ذلك الحين يغدو ابن خلدون شخصية ظاهرة فى تاريخ الدول المغربية فى هذا العصر ؛ تأخذ بقسط بارز فى تطورات هذه الدول وتقلباتها ، وتشترك أحياناً فى تدبير عوامل نهوضها أو سقوطها ، وأحياناً تثير بينها ضرام الكيد والتنافس والقتال . وكان ابن خلدون لا يزال عندئذ فتى فى نحو الثانية والعشرين من عمره ؛ ولكن ذكائه ، وقوة نفسه وعزمه ، ووفرة أطباعه ، واعتزازه بتراث أسرته ، كانت تحفزه دائماً الى طلب المزيد من الجاه والنفوذ والرزق . وكانت أحوال الدول والقصور المغربية فى ذلك العصر ، مما يفسح مجال النهوض والتقدم للطامعين ذوى الكفاية والعزم . وكانت صلة ابن خلدون بالسلطان أبى عنان ، وهو يومئذ أعظم سلاطين المغرب ، وانتظامه فى سلك ذلك البلاط العريض الزاهر ، مفتتح أفقه ، وبدأ ذلك النشاط السياسى الزاخر الذى لبث مدى ثلث قرن يحمله بين

دولة ودولة ، وبين قصر وقصر ؛ وبين الرفعة والسقوط ، والنعم والحن ، مراراً وتكراراً .

لم يمحض على انتظام ابن خلدون في بلاط فاس عامان حتى تحركت نفسه الوثابة الى خوَص نهار الدسائس السياسية . ومع أن سيده وحاميه السلطان أبي عنان لم يدخر باعترافه وسعاً في إكرامه والعطف عليه ، ومع أنه ولاه رغم حدائثه منصب الكتابة واختصه بمجلسه للمناظرة والتوقيع عنه ، فانه لم يحجم عن التآمر عليه مع الأمير أبي عبد الله محمد صاحب بجاية المخلوع ، وكان يومئذ أسيراً في فاس . ويروى لنا ابن خلدون قصة هذه المؤامرة في عبارة غامضة^(١) ؛ ويعترف بما وقع بينه وبين أمير بجاية الأسير من التفاهم ، وأنه خرج في ذلك التفاهم عن حدود التحفظ . ولكنه يعتذر لنا بأنه حمل على ذلك بما كان بين أسرته وبين بني حفص الذين ينتمى إليهم الأمير المخلوع من الود القديم . وكان السلطان أبو عنان يومئذ مريضاً فتمى إليه خبر المؤامرة ، وأن ابن خلدون يعمل لفرار أمير بجاية واسترجاع ملكه ، على أن يوليه حجابه متى تم له الأمر^(٢) . فأمر بالقبض عليه وألقاه في غيابة السجن ، ومع أنه أطلق أمير بجاية فيما بعد ، فإنه أبقى المؤرخ يرسف في أغلاله . ونزلت بابن خلدون تلك المحنة التي ينسبها الى سعاية خصومه في أوائل سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٧ م) .

وقضى ابن خلدون في ظلام السجن زهاء عامين طويلين ،

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٠٣ .

(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٤١٧ .

وتضرع الى السلطان أبي عنان مراراً أن يطلقه ، ولكن السلطان
أعرض عن كل تضرع وشفاعة ؛ وأخيراً رفع إليه قصيدة طويلة
في نحو مائتي بيت يلتمس عطفه وصفحه ؛ وقد ذكر لنا منها
الآبيات الآتية :

على أى حال لليالى أعاتب وأى صروف للزمان أغالب
كفى حزناً أنى على القرب نازح وأنى على دعوى شهودى غائب
وأنى على حكم الحوادث نازل تسلمنى طوراً وطوراً تحارب

سلوتهم إلا ادكار معاهد لها فى الليالى الغابرات غرائب
وإن نسيم الريح منهم يسوقنى إليهم وتصبينى البروق اللوابع
ويقول لنا ابن خلدون إن قصيدته وقعت من السلطان أحسن
موقع . وكان أبو عنان يومئذ بتلمسان فوعد بالإفراج عنه . ولكن
المرض اشتد به وتوفى قبل تحقيق هذا الوعد فى ذى الحجة سنة ٧٥٩
(أواخر ١٣٥٨ م) . فعندئذ بادر الوزير الحسن بن عمر القائم بأمر
الدولة باطلاقه مع جماعة من المعتقلين الآخرين ، وردده الى سابق
وظائفه ، وأغدق عليه عطفه ، وأحسن رعايته ومثواه .

— ٣ —

ولما توفى السلطان أبو عنان ، أقصى الوزير الحسن بن عمر
ولده وولى عهده أبا زيان عن الملك ، وأقام ولده الطفل السعيد على
العرش ، واستبد بالدولة وقتل منافسيه من الوزراء الآخرين . وكان
أبو عنان حينما انتزع العرش من أبيه قد قبض على أخيه المولى
أبي سالم ونفاه الى الأندلس مع باقى إخوته ؛ فلما توفى أبو عنان

بادر أبو سالم بالسعى الى استرداد العرش ، وعبر الى المغرب بعد صعاب جمة ، ونزل بجبال غمارة ودعا بالملك لنفسه ، فاجتمعت إليه قبائل غمارة وظاهرته على أمره ؛ وحدث في الوقت نفسه انقلاب جديد بفاس . ووثب منصور بن سليمان وهو من عقب يعقوب ابن عبد الحق بالوزير الحسن فانزع السلطة من يده ، وتوارى الوزير وسلطانة السعيد ، فحاصرهما المنصور . وألفى ابن خلدون في تلك الحوادث فرصة للعمل والظهور ؛ وقام خلالها بدور لاجئ ، وقد كان تصرفه في حق السلطان أبي عنان بادرة سيئة تم عن عواطف وأهواء ذميمة ؛ بيد أنه لم يكن وليد خطأ مؤقت بل كان بالعكس عنوان نزعة متأثلة في النفس ، وثمره مبدأ راسخ . كان ابن خلدون رجل الفرص ، ينتهزها بأي الوسائل والصور ؛ وكانت الغاية لديه تبرر كل واسطة ، ولا يضيره في ذلك أن يجزى الخير بالشر والإحسان بالإساءة ؛ وهو صريح في تصوير هذه النزعة لا يحاول إخفاءها . فقد أطلقه الوزير ابن عمر من الأسر ، وأحسن إليه وأثابه ؛ ولكنه ما كاد يرى وثوب المتغلب منصور بن سليمان حتى ترك جانب الوزير الى جانب خصمه ، وتولى الكتابة للملك الجديد ؛ بيد أن ولاءه لم يطل ؛ فان السلطان أبي سالم نزل في غمارة وأخذ يدعو لنفسه ، فاتصل مبعوثه الفقيه ابن مرزوق بابن خلدون سراً ، وسلمه من أبي سالم كتاباً يرجوه فيه بث دعوته والتمهيد لعوده ويعده بأجل خير وحظوة ، فقام ابن خلدون بالمهمة ، ومضى في تحريض الزعماء والشيوخ حتى استجابوا لدعوة أبي سالم ، وأجمعوا أمرهم على تأييده ؛ وكذا وافق الوزير ابن عمر على طاعته بعد أن

أجهده الحصار. ثم غادر ابن خلدون سيده فجأة مع نفر من الزعماء إلى معسكر السلطان أئى سالم ، وعرض عليه خطته لخلع منصور ابن سليمان . وهنا يعتذر ابن خلدون عن تصرفه ، ويصرح لنا بأنه انحرف عن منصور « لما رأيت من اختلال أحواله ومصير الأمر إلى السلطان »^(١). وسار أبو سالم في جموعه ، وابن خلدون في ركابه ، إلى فاس ، ففر منصور بن سليمان عند مقدمه ؛ وجلس أبو سالم على عرش أبيه (في شعبان سنة ٧٦٠) وعين ابن خلدون كاتب السر والإنشاء ، وجعله موضع ثقته وعطفه . وبنوه ابن خلدون بأنه نهج يومئذ في كتابة الرسائل نهجاً جديداً ، إذ تحرر من قيود السجع وكان يومئذ قاعدة الكتابة ، وعدل عنه إلى السهل المرسل ؛ ويقول لنا أيضاً إن شاعريته تفتحت في هذه الفترة ، فنظم الكثير من الشعر الذي « يتوسط بين الإجادة والقصور » وأنشد السلطان كثيراً من القصائد في مختلف المناسبات ، وكان من أشهر وأبدع ما نظمته في ذلك الوقت ، قصيدة طويلة رفعها إلى السلطان ليلة المولد النبوي (سنة اثنتين وستين) يعدد فيها مناقب النبي الكريم ومعجزاته ، ويمتدح السلطان ، وهذا مطلعها :

أسرفني في هجرى وفي تعذبي	وأطلن موقف عبرتي ونحبي
وأبين يوم البين موقف ساعة	لوداع مشغوف الفؤاد كثيب
للّه عهد الظاعنين وغادروا	قلبي رهين صباية ووجيب
غربت ركائبهم ودمعى سافح	فشرقت بعدهم بماء غروب

سائل به طامى العباب وقد سرى تزجيه ريح العزم ذات هبوب
تهديه شهب أسنة وعزائم يصدعن ليل الحادث المرهوب
حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه وسط الهدى بفريقها المغلوب
ورفع الى السلطان يوم وفدت عليه هدية ملك السودان
(سنة ٧٦٢) وفيها الزرافة ، قصيدة أخرى ينوه فيها بعهده ومآثره ،
ويصف الزرافة بما يأتي :

ورقيمة الأعطاف حالية موشية بوشائع البرد
وحشية الأنساب ما أنست في موحش البیداء بالقود
تسمو بجحيد بالغ صعدا شرف الصروح بغير ما جهد
طالت رؤوس الشاخات به وار بما قصرت عن الوهد
وقد كانت هذه الفترة بالنسبة لابن خلدون ، فيما يظهر ،
عهد البيان والشاعرية ؛ فاشتهر أمر نثره ونظمه في دوائر الأدب
والشعر بالمغرب والأندلس يومئذ . ويصف لنا ابن الخطيب نثره
ورسائله السلطانية بأنها « خليج بلاغة » ، ورياض فنون ، ومعادن
إبداع يفرغ عنه يراعه الجريء ، شبيهة البداءات بالخواتم في نداوة
الحروف وقرب العهد بجزية المداد ، ونفوذ أمر القريحة واسترسال
الطبع . ويقول عن نظمته إنه « نهض لهذا العهد قدماً في ميدان الشعر
ونقده باعتبار أساليبه ، فاثقال عليه جوه ، وهان عليه صعبه ،
فأتى منه بكل غريبة » (١) .

ونلاحظ أن شعر ابن خلدون تبدو عليه مسحة من التصوف

(١) ابن الخطيب في ترجمته لابن خلدون في « الاحاطة في أخبار
غرناطة » ونقلها المقرئ في نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ١٤٤ وما بعدها .

وأنه ينحو في كثير من قصائده منحى الشعراء الصوفيين في صوغ الغزل الروحي . وقد كان ابن خلدون على ما يظهر يجيش بنزعة صوفية ؛ ويبدو مما كتبه في المقدمة عن التصوف وعن تجرد النفس من الاعتبارات الدنيوية والسمو الى الملكوت الأعلى^(١) أنه قد درس التصوف وخواصه دراسة لا بأس بها . ونحن نورد خلال حديثنا نماذج من نظم ابن خلدون مما دونه في « التعريف » أو ترجمته لنفسه . وأما رسائله السلطانية فلم يدون لنا شيئاً منها ؛ غير أنه دون بعض رسائله الخاصة التي تبادلها مع ابن الخطيب ، وفيها تبدو قوة بياانه ومقدرته في معالجة النثر المرسل^(٢) . على أنه يبدو مثل هذه المقدرة في البيان والتعبير بالأخص في مقدمته وجميع تاريخه حسبنا نبين بعد .

ولبت ابن خلدون في كتابة السر والإنشاء والمراسيم للسلطان أبي سالم زهاء عامين ، ثم ولاه « خطة المظالم » (القضاء) فأداها بقوة وكفاية . يبدو أن حظوته لدى السلطان ضعفت وضمحل نفوذه ؛ وكانت المنافسات دائمة الاضطرام بينه وبين رجال الدولة . وكان الخطيب ابن مرزوق صديق السلطان وزميله في المنفى متمكناً من حظوته ، يستأثر لديه بكل نفوذ ورأى ، حتى أصبح هو المتسلط على شئون الدولة والقباض على كل سلطة ، يتصرف بالأمر والنهي طبق هواه ؛ فكان هذا الطغيان يسخط رجال الدولة وأولى الرأي ويفسد ما بينهم وبين السلطان . وكان ابن خلدون ممن

(١) المقدمة ص ٣٩٠ وما بعدها وص ٤٢٧ .

(٢) تراجع هذه الرسائل في كتاب العبر ، ج ٧ ص ٤٢٧ ، ٤٣٤ .

عمل ابن مرزوق على إضعاف حظوظهم ونفوذهم ، وكثرت منه
الوقعة والسعاية في حقه غيرة منه ، وخشية من نفوذه ؛ وتمادى
ابن مرزوق في طغيانه حتى انفجر بركان السخط عليه وعلى
السلطان من كل ناحية ، وأجمع الزعماء والكبراء رأيهم على الخروج
والثورة . وكان زعيمهم في ذلك الوزير عمر بن عبد الله صهر
السلطان . وكان أبوه الوزير عبد الله بن علي من قبله متمكناً في دولة
بنى مرين بجاهه وواسع ثرائه . فلما توفي سنة ستين عند ولاية
السلطان أبي سالم تطلع الولد الى تراث أبيه ، واستعان بابن مرزوق
على تحقيق بغيته ، وزوجه السلطان بأخته ، وعينه كبير أمنائه
وجعله موضع ثقته حيناً . ولكن استبداد ابن مرزوق بشئون الدولة
كان يحفظه ويذكرى سنطه ؛ وكان السلطان من جهة أخرى يشك
في صلته بأمر تلمسان وأنه يأتمر معه به حتى هم بنكبته غير مرة ؛
فلما تجاوز ابن مرزوق في طغيانه كل حد ، واختمرت فكرة الثورة
تفاهم عمر بن عبد الله مع قائد الجند ، ووثب بالقصر الملكي في
غيبية السلطان واستولى على البلد الحديد (العاصمة الجديدة) ونادى
بخلع أبي سالم وتولية أخيه تاشفين سلطاناً مكانه ؛ واضطربت عندئذ
نار الثورة في كل ناحية ونهبت الخزائن الملكية ؛ وحاول أبو سالم
أن يهاجم الثوار لاسترداد عرشه ، ولكنه لما رأى تسرب أصدقائه
من حوله الى الظافر ، فر في جماعة من صحبه ، فطارده الوزير
عمر وقبض عليه وأمر بقتله ؛ واستبد بالأمر واستأثر بكل سلطة ؛
وكان ذلك الانقلاب في أواخر سنة ٧٦٢ هـ (١٣٦١ م)^(١) .

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٣١٢ - ٣١٤ .

ماذا كان موقف ابن خلدون إزاء ذلك الانقلاب الجديد ؟
كان كما عهدناه دائماً الى جانب الظافر ينضوى تحت لوائه دون
إحجام ولا تردد . فلما تم الأمر لعمر بن عبد الله أقره في وظائفه
وزاد في إقطاعه ورزقه . ولكن ابن خلدون لم ترضه هذه النتيجة .
فقد كان على قوله « يسمو بطغيان الشباب الى أرفع مما كان فيه » .
وكانت له مع الوزير عمر منذ عهد السلطان أبي عنان صداقة قديمة ،
وكان يعتمد على هذه الصداقة في التمكن لدى الوزير ويرى لها
حقها عليه ، ويرجو أن تكون الفرصة قد سنحت لتحقيق أمانيه
في الظفر بمناصب الدولة العليا من حجابة أو وزارة . ولكن الوزير
عمر لم يحقق له أملاً في ذلك . ولعله كان يخشى بحق مما تجيش به
نفسه من المشاريع والخطط . فعندئذ غضب ابن خلدون واستقال
من وظائفه ، واستاء منه الوزير وأعرض عنه وتنكر له ؛ فتوجس
ابن خلدون شراً ، واستأذن في السفر الى بلده تونس فنعاه الوزير
من ذلك خشية أن يمر في طريقه بعدوه أبي حمشو أمير تلمسان التي
استرجعها بنو عبد الواد يومئذ ؛ فاستغاث ابن خلدون بمسعود
ابن ماسي زميل الوزير عمر وصهره فأغاثة وما زال بعمر ، حتى
أذن له في السفر بشرط أن يجانب تلمسان وألا يذهب إليها بأى
حال ومن أى طريق . فاختر ابن خلدون الرحلة الى الأندلس .
وهنا يحدثنا ابن خلدون لأول مرة عن زوجه وولده ، فيقول لنا
إنه صرفهم الى أخوالهم في قسنطينة . وإذاً فقد كان ابن خلدون
يومئذ متزوجاً وكان له أولاد . ولم يقل لنا من قبل إنه تزوج ،
ولا نعرف تاريخ زواجه بالتحقيق . غير أننا نعتقد أن هذا الزواج

كان في سنة ٧٥٤ هـ ، أعني قبل ذلك بعشرة أعوام ، في الوقت الذي كان يتجول فيه في المغرب الأوسط على أثر مغادرته لتونس سنة ٧٥٣ هـ ؛ وكان عندئذ يقيم ببجاية على مقربة من قسنطينة ، وفق ما أسلفناه . وسنرى أن ابن خلدون يتبع منذ الآن أسرته بالذكر فيشير الى تنقلاتها معه في مختلف المواطن ؛ بيد أنه لا يقدم إلينا عنها أو عن ولده أو حياته المنزلية أى تفصيل آخر .

الفصل الثالث

رحلة الأندلس

محمد بن الأحمر ملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب . نكبة ابن الأحمر ووفوده مع وزيره الى بلاط قاس . قصيدة ابن الخطيب في استنهاض ملك المغرب لنصرة ملكه . ابن الخطيب وابن خلدون . إستراداد محمد بن الأحمر لعرشه ورده ابن الخطيب الى وظائفه . سفر ابن خلدون الى غرناطة . توثيق الصلة بينه وبين ابن الأحمر . إرساله سفيراً لملك قشتالة . رواية ابن خلدون عن زيارته لاشبيلية موطن أجداده . فتور العلائق بينه وبين ابن الخطيب . مغادرته للأندلس .

وكان ملك غرناطة (الأندلس) في ذلك الحين محمد بن يوسف بن اسماعيل بن الأحمر النصري . ولي الملك عقب مقتل أبيه السلطان يوسف أبي الحجاج سنة ٧٥٥هـ (١٣٥٤م) . وكان حَكَمًا ضعيفاً فاستبد حاجبه أبو النعيم رضوان بشئون الدولة ؛ وكان من وزرائه لسان الدين محمد بن الخطيب أشهر كتاب الأندلس وشعرائها يومئذ ، وكان وزيراً لأبيه من قبل . وكان السلطان أبو عنان قد قبض على أخيه السلطان أبي سالم وباقي أخوته ونفاهم الى الأندلس كما قدمنا ، فأكرم السلطان محمد مثوهم ، وأحكمت بينه وبين السلطان أبي سالم صداقة متينة . فلما توفي السلطان أبو عنان ، واسترد أبو سالم عرشه في شعبان سنة ستين ، كانت الصلة بين الأميرين أوثق ما تكون . بيد أنه لم تمض أسابيع قلائل على جلوس أبي سالم ، حتى نكب صديقه السلطان محمد وفقد عرشه في أواخر

رمضان سنة ستين . وكان أخوه اسماعيل توارزوه جماعة من الزعماء في مقدمتهم صهر له من أبناء عمومته يدعى الرئيس عبد الله . فكان أبو عبد الله يدعو لاسماعيل سرّاً ويترقب الفرص للوثوب بمحمد . فانتهاز فرصة غيابه ذات يوم عن غرناطة ، واستولى على قصبة الحمراء في جمع من أتباعه ، وقتل الحاجب رضوان ، ونادى باسماعيل أخى السلطان ملكاً مكانه . ففر محمد الى وادى آش ، واعتقل وزيره ابن الخطيب^(١) ؛ وعلم أبو سالم بمحنة صديقه ،

(١) لسان الدين بن الخطيب ، هو محمد بن عبد الله بن سعيد من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها في القرن الثامن الهجرى . ولد بلوشة من أعمال غرناطة سنة ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) ودرس دراسة حسنة ، وبرز في النظم والانشاء . ودرس الطب والفلسفة ؛ وخدم سلاطين غرناطة منذ حدائته فتولى ديوان الكتابة ثم الوزارة للسلطان أبي الحجاج ، ثم تولى الوزارة لولده محمد ، وشاطره محتته ونفيه ؛ فلما استرد عرشه عاد الى سابق مراتبه ، واستبد بشئون الدولة حيناً ؛ فلما أخذ نجمه في الانحلال ، ونفوذه في الضعف ، نزح الى المغرب الأقصى واستظل بلواء سلطانها ؛ ولكن خصومه سعوا الى هلاكه ، ومازالوا به حتى اتهم بالزندقة والكفر حسداً فنصل بعد ، فقبض عليه وأعدم وأحرقت جثته سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) وله ثبت حافل من الآثار أشهرها : الاحاطة في أخبار غرناطة (ومنه جزءان بالاسكوريال) . واللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية (طبع بمصر) . ريحانة الكتاب (في الاسكوريال والفاتيكان) رقم الحفل في نظم الدول (بالاسكوريال وطبع بتونس) . السحر والشعر . الكتبية الكاسنة في أدباء المائة الثامنة . أعمال الأعلام (أكاديمية التاريخ بمدريد) . منقعة السائل في المرض الهائل (بالاسكوريال) . كناسة الدكان بعد انتقال السكان (بالاسكوريال) . نفاضة الجراب (بالاسكوريال) . الحلل الموشية في الأخبار المراكشية . وغيرها . وله رسائل وقصائد لا تحصى . وقد أفرد له المقرئ صاحب نفح الطيب من مؤلفه مجلدين كبيرين ألم فيهما بكثير من أخباره وآثاره .

ورعى له عهد الصداقة والوفاء ، فأرسل الى الأندلس سفيراً يسعى
لدى حكومة غرناطة فى إجازة السلطان المخلوع ووزيره المعتقل الى
المغرب . فنجح السفير فى مهمته ، وعاد الى المغرب صحبة السلطان
محمد والوزير ابن الخطيب (المحرم سنة إحدى وستين^(١))
واستقبلهما أبو سالم فى فاس أبجل استقبال ، واحتفل بقدميهما
فى يوم مشهود ، وأنشده ابن الخطيب يومئذ قصيدة رائعة ، يدعو
فيها لنصرة سلطانه وغيثه ، هذا مطلعها :

سلا هل لديها من مخبرة ذكر	وهل أعشب الوادى ونم به الزهر
وهل باكر الوسمى دارا على اللوى	عفت آيها إلا التوهم والذكر
بلادى التى عاطيت مشمولة الهوى	بأكنافها والعيش فينان مخضر
وجوى الذى ربي جناحي وكره	فها أنا ذا مالى جناح ولا وكر

ومنها :

قصدناك ياخير الملوكة على النوى	لتنصفنا مما جنى عبدك الدهر
كففنا بك الأيام عن غلوائها	وقد رأينا منها التعسف والكبر
وعذنا بذلك المجد فانصرم الردى	ولذنا بذلك العزم فانهزم الشر
ولما أتينا البحر نرهب موجه	ذكرنا نذاك الغمر فاحتقر البحر

ومنها :

(١) راجع فى تفصيل هذه الحوادث ، تاريخ الدولة النصرية لابن
الخطيب ص ١٠٨ وما بعدها ، وابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧
ص ٣٠٦ وما بعدها .

وأنت الذى تدعى إذا دهم الردى وأنت الذى ترجى إذا أخلف القطر
ومثلك من يرعى الدخيل ومن دعا بيا المرين جاءه العز والنصر
وخذ يا إمام الحق بالحق ثأره فى ضمن ماتأتى به العز والأجر (١)

وكان ابن خلدون من شهود ذلك الحفل . ويقول لنا إن ابن الخطيب أبكى سامعيه تأثراً وأسى . ويقول لنا ابن الخطيب نفسه إن القوم كانوا يرتجفون تأثراً لأقواله . وكان هذا أول لقاء بين هذين الرجلين العظيمين اللذين تجمع بينهما مشابهاة عديدة ؛ فقد كان كلاهما أستاذ عصره وقطره فى التفكير والكتابة ؛ وكان كلاهما شخصية بارزة فى حوادث عصره يتصل منها بأوثق صلة ، ويخوض غمارها متقلباً بين الظفر والحنة ؛ وكان كلاهما وزيراً ومستبدلاً ومستشاراً لأمرء عصره ، ومحرضاً لهم أو عليهم . كان ابن خلدون يشغل فى دول المغرب نفس المركز الذى كان يشغله ابن الخطيب فى الأندلس ؛ وقد استأثر فى المغرب بزعامة التفكير والكتابة التى كان يستأثر بها ابن الخطيب فى الأندلس . وقد جمعت بين الرجلين أواصر الحب والصداقة ، وفرقت بينهما عوامل الغيرة والتنافس ؛ وكان كل منهما رغم ذلك يحترم صاحبه ويحمله ، ويكبر مواهبه وخلاله . وقد ترجم كل منهما الآخر ؛ وذكره بما ينم عن خالص التقدير والإجلال ؛ فيقول لنا ابن خلدون فى ترجمته لابن الخطيب إنه « بلغ فى الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملاً الدولة بمدايحه ، وانتشرت فى الآفاق قدماه » ثم ينوه بعد ذلك بروعة

(١) والقصيدة طويلة فى نحو ثمانين بيتاً وقد ورد نصها كاملاً فى الكتابين السابقين .

رسائله السلطانية ، وُبُعِدَ همته في الإدارة والحكم^(١) ؛ ويصف ابن الخطيب ، ابن خلدون في ترجمته إياه بأنه : « جم الفضائل باهر الخصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، على الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لقن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم في عدة فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث كثير الحفظ ، صحيح التصور . . . »^(٢) . ويبدى كلا الرجلين فيما تبادلوا من رسائل ، لصاحبه مثل هذا التقدير والإجلال .

وأقام السلطان محمد في بلاط فاس حيناً ولم يدخر أبو سالم وسعاً في إكرامه . وتجول ابن الخطيب حيناً بالمغرب ، واستقر بسلا . وتوثقت بين ابن خلدون وهو يومئذ من أكابر رجال الدولة وبين الأمير المخلوع روابط المحبة والصدقة ؛ وكان يقوم بخدمته وقضاء مطالبه ؛ فلما سافر الأمير الى الأندلس ليحاول استرجاع ملكه تولى ابن خلدون أمر أسرته ، ورعاية شئونها ومطالبها ، وتوفير راحتها . وعقدت أيضاً بينه وبين ابن الخطيب أواصر صداقة نمت وتوثقت فيما بعد ؛ وحاول السلطان محمد أن يعمل لاسترداد ملكه بمعاونة بيدرو القاسي (بتره أو بطره) ملك قشتالة ،

(١) وردت هذه الترجمة خلال حديث ابن خلدون عن حوادث الأندلس والمغرب في كتاب العبر ج ٧ ص ٣٣٢ وما بعدها . وراجع حديث ابن خلدون عن مصرع ابن الخطيب ج ٧ ص ٣٤١ .

(٢) وردت هذه الترجمة في كتاب «الاحاطة في أخبار غرناطة» ونقلها المقرئ في نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٤١٤ وما بعدها .

تنفيذاً لاتفاق عقد بينهما ؛ ولكن ملك قشتالة حيناً سمع بمصرع السلطان أبي سالم ، أبدى فتوراً في التنفيذ ، فاستغاث محمد عندئذ بالوزير عمر بن عبد الله المتغلب على المغرب ، ووسط لديه ابن خلدون ، وكانت له يومئذ لديه حظوة ، في أن يقطعه لإحدى مدن الأندلس المغربية ، ليتخذها قاعدة للعمل والتأهب . فأقطعه رندة وأعمالها . وما زال يدبر أمره ، حتى استعاد ملكه من أيدي خصومه ، ودخل غرناطة ظافراً في جمادى الآخرة سنة ٧٦٣ واستتب له الأمر ؛ واستقدم إليه أسرته من فاس ، واستدعى وزيره ابن الخطيب ورده الى سابق مراتبه ونفوذه .

ثم وقع الجفاء بين ابن خلدون وبين صديقه الوزير عمر ، فاعتزم الرحلة الى الأندلس كما قدمنا . وإذ كانت بينه وبين سلطان الأندلس ووزيرها صداقة حميمة ، وكان له عليهما أياد لا تنسى ، فانا نستطيع أن نتصور العوامل التي دفعته الى تلك الرحلة ، والآمال التي كان يعلقها عليها . فقصد الى سبتة في أوائل سنة ٧٦٤ هـ ، ثم جاز منها الى الأندلس ، وكتب الى السلطان وابن الخطيب بمقدمه . ولما أشرف على مرج غرناطة تلقى رسالة رقيقة من ابن الخطيب يهنئه فيها بالقدوم . ووصل الى غرناطة في الثامن من ربيع الأول ، فاهتم السلطان لمقدمه ، واحتفى بلقائه وأكرم مثواه ، ونظمه في أهل مجلسه ، وقربه إليه ، وآثره بصحبته وأسماؤه . وعامله ابن الخطيب بمنتهى الإكرام والرعاية . وفي العام التالي ، أعفى سنة خمس وستين (١٣٦٣ م) ، أوفده السلطان

سفيراً عنه الى بيدرو القاسى (بّرة أو بطرة) ملك قشتالة^(١) ،
ومعه هدية فخمة ، لإتمام عقد الصلح وتنظيم العلائق بينهما .
فقصد ابن خلدون إليه فى إشبيلية وكانت يومئذ عاصمة قشتالة
ومستقر البلاط ؛ وتلقاه ملك قشتالة بالترحيب والإكرام . وهنا
يقول لنا ابن خلدون ، إنه عاين آثار أسرته بإشبيلية ، وقد كانت
كما رأينا منزل بنى خلدون وفيها سطع نجمهم حيناً ؛ وإن ملك
قشتالة وقف على تاريخ أسرته ؛ وعرفه به وبمكانته طبيب يهودى
فى بلاطه يدعى ابراهيم بن زرور ، وكان قد تعرف به فى مجلس
السلطان أبى عنان من قبل حين استدعاه لمعالجته ؛ ثم يقول لنا إن
ملك قشتالة عرض عليه عندئذ أن يبقّى فى خدمته ، وأن يسعى لدى
زعماء دولته ليرد إليه تراث أسرته بإشبيلية ولكنه أبى . ولا ريب أن
ابن خلدون كان أذكى من أن يعتقد أن ملك قشتالة كان جاداً
فى عرضه . وأدى ابن خلدون مهمته بنجاح ، ووهبه ملك قشتالة
« بغلة فارهة بمركب ثقیل ولحام ذهبين » فأهداهما الى السلطان ؛
وأقطعه السلطان عند عودته قرية إلبيرة بمرج غرناطة ، فزاد رزقه
واتسعت أحواله ، واستأذن السلطان فى استقدام أسرته من قسنطينة ،
فبعث السلطان فى استقدامها . وعاش مدى أشهر آخر مع أسرته
فى رغد وطمأنينة . ولكنه لم يلبث أن شعر بانقباض السلطان عنه ،
وشعر بأثر ابن الخطيب وسعايته فى ذلك من فتوره وإعراضه ؛

(١) هو بيدرو أو بطرس القاسى ملك قشتالة ولد سنة ١٣٣٤ وتوفى
سنة ١٣٦٩ ، وتولى العرش بعد وفاته أبيه الفونسو الحادى عشر
سنة ١٣٥٠ ، وقد اشتهر بصرامته وطغيانه وبطشه .

وكان الوزير يخشى بلا ريب منافسته ومشاريعه . وأدرك ابن خلدون أنه لم يبق للبقاء موضع ، ووصلته في الوقت نفسه رسالة من صديقه الأمير أبي عبد الله محمد أمير بجاية بأنه استرد ملكه ، وأنه يرغب في قدومه ، فقرر مغادرة الأندلس عندئذ واستأذن السلطان فأذن له ، وزوده بأعطيته ، وشيعه معززاً مكرماً ؛ فغادر الأندلس ، وركب البحر من المريّة الى بجاية ، في منتصف سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) .

الفصل الرابع

ذروة المغامرة

أبو عبد الله محمد أمير بجاية . استعادته للملكة واستدعاؤه لابن خلدون .
تولى ابن خلدون الحجابة المطلقة في بجاية . استيلاء أبو العباس أمير
قسنطينة على بجاية ومصرع الأمير محمد . انضواء ابن خلدون تحت لواء
الظافر . الوحشة بينه وبين أبي العباس وفراره الى بسكرة . المغزى
الأخلاقى لهذه الحوادث . استدعاء أبو حو سلطان تلمسان لابن خلدون .
اعتذاره وقيامه بالدعوة له . السلطان عبد العزيز الريني يفتتح
تلمسان . اتصال ابن خلدون به وقيامه بدعوته . قدوم ابن الخطيب
الى المغرب . سفر ابن خلدون الى فاس . تطور الحوادث في المغرب
وقيام السلطان أبو العباس أحمد . الدسائس حول ابن خلدون . سفره
الى الأندلس . المطالبة بتسليمه . مصرع ابن الخطيب .

لم ينس أمير بجاية إبان ظفروه صديقه أيام محنته ، ولم ينس
أن هذا الصديق قد عانى من أجله عذاب الأسر والسجن . فكتب
إليه يستدعيه ليشركه في أمره وليحقق له الوعد الذى قطع على نفسه .
وكانت بجاية من قبل من أعمال مملكة إفريقية (تونس) خاضعة
للدولة الحفصية . فلما غلب على تونس الأمير أبو يحيى اللحياني
سنة ٧١١ هـ كما قدمنا ، أقطع الثغور لأولاده فتولى بجاية ابنه الأمير
أبو زكريا ولبث في حكمها حتى وفاته سنة ٧٤٦ هـ ، وخلفه في
حكمها ولده الأكبر الأمير أبو عبد الله محمد . ولما زحف السلطان
أبو الحسن على إفريقية خلع الأمير محمداً فيمن خلع من أمراء
الثغور ونفى الى المغرب . ولما ثار السلطان أبو عنان على أبيه أثناء

غيبته في إفريقية رد الأمراء المخلوعين وفيهم الأمير محمد الى ثغورهم لكي يعترضوا أباه عند العودة . فاستقر محمد حيناً آخر في حكم بجاية ثم توفي السلطان أبو الحسن ، وتم الأمر لأبي عنان . فانزعج بجاية من صاحبها كرة أخرى وأرغمه على النزول عنها إليه ونفاه الى المغرب فأقام هنالك حتى قدم ابن خلدون على السلطان أبي عنان ودخل في خدمته . وعندئذ توثقت أواصر الصداقة بين ابن خلدون والأمير المخلوع لما كان بين أسرتهما من سابق المودة ؛ واتهم ابن خلدون بالتآمر مع صديقه ، وبأنه يدبر له سبل الفرار لكي يسترد إمارته ثم يولييه حجابته ، واعتقل مدى عامين حتى وفاة السلطان أبي عنان . فلما تولى السلطان أبو سالم سعى ابن خلدون لإطلاق الأمير محمد وباقي الأمراء المنفيين الى ثغورهم ، وكتب له الأمير محمد بخطه عهداً بأن يولييه حجابته متى استرد سلطانه . ثم سار الأمير الى بجاية وما زال حتى انتزعها من يد خصومه ومنافسيه في سنة ٧٦٥ هـ ، واستوزر يحيى أخا ابن خلدون الأصغر ، وبعث الى ابن خلدون وهو بالأندلس يستدعيه ليولييه حجابته وفاء بعهده . فاستجاب إليه وكان قد اعتزم الرحيل من الأندلس كما قدمنا . ووصل الى بجاية في منتصف سنة ست وستين . فاستقبله أمير بجاية وأهلها أهل استقبال . ويصف لنا ابن خلدون يوم مقدمه في تلك العبارة الرنانة : « فاحتفل السلطان بقدومي ، وأركب للقائي ، وتهافت أهل البلد على من كل أوب يمسحون أعطافي ، ويقبلون يدي ، وكان يوماً مشهوداً » .

وتولى ابن خلدون في الحال منصب الحاجب لسلطان بجاية ،

وقد كانت الحجابة يومئذ في الدول المغربية حسب تعريفه هي :
 « الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وأهل مملكته لا يشاركه
 في ذلك أحد » . واستبد بشئون الدولة ، ومضى يدبر الأمور بعزم
 ويعالج الفن القائمة بحزم وذكاء ، ويتجول بين القبائل الجبلية
 يستخلص منها الحجابة قسراً بقوة دهائه ونفوذه . ولكن الخصومة
 ما لبثت أن نشبت بين أمير بجاية وبين ابن عمه السلطان أبي العباس
 صاحب قسنطينة . وكان أبو العباس يتطلع الى امتلاك بجاية
 ويشير على أميرها القبائل والبطون المجاورة . ويقول لنا ابن خلدون
 أيضاً إن الأمير محمدا لم يحسن السيرة في أهل بجاية بل كان يرهقهم
 ويشدد الوطأة عليهم ، حتى انحرفوا عنه واعتزموا الخروج عن طاعته
 إجابة لتحريض أبي العباس . وفي سنة سبع وستين قصد أبو العباس
 في جموعه الى بجاية ، وقاتل الأمير محمدا بظاھرھا وهزمه وقتله ،
 ودخل بجاية اظافراً . وكان ابن خلدون أثناء ذلك يلزم القصر في
 بجاية ، فلما كانت الدائرة على محمد خاطبه بعض الزعماء في تولى
 الأمر والدعوة لأحد أبناء السلطان ، فأبى وخرج كعادته الى تحية
 الظافر والانضواء تحت لوائه ؛ وسلم ابن خلدون المدينة الى
 أبي العباس ، فأكرمه وأقره حيناً في وظيفته ؛ ولكن ابن خلدون شعر
 عما قليل بانحرافه فانصرف باذنه الى أحد الأحياء القريبة . ثم رأى
 أبو العباس بعد حين أن يقبض عليه ، ففر ابن خلدون الى بسكرة
 فقبض أبو العباس على أخيه الأصغر يحيى ، واعتقله ببونہ ، وفقش
 بيوتهم وصادر أموالهم .

وهكذا اختتمت تلك المغامرة التي كان ابن خلدون مدبرها

منذ البداية ، وكانت من نفثات أطاعه ؛ وكانت كسابقاتها دليلاً على ما تجيش به نفسه من الأثرة ، ونكران الصنعة ، وانتهاز الفرص السانحة مهما كان انتهازها ينافي الوفاء والولاء والعرفان . كان ابن خلدون ينطق في خططه وأعماله عن احتقار عميق للعاطفة ، والأخلاق المرعية ؛ وكان يسيره مثل ذلك الروح القوى الذي أعجب به مكيا فيللى فيما بعد ، وتصوره في أميره الأمثل ؛ ذلك الروح الجريء الثابت الذي يقتحم كل ضعف إنساني ، ويحمل تواء إلى الغاية المرغوبة بأي الوسائل والخطط . ويحاول ابن خلدون أن يعرب عن ندمه وأسفه لتطور الحوادث على هذا النحو ، فيقول لنا في مكان آخر في حديثه عن أمير بجاية التعس : « فلما استدعاني هذا الأمير أبو عبد الله بادرت إلى امثاله ، ولو شاء ربك ما فعلوه ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير » (١) . ولكن الذي لا ريب فيه هو أن ابن خلدون كان يجوز في حوادث بجاية مغامرة من صنعه ، ويحاول اجتناء ثمار فرصة ترقبها وهياها منذ بعيد ؛ ولا ريب أن مقتل حليفه وسيدته لم يضره ولم يحزنه ، وقد كان معقد آماله أن ينضوى تحت لواء الظافر ، لولا أن أنكره الظافر ورغب عن خدمته تلك المرة .

وتحول ابن خلدون عندئذ إلى بسكرة لصداقة بينه وبين أميرها . ولبث هنالك يرقب الحوادث . وكان الأمير أبو حمشو موسى ابن عبد الرحمن سلطان تلمسان صهراً لأمر بجاية المقتول . وكان يطمح إلى فتح بجاية . فلما بلغه مقتل صهره بعث قواته إلى بجاية

(١) كتاب العبر ج ٦ ص ٣٧٧ .

تحاول أخذها ، ولكنها هزمت هزيمة شنيعة ؛ وكتب أبو حمو على أثر ذلك الى ابن خلدون يستدعيه من بسكرة ليؤليه حجابته لما كان يعلمه من نفوذه في بجاية وما حولها من القبائل ، وأرسل إليه بالفعل مرسوم الحجابة ؛ وكتب إليه يرجوه في السعي لبث دعوته واستمالة القبائل إليه . فاعتذر ابن خلدون عن قبول الوظيفة تلك المرة ، وأرسل أخاه يحيى ، وكان قد أطلق سراحه ، الى سلطان تلمسان نائباً عنه ؛ ولكنه استجاب الى بث الدعوة بين القبائل وتحويلها من جانب أبي العباس الى جانب خصمه أبي حمو . ويقول لنا ابن خلدون إن نفسه كانت قد سئمت يومئذ مخاطر المغامرة وأحوال الوظيفة ، وزهدت في غواية الرتب ، واشتأقت الى الدرس بعد أن هجرته طويلاً ؛ فعول على استئناف الدرس والقراءة ، والإعراض عن ميدان السياسة والخدمات السلطانية . ولكن سنرى أنه يعود الى ميدان الحوادث وخوض المغامرات السلطانية مراراً أخرى .

وفي ذلك الحين وصلته رسائل من صديقه ابن الخطيب يعرب فيها عن شوقه وحبه ، ويحدثه بأخبار الأندلس ، ثم عن جهوده الأدبية وكتبه الجديدة . فرد عليه ابن خلدون ، يعرب عن مثل شوقه وحبه ، ويحدثه بأخباره ومحبته في بجاية ، ثم عن أخبار المغرب وأخبار مصر كما وصلت إليه^(١) . ويبدو في هذه الرسائل ما يحمله كل من الرجلين للآخر من آيات التقدير والإجلال .

ولبث ابن خلدون في بسكرة يبث الدعوة لأبي حمو ويحشد القبائل في جانبه ، ويؤلبها على أبي العباس ؛ ويعمل من جهة

(١) راجع هذه الرسائل في كتاب العبر ج ٧ ص ٤٢١-٤٣٠ .

أخرى على عقد أواصر التحالف بين أبي حمو وأبي إسحاق سلطان تونس . وكان بينه وبين أخيه أبي العباس جفاء وخصومة . وزادت متاعب أبي حمو بخروج ابن عمه أبي زيان عليه ، فضاعف ابن خلدون همته في استمالة القبائل إليه ؛ ثم خرج مع صاحب بسكرة وباقي الزعماء الذين استألمهم في قواتهم لنصرة أبي حمو ، وكان يتهيأ لمحاربة خصومه (سنة ٧٧١ هـ) ولكن أبا حمو هزم أمام خصومه مرة أخرى ؛ وارتد ابن خلدون الى بسكرة ، يستأنف جهوده لحشد القبائل الى جانب أبي حمو ، وإحكام الصلة بينه وبين سلطان تونس . وفي العام التالي ، سار ابن خلدون في وفد من الرؤساء لزيارة أبي حمو والتفاهم معه على تدبير الخطة اللازمة . فلقيه بالجزائر ، وبقي لديه مدى حين ، وأنشده يوم الفطر قصيدة تهنئة يقول فيها :
هـذى الديار فحين صباحاً وقف المطايا بينهن طلاحاً
لا تسأل الأطلال ان لم تروها عبرات عينك واكفا ممثاحا
فلقد أخذن على جفونك موثقاً أن لا يرين مع البعاد شحاحا
ولكن ولاء ابن خلدون لأمر تلمسان لم يطل أمده ، وسرعان ما تحول عنه الى عدوه ، يؤلب الجموع عليه بعد أن كان يؤلبها لتأييده . ذلك أن صاحب المغرب الأقصى السلطان عبد العزيز ابن الحسن خرج في جيوشه يومئذ يزعم غزو تلمسان وانتزاعها كرة أخرى من قبضة بني عبد الواد . وكان الوزير عمر بن عبد الله قد استبد بشئون المغرب منذ مصرع السلطان أبي سالم سنة ٧٦٢ هـ كما قدمنا ، وأخذ يولى العرش ملوكاً وأحداثاً ضعافاً من بني مرين . ففي سنة ٧٦٨ هـ ولى السلطان عبد العزيز بن السلطان أبي الحسن ،

وكان أسيراً في اعتقاله ، وشدّد عليه الحجر والاستبداد كعادته ؛
فأنف السلطان لذلك ، ووثب بالوزير عمر فقتله غيلة وفتك بذويه
واسترد السلطة كاملة ؛ ثم خرج بجيوشه للغزو في تخوم المغرب
الأوسط يقصد فتح تلمسان والقضاء على سلطة بني عبد الواد في
المغرب الأوسط ؛ وكان ابن خلدون يقيم عندئذ في ضيافة أبي حمو .
فلما بلغه مقدم ملك المغرب ، ورأى الطريق الى بسكرة قد سدت
في وجهه ، وسرت الفتنة الى كل ناحية ، خشى العاقبة على نفسه
واستأذن أبي حمو في السفر الى الأندلس ، فأذن له وبعث معه برسالة
الى ملك غرناطة ، وأسرع ابن خلدون الى مرسى هذين ليتركب البحر
منها ؛ ولكن ملك المغرب أشرف عندئذ بجيوشه على تلمسان فغادرها
بوحمو الى الصحراء ليحشد جموعه وأنصاره . ونمى الى ملك المغرب
أن ابن خلدون في هذين وأنه يحمل ودائع لأبي حمو ، فأرسل في طلبه
سرية من الجند ، فذهمت في المرسى وفتشته فلم تجد معه شيئاً ،
وحملته الى السلطان في ظاهر تلمسان ، فحقق في شأنه وعنفه على
انسلاخه عن بني مرين وانصوائه تحت لواء أعدائهم ؛ فاعتذر ابن
خلدون بما كان بينه وبين الوزير عمر ، وشفع له أكابر الدولة
الحاضرين ، ونوهوا بسابق خدماته لبني مرين ؛ ووعد السلطان
بمعاونته على أخذ بجاية حين كاشفه برغبته في فتحها ، فارتاح
السلطان لذلك وأطلق سراحه لليلة من اعتقاله ، فارتد الى مكان
في الصحراء يعرف برباط أبي مدين ونزل به حيناً يشغل في عزله
بالقراءة والدرس .

ولما استولى السلطان عبد العزيز على تلمسان بعدئذ بقليل

(سنة ٧٧٢ هـ) استدعى ابن خلدون وعهد إليه بأن ييث دعوته بين القبائل وأن يحملهم على مناصرته ومقاتلة عدوه أبي حمو ، فقبل ابن خلدون المهمة وأخذ يسعى لحشد القبائل واسمائها لمحاربة صديقه بالأمس ، وانتظم في سلك الحملة التي بعثها السلطان لمطاردة أبي حمو ، وأخذ يعمل تباعاً على سلخ القبائل عن أبي حمو بما كان له من النفوذ والدهاء بين الرؤساء والشيوخ ؛ ولبثت جنود السلطان تقتفى أثر أبي حمو حتى دهمته في أعماق الصحراء ومزقت معسكره ، وفر أبو حمو وآله تحت جناح الظلام . وتخلف ابن خلدون بعدئذ لدى أسرته أياماً في بسكرة ، ثم قصد الى السلطان عبد العزيز في تلمسان فأحسن استقباله وأكرم مثواه ؛ وأرسله ليعمل على تهدئة بعض الأحياء الخارجة في المغرب الأوسط وردّها الى الطاعة ؛ فصعد بالأمر ، ولكنه لم ينجح في مهمته في تلك المرة ، فعاد الى بسكرة واكتفى بمراسلة السلطان . وهنا وصلته الأنباء بمقدم صديقه ابن الخطيب على السلطان في تلمسان ، وقد غادر الأندلس فراراً من بطش مليكه سلطان غرناطة بعد ما فسدت بينهما العلاقات . وكان ابن الخطيب حين استرد الغنى بالله عرشه ، قد استأثر لديه بكل سلطة واستبد بشئون الدولة ، ونقم الغنى بالله منه هذا الاستئثار فعول على نكبته ؛ وشعر الوزير بتجهم الجو من حوله ، فتحيل في الخروج من الأندلس ، وعبر البحر الى المغرب ؛ فاستقبله السلطان عبد العزيز أجمل استقبال وأغدق عليه عطفه وعطاءه . وكتب ابن الخطيب الى صديقه ابن خلدون في بسكرة يقص عليه خبره ، ويعتب عليه فيما كان منه في حقه حين مقامه بالأندلس ؛ فرد عليه

ابن خلدون برسالة مؤثرة يؤكد فيها تقديره وحبه لصديقه ، ويدفع عن نفسه مظنة الفتور والوقيعة ويهنته بنجاته (١).

ولبت ابن خلدون مقبياً في بسكرة ، والمغرب الأوسط يضطرم بالثورة في جميع نواحيه . فلما حشد السلطان حملة لمحاربة الثوار بقيادة وزيره أبي بكر بن غازي ، عهد الى ابن خلدون باستمالة القبائل كره أخرى ، فأدى ابن خلدون المهمة ، وقصد الى الوزير مكانه بالصحراء في شيوخ القبائل الموالية ، ونظم معه برنامج العمل ، ثم عاد الى بسكرة ، ولكن مقامه بها لم يدم طويلاً لأنه آنس في نفس أميرها تغييراً ونزوعاً الى الثورة ، فغادرها مع أسرته ليلحق بالسلطان في تلمسان ، ولكنه ما كاد يصل الى منتصف الطريق حتى بلغته الأنباء ب وفاة السلطان وتولية ابنه السعيد مكانه في كفالة الوزير ابن غازي وقبول البلاط كله الى فاس ، (سنة ٧٧٤ هـ) ، فعول عندئذ على اللحاق بفاس واخترق الصحراء مع بعض البطانة والجند . واعترضت القافلة أثناء مسيرها عصابة من الأشقياء بتحريض أبي حمو الذي عاد فاستولى على تلمسان على أثر وفاة السلطان ، ونهبت متاع المسافرين ؛ ولم ينج ابن خلدون وأسرته من الأسر إلا بصعوبة ، ووصل أخيراً الى فاس في حال سيئة ، فأكرمه الوزير ابن غازي وغمره برعايته ، وأقام في فاس موقراً مبعجلاً .

وفي ذلك الحين ساءت العلاقات بين بلاط فاس وبلاط غرناطة . وكان الوزير ابن الخطيب قد التجأ كما قدمنا الى

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٣٤-٤٣٦ .

بنى مرين فطلب سلطان الأندلس محمد بن الأحمر الى بلاط فاس إبعاده وتشريده فأبى الوزير ابن غازى ، وأطلق بعض اللاجئين من أسرة بنى الأحمر لمناوأة حكومة الأندلس ؛ وأطلق ابن الأحمر زعيمين من زعماء المغرب كانا بالأندلس ، وهما عبد الرحمن بن يفلوس من أمراء بنى مرين والوزير مسعود بن ماسى لمناوأة حكومة فاس ، وبعثهما فى أسطوله الى شواطئ المغرب ، وحاصر جبل طارق وهى يومئذ من أملاك بنى مرين . وبعث الوزير ابن غازى جيشاً لمقاتلة الخوارج بقيادة ابن عمه محمد بن عثمان . فاستماله ابن الأحمر وحرّضه على الخروج ، فأعلن الثورة ودعا للأمير أحمد ابن السلطان أبى سالم وكان يومئذ معتقلاً بطنجة ، وزحف لقتال ابن غازى . ونشبت بين الفريقين معارك طاحنة بقرب مكناسة ، وارتد ابن غازى الى فاس وتحصن بها . فحاصره الخوارج حتى أذعن وخلع الملك السعيد . واستولى السلطان أبو العباس أحمد على فاس (سنة ٧٧٦ هـ) وعين ابن عثمان لحجابه . واستولى الأمير عبد الرحمن على شمال المغرب تنفيذاً للاتفاق المعقود .

وكان ابن خلدون أثناء هذه الحوادث مقياً بفاس ؛ فلما وقع الانقلاب ، وشئ بعضهم فى حقه الى الحكومة الجديدة ، فقبض عليه حيناً ثم أفرج عنه بسعى صديقه الأمير عبد الرحمن سلطان الشمال . وعندئذ أزمع الرحلة الى الأندلس بعد أن أغلقت فى وجهه قصور المغرب كلها . ويقول لنا ابن خلدون انه أراد اللحاق بالأندلس طلباً للاستقرار والدرس . والظاهر أن فكرة الانقطاع الى البحث والتأليف كانت قد اختمرت فى ذهنه يومئذ ، وقد رأيناها تساوره

مراراً منذ اضطربت شئون السياسة واكفهر أفق المغرب ، فجاز البحر الى الأندلس في ربيع سنة ٧٧٦ هـ تاركاً أسرته بفاس . ولقى في طريقه وزير ابن الأحمر أبا عبد الله بن زمرك ذاهباً الى بلاط فاس للتهنئة والمفاوضة ، فرجاه أن يسعى لإطلاق أسرته ولحاقها به . ولكن ابن خلدون لم يحسب حساباً لدسائس خصومه ، ولم يدر بخلده أنه سيغدو موضعاً للمساومة في مفاوضات شائنة . ذلك أن بلاط فاس توجس شراً من استقراره بالأندلس وأنى أن تلحق به أسرته لما نعى إليه من أن ابن خلدون على صلة مع الأمير عبد الرحمن وأنه يحرضه على غزو المغرب . وقد جاء ابن زمرك من جهة أخرى الى فاس ليسعى في تنفيذ عهد شائن قطعه سلطان المغرب الحديد على نفسه لابن الأحمر ضمن شروط التحالف بينهما ، وهو أن يعمل على نكبة الوزير ابن الخطيب ومصرعه ، وذلك لما كان يعتقد أنه ابن الأحمر من أن وزيره السابق كان يحرض السلطان عبد العزيز على محاربته . وكان بلاط غرناطة قد مهد لنكبة الوزير السابق بتدبير اتهامه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، وسلوك مذهب الفلاسفة الملحدين في بعض رسائله . وكان تلميذه ومنافسه القديم الوزير ابن زمرك أكبر مروج لهذه الدعاية . وقد حل في بلاط فاس ليسعى الى اتمام ما بدأ به من العمل على سحق ابن الخطيب وإهلاكه . وعندئذ رأى بلاط فاس الفرصة سانحة لمطاردة ابن خلدون ونكبته ، فطلب الى ابن الأحمر تسليمه بحجة أنه كان يسعى لإنقاذ ابن الخطيب ، فأبى ابن الأحمر ، ولكنه ارتضى أن يجيز ابن خلدون الى إفريقية . والواقع أن ابن خلدون

سعى لإنقاذ صديقه . وكان ابن الخطيب حين اضطرام الثورة قد لجأ الى البلد الجديد (ضاحية فاس) مع الوزير ابن غازي ؛ فلما استولى السلطان الجديد على فاس قبض عليه . وكان يرسف في سجنه حين قدم ابن زمرك على السلطان يسعى لإهلاكه . وأصغى السلطان الى سعاية ابن زمرك ، وعقد مجلساً من رجال الدولة وأهل الشورى ، واستدعى الوزير السجين لمواجهة التهم المنسوبة إليه وأخصها الزندقة والخروج على شريعة الإسلام استناداً الى بعض رسائله . وذهب المفكر والكاتب والسياسي العظيم ضحية المساومة الشائنة ، وضحية التعصب والجهل ، إذ أدين في تهمة الزندقة ، وعذب وأفتى بعض الفقهاء السفلة بقتله ، ودُس عليه بعض الأوغاد فقتل خنقاً في سجنه وأحرقت جثته (سنة ٧٧٦ هـ - ١٣٧٤ م) (١) . وقد نقل إلينا ابن خلدون هذه الأبيات المؤثرة من شعر كان ينشده ابن الخطيب في سجنه يرثى به نفسه :

بعدنا وإن جاورتنا البيوت	وجئنا بوعظ ونحن صموت
وأنفاسنا سكنت دفعة	كجهر الصلاة تلاه القنوت
وكنا عظاماً فصرنا عظاما	وكنا نقوت فهما نحن قوت
وكنا شمس سماء العسلا	غرين فناحت عليها البيوت
فقل للعدا ذهب ابن الخطيب	وفات ومن ذا الذي لا يفوت
فمن كان يفرح منكم له	فقل يفرح اليوم من لا يموت

الفصل الخامس

العزلة والتأليف

عود ابن خلدون الى المغرب وعود الصلة بينه وبين أبي حمو . التجاؤه الى أحياء عريف . بدؤه بكتابة مؤلفه التاريخي . كتابه المقدمة وتاريخ العرب والبربر . سعيه الى العودة الى تونس . السلطان أبو العباس يأذن له . عوده الى وطنه . إتمامه لمؤلفه ورفعہ إياه الى السلطان . قصيدته يوم الاهداء . الدسائس من حوله . خروجه مع السلطان في الحملات الحربية . اعتزامه الرحلة الى المشرق وركوبه البحر . زهده في الحياة السياسية .

وهكذا كاد القدر يجمع بين الصديقين لآخر مرة في ظروف مماثلة ، وكاد ينكبهما بمحنة مشتركة . ولكن ابن خلدون كان أسعد حظاً من صديقه إذ اكتفى سلطان غرناطة بأن يقصيه عن أرضه وأن يرده الى إفريقية . فنزل في مرسى هنين حائراً جزعاً لا يعلم أنى يقصد . وكان أخوه يحيى قد عاد الى خدمة أبي حمو أمير تلمسان ، ولكن أبا حمو كان ناقماً عليه أما نعمة لما فعله في حقه مرة بعد مرة ، فتركه شريداً في هنين . ثم شفع في أمره صديقه محمد بن عريف من رؤساء بني عريف ، وما زال حتى عفا عنه أبو حمو وأذن في قدومه الى تلمسان ، فقدمها في عيد الفطر سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) ، وأراد أن ينقطع للدرس والقراءة ولكن أبا حمو انتدبه مرة أخرى ليدعوه له بين القبائل ؛ فاضطر ابن خلدون أن يتظاهر بالقبول مرغماً . ولكنه كان على ما يظهر قد عاف غمار

السياسة نهائياً ، فماكاد يغادر تلمسان حتى ولى شطر قبلة أخرى ، وسار الى أحياء بنى عريف فنزل لديهم ، ولحقت به أسرته بعد قليل من تلمسان ، واعتذر له أصدقاؤه لدى السلطان أبي حمو ، وأكرم بنو عريف مثواه أيما اكرام ، وأنزلوه مع أسرته بأحد قصورهم فى قلعة سلامة من أعمال توجين^(١) ؛ فقطع ابن خلدون فى ذلك المقر النائى مدى أربعة أعوام ، ونعم لأول مرة بالاستقرار والهدوء المستمر ، بعيداً عن غمار السياسة والدسائس السلطانية ، ومخاطر التجوال والحملات الحربية ، وألنى لأول مرة فرصة واسعة للبحث والدرس .

وفى تلك الفترة الهادئة بدأ ابن خلدون بكتابة مؤلفه التاريخى وكان يومئذ فى نحو الخامسة والأربعين من عمره ، وقد نصحت مباحثه ومطالعاته . وكان قد قطع نحو ربع قرن يخوض معترك السياسة ، متقلباً فى خدمة القصور والدول المغربية ، يدرس شئونها ونظمها ويستقصى سيرها وأخبارها ، ويجوس خلال الهضاب والصحارى المغربية متغلغلاً بين القبائل البربرية يدرس طبائعها وأحوالها وتقاليدها فى الحياة العامة والحياة الخاصة . وكان ذهنه الحصب ، فضلاً عن هذه الدراسة العملية ، يفيض بثمار الاطلاع الشاسع ، الذى كان يجد فى تحصيله كلما سنحت الفرص فى مكاتب المغرب والأندلس . وكانت عزلة مباركة موفقة ؛ فى ذلك المقام النائى المنعزل ، كتب ابن خلدون مقدمة تاريخه ، وألهم تلك المباحث

(١) تقع هذه المنطقة جنوب إقليم قسنطينة حول مدينة تاوغورت على نحو مائة ميل من حدود تونس الغربية .

والنظريات التي تقبوا مكانة رفيعة بين ثمرات التفكير البشري ،
 ووهب تراث العربية ذلك الأثر الخالد الذي ما زالت تزهو به
 وتفاخر ؛ وانتهى ابن خلدون من كتابة مقدمته الرائعة لأول مرة
 في منتصف سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) واستغرق في كتابتها خمسة
 أشهر فقط (١) ثم نقحها وهدبها بعد ذلك . وهو يقول لنا في دهشة
 من نفسه وإعجاب بتوفيقه « وأكملت المقدمة على هذا النحو الغريب
 الذي اهتمت إليه في تلك الحلاوة ، فسالت فيها شأبيب الكلام
 والمعاني على الفكر حتى امتخفضت زبدتها ، وتألقت نتائجها » (٢) .
 ثم شرع بعد إتمام المقدمة في كتابة تاريخه ، فكتب منه تاريخ
 العرب والبربر وزناته أو بعبارة أخرى كتب منه أقسامه الأولى
 والأخيرة حسب النظام الذي انتهى به الينا . ولم يكن في برنامج
 ابن خلدون أن يكتب تاريخاً عاماً للخلقة ، بل كان قصده الأساسي
 أن يكتب تاريخ المغرب والدول البربرية ، وهو ما يشير إليه في
 المقدمة بقوله : « وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا
 القطر المغربي إما صريحاً أو مندرجاً في أخباره وتلويحاً ، لاختصاص
 قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأمه وذكر ممالكه دون
 ما سواه من الأقطار ، لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأمه ،
 وأن الأخبار المتناقلة لا توفي كنه ما أريده منه » (٣) ، ولكنه عاد
 فعدل برنامجه ، ورأى أن يكتب تاريخاً عاماً للخلقة . ولما كان

(١) راجع ختام المقدمة ص ٥٣٤ .

(٢) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٤٤ .

(٣) المقدمة ص ٢٧ .

ينقصه في مقامه المنعزل كثير من المراجع الضرورية ، فقد اعتزم العودة الى وطنه تونس حيث تهيء له مكاتبها الغنية فرصة المراجعة والتحقيق . وكان ذلك في أواسط سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) بعد أن أكمل المقدمة والأقسام المتعلقة بتاريخ العرب والبربر .

وكان على عرش تونس يومئذ السلطان أبو العباس الذي عهدناه من قبل أميراً لقسنطينة ثم انتزع بجاية من يد ابن عمه الأمير محمد ، وولى ابن خلدون له الحجابة حيناً ، ثم سخط عليه وحاول اعتقاله ففر منه الى بسكرة ؛ فاعتقل عندئذ أخاه يحيى في بونه وصادر أموالهم . ولبت أبو العباس بعد ذلك يتحين الفرص للاستيلاء على تونس ؛ ولجأ اليه وزيرها ابن تافراكين الذي استبد حيناً بشؤونها حينما جرده السلطان أبو اسحاق من سلطته ، وأخذ يعمل لمعاونته على تحقيق مشروعه . وفي سنة ٧٧١ هـ زحف على تونس في قوات كبيرة واستولى عليها من يد سلطانها الطفل ولد أبي إسحاق ، ثم استولى من بعدها تبعاً على جميع ثغور إفريقية ، وقامت الدولة الحفصية مرة أخرى قوية وطيبة الدعائم . وكانت العلائق سيئة بين السلطان أبي العباس وبين ابن خلدون منذ حوادث بجاية أعني منذ أكثر من عشرة أعوام . فلما اعتزم المؤرخ العودة الى تونس مسقط رأسه ومثوى أسرته ، يحمله حب الوطن ورغبة البحث والمراجعة ، كتب الى السلطان أبي العباس يرجوه الصفح والإذن بالعودة ، فرد السلطان بالقبول والصفح والدعوة بالقدوم ، فغادر ابن خلدون أحياء عريف في شهر رجب سنة ٧٨٠ واجتاز الصحراء ومر في طريقه بقسنطينة فاستراح بها حيناً في ضيافة الأمير إبراهيم

ابن السلطان أبي العباس ، ثم قصد الى السلطان أبي العباس ، وكان يومئذ على رأس جيشه ، يعمل على إخماد الثورة في بعض النواحي ، فلقية بظاهر سوسة ؛ فحياه السلطان أجمل تحية وبالغ في إكرامه وقربه وشاوره في أموره . ثم بعثه الى تونس وأصدر أوامره بتوفير ما يجب لراحته من المسكن والمعاش . ونزل ابن خلدون تونس ، وطنه ومسقط رأسه ، لأول مرة مذ فارقها حدثا دون العشرين في سنة ثلاث وخمسين ؛ واستقدم أسرته من أحياء عريف ، وأقام في دعة وأمن وسعة ، عاكفاً على الدرس والبحث ، حتى عاد السلطان من رحلاته الحربية بعد أشهر ؛ فقربه اليه واختصه بمجلسه وكلفه باتمام مؤلفه . وهنا شعر ابن خلدون كرة أخرى بالدسائس القديمة تعمل حوله ، لما آثره السلطان به من الرعاية . وكان محور هذه الدسائس خصمه الفقيه ابن عرفة شيخ الإفتاء . ويقول لنا ابن خلدون في سبب هذه الخصومة ، إنه كان يتفوق على ابن عرفة في المجالس العلمية ، وأن تلامذة ابن عرفة هرعوا اليه يتلقون عليه دونه فأحفظه ذلك ، وأخذ يسعى مع رجال البطانة في حقه لدى السلطان . ولكن هذه السعاية لبثت حيناً دون أثر لتمكن منزلته ومقامه .

ولما توفرت لدى المؤرخ وسائل البحث والمراجعة ، عكف على إتمام مؤلفه وتنقيحه وتهذيبه حتى أتم منه نسخة أولى رفعها الى مولاه السلطان أبي العباس في أوائل سنة ٧٨٤ هـ (أوائل ١٣٨٢ م) وكانت هذه النسخة الأولى تشمل المقدمة وأخبار البربر وزناته ، وتاريخ العرب قبل الإسلام وبعده ، وتاريخ الدول الإسلامية

المختلفة^(١)؛ وقد انتهى ابن خلدون فيما كتبه عن أخبار الدول المغربية في عصره حتى استرجاع السلطان أبي العباس لتوزر في سنة ٧٨٣ هـ^(٢). ولكن هذه النسخة الأولى أكملت بعدئذ ، وأضيفت إليها أقسام كبيرة أخرى في تاريخ الدول الإسلامية في المشرق ، وتاريخ الدول القديمة والدول النصرانية كما سنبين بعد .

وفي نفس اليوم الذي رفع فيه ابن خلدون النسخة الأولى من كتابه للسلطان أبي العباس ، أنشده قصيدة طويلة في نحو مائة بيت ، يشيد فيها بسيرته وأعماله ، ويستدر عطفه ورعايته ، وينوه بكتابه ؛ وهي من أشهر قصائده ، وهذا مطلعها :

هل غير بابك للغريب مؤمل	أو عن جنابك للأمانى معدل
هى همة بعثت إليك على النوى	عزما كما شحذ الحسام الصيقل
متبوا الدنيا ومنتجع المنى	والغيث حيث العارض المتمهل

ومنها :

أرح الركاب فقد ظفرت بواهب	يعطى عطاء المنعمين فيجزل
لله من خلق كريم فى الندى	كالروض حياه ندى مخضوضل
هـذا أمير المؤمنين أمامنا	فى الدين والدنيا اليه المؤتل
هذا أبو العباس خير خليفة	شهدت له الشيم التى لاتجهل
سبق الملوك الى العلاء متمهلا	لله منك السابق المتمهل
فلأنت أعلى المالكين وإن غدوا	يتسابقون الى العلاء وأكمل

(١) راجع كتاب العبرج ٧ ص ٣٤٥ و ٣٤٦ .

(٢) كتاب العبرج ٦ ص ٣٩٦ .

ومنها في ذكر الكتاب :

واليك من سير الزمان وأهله
صحفا تترجم عن أحاديث الألى
تبدى التبايع والعمالق سرها
والقائمون بملة الإسلام من
لخصت كتب الأولين بجمعها
وألنت حوشى الكلام كأنما
وجعلته لسوار ملكك مفخرا
ولله ما أسرفت فيما قلته
على أن هذه الدعة التى تفتيا ابن خلدون ظلالمى مدى حين ،

ما لبث أن غشيها الكدر . فما زال ابن عرفه وحلفاؤه خصوم المؤرخ
في دسهم وسعايتهم ؛ ولم تثمر هذه السعاية في حرمان المؤرخ من
عطف مليكه ، ولكنها أثمرت في إزعاجه من طريق آخر . ذلك
أن السلطان حينما تأهب للخروج بجيشه لمقاتلة الخوارج عليه في
توزر وأعمالها سنة ثلاث وثمانين ، أمر ابن خلدون بالسفر معه ،
فصدع ابن خلدون بالأمر مكرها . وكانت نفسه قد عافت أحداث
السياسة ، وأضحى يرغب عن هذه المهام السلطانية الخطرة . ولما
أتمت الحملة أعمالها أذن له السلطان بالعود قبله ، فقصد الى ضيعة
بحوار تونس وأقام بها حتى عاد السلطان ظافرا ، فصحبه الى تونس .
ولم تمض أشهر قلائل حتى تأهب السلطان للخروج في جيشه مرة
أخرى . فخشى ابن خلدون أن يعود السلطان الى استصحابه في
حملاته ، وألا يستقر له قرار بعد . فاعزم عندئذ مغادرة تونس

وخطرت له فكرة الحج ، يتوسل بها عذراً الى السلطان . فتضرع إليه أن يخلي سبيله وأن يأذن له في قضاء الفريضة ، فأذن ؛ وغادر ابن خلدون وطنه ومسقط رأسه كرة أخرى ، فكانت الهجرة الأبدية ؛ وخرج الى مرسى السفينة ، في حفل مؤثر من الأعيان والأصدقاء والتلاميذ يودعونه بين مظاهر الحزن والأسى ، وركب البحر الى المشرق في منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (اكتوبر سنة ١٣٨٢ م) .

وهكذا اختتم ابن خلدون بالمغرب حياة حافلة بصنوف المغامرات والحوادث ؛ ولم تكن بلا ريب خاتمة باهرة ؛ ولم تكن مما يرضى نفسه الكبيرة . كان ابن خلدون بلا ريب أعظم سياسى ومفكر عرفته إفريقية^(١) والأندلس في القرن الثامن الهجرى ؛ وكانت تلك الخلال والمواهب البديعة التى حملته الى ذروة الحوادث ، وجعلت منه شخصية بارزة في تاريخ المغرب وتطوراته السياسية مدى ربع قرن ، واستطاع بفضلها أن ينعم بالزعامة والنفوذ الواسع بين تلك القبائل الصحرية التى عرفت دائماً بقوة الشكيمة وجفاء النزعة ، خليقة بأن تهيب له مكانة رفيعة وطيدة في دول العصر وقصوره . وقد أنفق ابن خلدون ربع قرن في خوض نحرار السياسة ودسائس القصور ، وتقلب في خدمة جميع الدول المغربية ، وتمتع مراراً بمزايا الرياسة والحكم ، وذاق مراراً محن النعمة ومرارة الاعتقال والأسر وخطر الهلاك ؛ ثم إذا به بعد طول العناء والجهد يجد نفسه حيث بدأ ، ويصبح فإذا به قد فقد عطف جميع القصور والدول

(١) نستعملها هنا بمعنى المغرب بجميع أقطاره .

التي تقلب في خدمتها وأسدى إليها أجل الخدمات أحياناً ؛ ثم إذا به يجد نفسه في هذا الملاذ الأخير الذي آوى إليه واستقر في ظلاله ، موضع السعاية والكيد . وكان يشعر منذ حين بمرارة هذه الحيلة ويتمس السلوى في البحث والتأليف ؛ وقد هدأت نفسه المضطربة بشغف النضال والمغامرة ، وعاف أحداث السياسة ، وأخذ يتبرم بقضاء تلك المهام السلطانية التي كان يتخذ قضاءها وسيلة للتنفيذ والرياسة . وكان ينشد الاستقرار والحياة الهادئة بعد طول التجوال ويرجو أن يطوى مرحلة الحياة في وطنه ، ويثوى إليه الثواء الأخير الى جانب آبائه وأجداده . ولكنه لم يظفر حتى بتلك الأمنية المتواضعة ، وأزعجه كيد خصومه في مقامه الهادئ ؛ وخشى أخيراً عاقبة الكيد والسعاية ، ولم يجد في تونس ما كان ينشد من هدوء وسكينة ؛ فاضطر أن يتمس الحبح عذراً للرحيل والنجاة ، وأن يودع الأهل والولد ، وأن يغادر الوطن وحيداً فريداً ، الى حيث لا يعلم ماذا هيأت له الأقدار .

٢

ابن خلدون في مصر

٧٨٤-٨٠٨ هـ : ١٣٨٢-١٤٠٦ م

الفصل السادس

ولاية التدريس والقضاء

مقدم ابن خلدون الى مصر . وصفه للقاهرة . جلوسه بالأزهر . اتصاله بالبلاط . ولايته التدريس بالمدرسة القمحية . الدرس الأول . ولايته لقضاء المالكية . اضطراب الأفق حوله . حديثه عن القضاء . تعليق الكتاب المصريين على مسلكه . هلاك أسرته في البحر . عزله عن القضاء وبقاؤه في منصب التدريس . سفره للحج . ولايته للتدريس في الصرغتمشية . الدرس الأول . تعيينه شيخاً لحانقاه بيبرس . ثورة يلغا الناصري وعزل السلطان برقوق . سقوط يلغا وعود برقوق الى العرش . تأملات ابن خلدون عن الدول المصرية . انقطاعه للدرس والبحث . سعيه الى عقد الصلة بين بلاط مصر وقصور المغرب .

- ١ -

غادر ابن خلدون تونس في منتصف شعبان سنة ٧٨٤ هـ (أكتوبر سنة ١٣٨٢ م) ، كما قدمنا ، فوصل الى ثغر الاسكندرية في يوم عيد الفطر بعد رحلة بحرية شاقة . ويقول لنا ابن خلدون إنه قدم الى مصر لينتظم منها في ركب الحاج وإنه لبث بالاسكندرية شهراً يهيئ العدة لذلك ، ولكن لم يتح له يومئذ أن يحقق هذه الغاية ، فقصد الى القاهرة (١) . ولكن قضاء الفريضة لم يكن سوى حجيته الظاهرة في مغادرة تونس ؛ وكان مقدمه الى مصر ، كما رأينا نوعاً من الفرار ، وخيفة البطش والمحنة . وكان يرجو بلا ريب أن

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٥٢ .

يقضى أيامه بمصر في هدوء ودعة ، وأن ينعم بذلك الاستقرار الذى لم تهبه له بالمغرب حياة النضال والمغامرة . وكان يومئذ فى الثانية والخمسين من عمره ، ولكنه كان وافر النشاط والقوة ، يتطلع دائماً الى مراتب النفوذ والعزة ؛ وكانت القاهرة يومئذ موئل التفكير الإسلامى فى المشرق والمغرب ، ولبلاطها شهرة واسعة فى حماية العلوم والآداب . فكان يرجو أن ينال قسطه من هذه الرعاية والحماية . ووصل ابن خلدون الى القاهرة فى أول ذى القعدة سنة ٧٨٤ — نوفمبر سنة ١٣٨٢ ؛ فبهرت ضخامتها وعظمتها وبهاؤها كما بهرت سلفه ومواطنه الرحالة ابن بطوطة قبل ذلك بنصف قرن (١) ، وكما بهرت على كر العصور كل من رآها من أعلام المشرق والمغرب . ولا غرو فان المؤرخ لم ير بالمغرب سوى تلك المدن الصحيرية المتواضعة ، ولم ير بالأندلس حيث قضى ردهاً من الزمن مدينة فى عظمة القاهرة وروعيتها . وهو يهتف للقاهرة أثر مقدمه ويحييها بحماسة تم عن عميق إعجابه وسحره وتأثره ، ويصفها فى تلك الفقرة الرنانة : « فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وإيوان الإسلام ، وكرسى الملك ؛ تلوح القصور والأواوين فى جوه ، وتزهو الخوايق والمدارس والكواكب بأفائه ، وتضئ البدور والكواكب من علمائه ، قد مثل بشاطئ النيل نهر ، ومدفع مياه السماء ، يسقيه العال والنهل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجه ؛ ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعيم ... » .

(١) وفد ابن بطوطة على القاهرة سنة ٧٢٦ هـ — ١٣٢٦ م فى عهد الناصر بن قلاوون .

ولم يكن ابن خلدون نكرة في مصر ، فقد كان المجتمع القاهري يعرف الكثير عن شخصه وسيرته ؛ وكان ذكر مؤلفه الضخم ولا سيما مقدمته الشهيرة قد سبقه ، وذاعت نسخته الأولى قبل ذلك بقليل في مصر وغيرها من بلدان المشرق ، وأعجبت دوائر العلم والتفكير والأدب بطرافة مقدمته وجدتها وروعة مباحثها . فلم يكذب محل بالقاهرة حتى أقبل عليه العلماء والطلاب من كل صوب . يقول ابن خلدون في كبرياء وتواضع معاً : « واثقال على طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعوني عذراً »^(١) وهذا ما تشير إليه التراجم المصرية ؛ فيقول أبو المحاسن بن تغري بردي في ترجمته لابن خلدون : « واستوطن القاهرة وتصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة ، واشتغل وأفاد »^(٢) ويقول السخاوي : « وتلقاه أهلها (أى أهل مصر) وأكرموه ، وأكثروا ملازمته والتردد عليه ، بل تصدر للإقراء بالجامع الأزهر مدة ... »^(٣) . جلس ابن خلدون للتدريس بالأزهر ، والظاهر أنه كان يدرس الحديث والفقه المالكي ويشرح نظرياته في العمران والعصبية وأسس الملك ونشأة الدول ، وغيرها مما عرض إليه في مقدمته . وكانت هذه الدروس خير اعلان عن غزير علمه ، وشائق بحثه ، وساحر

(١) كتاب العبر ج ١ ص ٤٥٢ .

(٢) كتاب المنهل الصافي لابن تغري بردي — نسخة دار الكتب

الخطية رقم ١١٣ تاريخ — ج ٢ ص ٣٠٠ .

(٣) كتاب الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع للسخاوي —

نسخة دار الكتب الفوتوغرافية رقم ٦٧٥ تاريخ المجلد الثاني من القسم الثاني ، ص ٣٦٧ (وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٥٤ هـ . ج ٤ ص ١٤٦) .

بيانه . وكان ابن خلدون محدثاً بارعاً رائع المحاضرة ، يخلب ألباب سامعيه بمنطقة وذلاقتة . وهذا ما تحدثنا به جماعة من أعلام التفكير والأدب المصريين الذين سمعوه أو درسوا عليه ؛ ومنهم المؤرخ الكبير تقي الدين المقرئ الذي سمعه ودرس عليه في (١) ، وكذا الحافظ ابن حجر ؛ فقد درس عليه وانتفع بعلمه ووصفه بقوله : « وكان لسنا ، فصيحاً ، حسن الترسيل وسط النظم ؛ مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة » (٢) ونقل السخاوى عن الحمال البشبيشى أنه « كان فصيحاً مفوهاً جميل الصورة » ، وعن الرُّكراكى « ان محاضراته اليها المنتهى » (٣) .

وهكذا استطاع ابن خلدون لأول مقدمه أن يخلب ألباب المجتمع القاهرى ، وأن يستثير إعجابه وتقديره ؛ ولكن صفاء الأفق من حوله لم يدم طويلاً كما سنرى . وفى أثناء ذلك اتصل ابن خلدون بأمر من أمراء البلاط يدعى علاء الدين الطنبغا الجوانى (٤) فشملة برعايته ، وساعده على التقرب من السلطان والاتصال به ؛ وكان السلطان يومئذ الظاهر برقوق ، وقد ولى الملك قبيل مقدم ابن خلدون بأيام قلائل (أواخر رمضان سنة ٧٨٤) ، فأكرم وفادة المؤرخ واهتم بأمره ؛ يقول ابن خلدون : « فأبر

(١) نعود الى تقدير المقرئ لشيخه ابن خلدون فيما بعد .

(٢) كتاب أنباء الغمر فى أنباء العمر لابن حجر العسقلانى (نسخة

دار الكتب الخطية رقم ٢٤٧٦ تاريخ) ج ١ ص ٧١١ .

(٣) انضوء اللامع — المجلد الثانى من القسم الثانى ، ص ٣٦٩ .

(٤) هكذا اسمه فى « المنهل الصافى » ولكن السخاوى يسميه

« الطنبغا الجوانى » .

مقامي ، وآنس الغربية ، ووفر الحراية من صدقاته ، شأنه مع أهل العلم » وبذا تحققت أمنية المؤرخ من الاستقرار والمقام الهادي في ظل أمير يحميه ويكفل رزقه . ولم يمض قليل على ذلك حتى خلا منصب للتدريس بالمدرسة القمحية ، بجوار جامع عمرو وهي من مدارس المالكية ، فعينه السلطان فيه . ويعني ابن خلدون في تعريفه ، بوصف مجلسه الأول في هذا المعهد ، فقد شهدته جمهرة من الأكابر أرسلهم السلطان لشهوده والتفوا حول المؤرخ . وألتي ابن خلدون في ذلك الحفل خطاباً بليغاً ، يحرص على إيراده بنصه . وقد تكلم فيه بعد الديباجة عن فضل العلماء في شد أزر الدولة الإسلامية ، وعن تغلب الدول ؛ ثم أشاد بما لدول السلاطين المصرية من فضل في نصرة الإسلام ، وإعزازه ، ومن همم في إنشاء المساجد والمدارس ، ورعاية العلم والعلماء والقضاة ؛ ثم دعا للملك الظاهر ، وأشاد بعزمه وعدله وعقله ؛ وعطف بعدئذ على نفسه ، وما أوليه من شرف المنصب في تلك العبارة الشعرية :

« ولما سبحت في اللج الأزرق ، وخطوت من أفق المغرب الى المشرق ، حيث نهر النهار ينصب من صفحة المشرق ، وشجرة الملك التي اعتز بها الإسلام تهتز في دوحه المعرق ، وأزهار الفنون تسقط علينا من غصنه المورق ، وينابيع العلوم والفضائل تمد وشلنا من فرائه المغدق ... أولوني عناية وتشريفاً ، وغمروني إحساناً ومعروفاً ، وأوسعوا همتي إيضاحاً ونكرتي تعريفاً ، ثم أهلوني للقيام بوظيفة السادة المالكية بهذا الوقف الشريف ... الخ » .

وإنه لمنظر شائق ذلك الذي يقدمه إلينا ابن خلدون عن مجلسه

في ذلك اليوم ومن حوله العلماء والأكابر يشهدون الدرس الأول لذلك المفكر المبدع . وهو يحرص على تدوينه كما يحرص على تدوين الأثر الذي يعتقد أنه أحدثه إذ يقول : « وانفض ذلك المجلس وقد شيعتني العيون بالتجيلة والوقار »^(١) . وفي ذلك ما يدل على ما كان يشعر به ابن خلدون في كبرياء وثقة من أنه كان شخصية ممتازة تجب إحاطتها بمظاهر خاصة من التكريم والرعاية .

وهنا يجب أن نلاحظ أنه لم يرد وصف هذا المجلس العلمي ولا نص هذه الخطبة في فصول « التعريف » الملحقه بكتاب « العبر » في نهاية الجزء السابع من طبعة بولاق . فهذه الفصول تقف في ترجمة ابن خلدون عند مستهل سنة ٧٩٧ هـ ، حيث ينتهم ابن خلدون كلامه في التعريف بنفسه^(٢) . ولكن ابن خلدون قد أتم فصول التعريف بنفسه فيما بعد ، وزاد عليها تفاصيل سيرة حياته ، وما شهدته من الحوادث في مصر والشام منذ سنة ٧٩٧ هـ الى أواخر سنة ٨٠٧ هـ ، أعنى قبيل وفاته بقليل . وتوجد من هذا « التعريف » في صورته المزيده الكاملة نسخة خطية بدار الكتب المصرية^(٣) ، هي التي اعتمدنا عليها فيما دونه ابن خلدون بعد ذلك من أحداث حياته وعصره ، وهي تحتوي على عدة فصول أخرى عن حياة

(١) راجع وصف ابن خلدون لمحاضراته الأولى وخطبته في هذا الحفل في التعريف بابن خلدون (١٩٥١) ص ٢٨٠-٢٨٥ . وهي النسخة الكاملة من التعريف التي يحىء ذكرها ووصفها بعد .

(٢) راجع كتاب العبر ج ٧ ص ٤٦٢ .

(٣) نحفظ هذه النسخة بدار الكتب رقم ١٠٩ م تاريخ .

ابن خلدون في مصر ، وسفره الى الشام في ركب السلطان ، حينما زحف عليها التتار ، ولقائه عاهل التتار تيمورلنك في دمشق ، ثم عودته بعد ذلك الى مصر ، وما تلا بعد ذلك من حوادث حياته حتى قبيل وفاته ، وسوف نعود الى الكلام عن « التعريف » في فصل خاص ^(١) .

ثم كانت الخطوة الثانية في ظفره بمناصب الدولة ، وتعيينه قاضياً لقضاة المالكية في أواخر جمادى الآخرة سنة ٧٨٦ هـ (أغسطس ١٣٨٤ م) ^(٢) مكان القاضي المعزول جمال الدين ابن خير السكندري . وكان ارتفاعه الى هذا المنصب الذي هو رابع

(١) هذا وقد عني الأديب المغربي الأستاذ محمد بن تاوويت الطنجي باخراج نسخة التعريف الكاملة ، ورجع في إخراجها بالأخص الى نسختين أصليتين تحفظ إحداهما بمكتبة أيا صوفيا والأخرى بمكتبة طبوقبوسراي باستانبول . وظهرت هذه الطبعة الكاملة المحققة من التعريف أخيراً بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة ١٩٥١) بعنوان : « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » في مجلد كبير في نحو أربع مائة صفحة حسنة التعليقات والشروح . وسوف تكون هذه النسخة مرجعنا منذ الآن .

(٢) يذكر ابن خلدون أن تعيينه في هذا المنصب وقع لأول مرة في رجب سنة ٧٨٦ هـ . ولكن الروايات المصرية كلها متفقة على أن هذا التعيين كان في جمادى الآخرة (السخاوي في الضوء اللامع ؛ وابن تغري بردي في المنهل الصافي كل في ترجمته لابن خلدون — والسيوطي في حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣) . ولكن يبدو من رواية ابن خلدون أنه بدأ بمباشرة وظيفته في رجب ، وأنه يجعل من التعيين وبدء العمل واقعة واحدة .

أربعة تعتبر من أهم مناصب الدولة إيداناً بوثوب العاصفة من حوله ، واضطرام تلك الحصومات التي كدرت صفو مقامه ، وأدالت نفوذه ، واقتلعت من المنصب غير مرة . يقول ابن خلدون في سخرية : « وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه الى أن سخط السلطان قاضي المالكية يومئذ في نزعة من النزعات الملوكية ، فعزله واستدعاني للولاية في مجلسه وبين أمرائه ، فتفاديت من ذلك ، وأبى إلا مضاءه » (١) . وقد عرف ابن خلدون هذه « النزعات الملوكية » ، وعرف أنها تبطن من الشر والنقم في معظم الأحيان أكثر مما تسبغ من العطف والنعم . ولكنه يريد أن نفهم أن ارتفاعه الى منصب القضاء لم يكن نزعة ملوكية فقط ، وإنما اختاره السلطان كما يقول ، تأهيلاً لمكانه وتنويعاً بذكره .

— ٢ —

ونستطيع أن نقدر أن ولاية ابن خلدون لحطة القضاء لم تكن حادثاً عادياً . فقد كان أجنبياً ، وكان تقدمه في حظوة السلطان ، وفي نيل المناصب ، سريعاً . وكانت مناصب التدريس والقضاء دائماً مطمح جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين ؛ ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الأجانب الوافدون دونهم . وإذا فقد تولى العلامة المغربي منصبه في جو يشوبه كدر الحصومة والحسد . وجلس بمجلس الحكم في المدرسة الصالحية بحى بين القصرين ؛ فلم يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية . ويقول لنا ابن خلدون في سبب هذه العاصفة التي ثارت حول

(١) التعريف بابن خلدون ص ٢٨٥ .

توليه القضاء ، كالأما طويلا عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ
من فساد واضطراب ، وما يطبع الأحكام من غرض وهوى ،
وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل
وفساد فى الذمة ؛ وانه حاول إقامة العدل الصارم المنزه عن كل
شائبة ، وقمع الفساد بحزم وشدة ، وسحق كل سعاية وغرض .
يقول : « فقممت بما دفع الى من ذلك المقام المحمود ، ووفيت
بجهدى بما أمنى عليه من أحكام الله لا تأخذنى فى الله لومة ،
ولا يرغبنى عند جاه ولا سطوة ؛ مسوياً بين الخصمين ، آخذاً
بحق الضعيف من الحكيم ، معرضاً عن الشفاعات والوسائل
من الجانبيين ؛ جانحاً الى التثبت فى سماع البينات ، والنظر فى عدالة
المنتصبين لتحمل الشهادات ؛ فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر ،
والطيب متلبساً بالخبيث ؛ والحكام ممسكون عن انتقادهم ،
متجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم ، لما يموهون به من الإعتصام
بأهل الشوكة ؛ فان غالبهم مختلطون بالأمرء ، معلمون للقرآن وأئمة
للصلوات ؛ يلبسون عليهم بالعدالة فيظنون بهم الخير ؛ ويقسمون لهم
الحظ من الجاه فى تزكيتهم عند القضاة والتوسل لهم ؛ فأعضل
داوهم ، وفشت المفاصد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم ؛
ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجع العقاب ، وموئل النكال .. » .
ثم يعدد نواحي الفساد التى شهد بها ، وجد فى إصلاحها وقمعها ،
وكيف مضى فى سبيله « من الصرامة وقوة الشكيمة » وكيف احتقر
شفاعات الأعيان والأكابر خلافاً لما اصطلاح عليه زملاؤه القضاة

من قبولها ، حتى ثار عليه السخط من كل ناحية ، وسلقته جميع الألسن وكثرت في حقه السعاية لدى البلاط (١) .

وهذا التعليل الذي يقدمه لنا ابن خلدون عن سبب الحفيظة عليه ، واضطرام الحصومة حوله ، معقول يحمل طابع الصراحة والصدق . بل هذا ما تسلم به التراجم المصرية المعاصرة والقريبة من عصره . فيقول أبو المحاسن مثلاً مشيراً الى ولايته للقضاء : « فباشره بحزمة وافرة ، وعظمة زائدة ، وحمدت سيرته ودفع رسائل أكابر الدولة ، وشفاعات الأعيان ، فأخذوا في التكلم في أمره » (٢) . ويقول ابن حجر وينقله السخاوي : « فتنكر (أى ابن خلدون) للناس بحيث لم يقيم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه مع اعتذاره لمن عتب عليه في الحملة ، وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وصار يعزر بالصفع ، وشبهة الزج ، فاذا غضب على إنسان قال زجوه ؛ فيصفع حتى تحمر رقبته » (٣) . وفيما ينقل السخاوي قصد الى التعريض والانتقاص . وسنرى أنه شديد الوطأة على ابن خلدون يشتد في نقده وتجريحه ؛ ولكن في قوله ما يؤيد أن ابن خلدون كان يصدر في قضائه عن نزاهة وحزم وصراحة ؛ بل هو يشهد لابن خلدون بذلك صراحة ، حينما يقول عنه في موضع آخر : « ولم يشتهر عنه في منصبه إلا الصيانة » .

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٥٣ و ٤٥٤ . وفي التعريف ص ٢٥٤ و ٢٥٥ .

(٢) المنهل الصافي ج ٢ ص ٣٠١ .

(٣) ابن حجر في رفع الاصر عن قضاة مصر (مخطوط دار الكتب) في ترجمة ابن خلدون ص ١٥٩ ؛ والسخاوي في الضوء اللامع المجلد الثاني من القسم الثاني ص ٣٦٧ . وطبع مصر ج ٤ ص ١٤٦ .

انقضت العاصفة على ابن خلدون إذأ لأشهر قلائل من ولايته ،
وكثر السعى في حقه والإغراء به حتى « أظلم الجو بينه وبين أهل
الدولة » على حد تعبيره ، وفقد حظوته وما كان يتمتع به من عطف
ومؤازرة . وأصابته في ذلك الحين نكبة أخرى هى هلاك زوجه
وولده وماله . وكان منذ مقدمه ينتظر لحاق أسرته به ؛ ولكن
سلطان تونس حجزها عن السفر ليرغمه بذلك على العودة الى تبونس ،
فتوسل الى السلطان الظاهر أن يشفع لديه في تخلية سبيل أسرته
فتمعل ، وأطلق سراح الأسرة وركبت البحر الى مصر . ويروى لنا
ابن خلدون نبأ الفاجعة في قوله : « ووافق ذاك مصابى بالأهل
والولد . وصلوا من المغرب في السفين ؛ فأصابها قاصف من الريح ،
فغرقت ، وذهب الموجود والسكن والمولود ؛ فعظم المصاب والجزع ،
ورجع الزهد ، واعتزمت على الخروج عن المنصب » . ولم يمض
سوى قليل حتى أقبل المؤرخ من منصب القضاء ، أو بعبارة أخرى
حتى عزل . بيد أنه يريد أن نفهم أن هذا العزل جاء محققاً لرغبته
إذ يقول : « وشملتني نعمة السلطان أيده الله في النظر بعين الرحمة ،
وتخلية سبيلي من هذه العهدة التي لم أطق حملها ، ولا عرفت
فيما زعموا مصطلحها ، فردها الى صاحبها الأول ، وأنشطني من
عقلها ؛ فانطلقت حميد الأثر مشيعاً من الكافة بالأسف والدعاء
وحمد الثناء ، تلحظني العيون بالرحمة ، وتتناجى الآمال في بالعودة » .
والخلاصة ان ابن خلدون يؤكد لنا ان عزله كان نتيجة التحامل
والحقد والسعاية فقط ، وانه أثار استياء وأسفا في المجتمع القاهرى ،
وانه غادر منصبه موفور الكرامة والهيبة . بيد أننا سنرى ، حسبما

يشير في قوله المتقدم ، انه كان يرمى بجهل الأحكام والإجراءات .
وبأنه لم يكن بذلك أهلاً لتولى القضاء ، وبأنه كان مشغولاً بالمنصب
أشد ما يكون حرصاً عليه .

وكان عزل ابن خلدون عن منصب القضاء لأول مرة في
السابع من جمادى الأولى سنة ٧٨٧ هـ (يولييه ١٣٨٥ م) ، أعنى
لنحو عام فقط من ولايته ، فانقطع الى الدرس والتأليف كرة أخرى .
على أن هذا العزل لم يكن إيداناً بسخط السلطان ونقمته ؛
فقد لبث ابن خلدون في منصب التدريس بالقمحية ؛ ولم يمض
سوى قليل حتى عينه السلطان أيضاً لتدريس الفقه المالكي بمدرسته
الجديدة التي أنشأها في حي بين القصرين (المدرسة الظاهرية
البرقوقية) . واحتفل ابن خلدون كعادته بالدرس الأول ، وألقى
خطاباً بليغاً يدعو فيه للسلطان ، ويعتذر عن قصوره في تواضع
ظريف^(١) . واشتغل بالدرس في المعهدين حتى كان موسم الحج
عام تسعة وثمانين ، فاعتزم عندئذ أداء الفريضة . وأذن له السلطان
ونعمره بعطائه . وغادر القاهرة في منتصف شعبان ؛ وقصد الى
الحجاز بطريق البحر ؛ ثم عاد بعد أداء الفريضة ، بطريق البحر
أيضاً حتى القصير ؛ ثم اخترق الصعيد بطريق النيل ، فوصل
القاهرة في جمادى الأولى سنة تسعين (٧٩٠ هـ) ؛ وقصد السلطان
تواً وأخبره بأنه دعا له في الأماكن المقدسة ، فتلقاه بالعطف والرعاية .
ثم خلا كرسي الحديث بمدرسة صرغتمش^(٢) ، فولاه السلطان إياه

(١) راجع التعريف بابن خلدون ص ٢٨٦ .

(٢) كان موقع هذه المدرسة شمال الجامع الطولوني على مقربة من
القلعة .

بدلاً من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية ؛ وجلس للتدريس فيها في المحرم سنة إحدى وتسعين ، وألقى خطاب الافتتاح كعادته في حفل فخيم ، وأعلن أنه قد قرر للقراءة في هذا الدرس كتاب الموطأ للإمام مالك ؛ ويعرفنا ابن خلدون بموضوع درسه الأول في ذلك اليوم ، فقد تكلم فيه عن مالك ونشأته وحياته وكيفية ذبوع مذهبه ، ثم يقول لنا في كبريائه المعهود : « وانفض ذلك المجلس ، وقد لاحظتني بالتجلة والوقار العيون ، واستشعرت أهليتي للمناصب القلوب ، وأخلص النجا في ذلك الخاصة والجمهور » (١)

— ٣ —

ثم عين المؤرخ في وظيفة أخرى هي مشيخة (نظارة) خانقاه بوبرس ، وهي يومئذ أعظم الخوانق أو ملاجئ الصوفية (٢) ، فزادت جريته ، واتسعت موارده . ولكن أمد سكينته لم يطل ، فقد نشبت فتنة خطيرة أودت بعرش الظاهر بقوق ، بطلها ومدبرها الأمير يلبغا الناصري نائب حلب ؛ وكانت نظم البلاط القاهري وظروفه وما يضطرم به من الدسائس والحيلانات مما يسمح بتكرار هذه الفتن ؛ وكان يلبغا الناصري نائب السلطنة من قبل ، وزعيم عصبة قوية من الأمراء والفرسان ؛ وكان الظاهر بقوق من جملة أمرائه وتابعيه ؛ ولكنه استطاع في فتنة سابقة (رمضان سنة ٧٨٤)

(١) التعريف بابن خلدون ص ٢٩٤ — ٣١٠ حيث يورد نص محاضرتة كلها .

(٢) كانت هذه الخانقاه الشهيرة تقع في طريق باب النصر على مقربة منه .

أن يظفر بالعرش دونه ، وأن يجرده من سلطته ونفوذه ، وأن يقصيه الى الشام . ثم سنحت فرصة الخروج ليلبغا ، فسار الى القاهرة في أتباعه وتحول أنصار برقوق عنه ، ففر من القلعة ، ودخل يلبغا الناصرى القاهرة ، وأعاد الصالح حاجى السلطان المخلوع الى العرش ، وقبض على برقوق وأرسله سجيناً الى الكرك (جمادى الأولى سنة ٧٩١) . ولكن ثورة أخرى نشبت بقيادة أمير آخر يدعى منطاش ، فقبض على الناصرى ، وسار الى دمشق لمحاربة برقوق الذى استطاع أن يفر من سجنه ، فهزمه برقوق وعاد الى القاهرة ظافراً منصوراً ، واسترد عرشه فى صفر سنة ٩٢ ، لبضعة أشهر فقط من عزله . ويخصص ابن خلدون فى « تعريفه » فصلاً طويلاً لهذه الحوادث (١) ويمهد له بشرح فاسفى اجتماعى يتحدث فيه عن نهوض الدول بقوة العصبية واتساع ملكها ، ثم طغيان الحضارة والرفاهية عليها ، وخروج الأقوياء منها ، وبثهم فيها روحاً جديداً من القوة ، وتكرر هذه الظاهرة ، ثم يطبق نظريته على دول الممالك المصرية منذ صلاح الدين ، ويقص تاريخها باختصار . وهنا يبدو ابن خلدون كما يبدو فى مقدمته ، ذلك الفيلسوف الاجتماعى الذى يعنى بتعليل الظواهر والكائنات ، واستقرأها فى حوادث التاريخ .

والظاهر أن ابن خلدون قد عانى من جرّاء هذه الفتنة ، ففقد مناصبه وأرزاقه كلها أو بعضها بسقوط الحزب الذى يتمتع بعطفه ورعايته . فلما عاد الظاهر برقوق الى العرش ردت اليه . يدل على

(١) راجع هذا الفصل فى التعريف بابن خلدون ص ٣١٤-٣٣٥

وراجع خطط المقرئى (بولاق) ج ٢ ص ٢٤٢ .

ذلك قوله في التعليق على عود الظاهر : « ثم أعاده الى كرسيه للنظر في مصالح عباده ، وطوقه القلادة التي ألبسه كما كانت ، فأعاد لي ما كان أجراه من نعمته » (١) .

وليث ابن خلدون على ذلك أعواماً ينقطع للبحث والدرس . وهو يقف بالتعريف بنفسه عند هذه المرحلة ، حتى مستهل سنة سبع وتسعين (٧٩٧) ، في الترجمة المتداولة الملحقة بتاريخه ؛ ولكنه يمضي في هذا التعريف مراحل أخرى ، في النسخ المخطوطة التي أتينا على ذكرها والتي نشرت محققة حسبما تقدم باسم « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » ؛ وفيها يفصل حوادث حياته حتى ختم سنة ٨٠٧ ، أعنى قبل وفاته ببضعة أشهر . ونسخة التعريف هذه أكثر تفصيلاً وإسهاباً حتى فيما تتفق فيه مع فصول كتاب العبر من مراحل الترجمة ؛ ولهذا آثرنا الرجوع إليها الى جانب كتاب العبر في كل ما هو أوفى وأتم مما تقدم ذكره من المراحل . غير أن نسخة « التعريف » الجديدة ستكون منذ الآن وحدها مرجعنا فيما سيأتى من تفاصيل حياة المؤرخ حتى وفاته .

ليس في حياة ابن خلدون في هذه الفترة ما يستحق الذكر سوى سعيه الى عقد الصلات بين البلاط القاهري وسلاطين المغرب . ويحمل ابن خلدون ذكر هذه الصلات الملوكية ، ويصف المراسلة والمهاداة بين صلاح الدين وبنى عبد المؤمن ملوك المغرب ؛ وبين الناصر قلاوون وملوك بني مرين ؛ ويصف الهدايا المصرية والمغربية ؛ ثم يعطف على مساعيه في عقد الصلة بين الملك الظاهر

وسلطان تونس ؛ وملخصها أنه كتب الى سلطان تونس يحثه على
إهداء ملك مصر ، فأرسل اليه هدية من الحياض النادرة ، ولكنها
غرقت مع السفينة التي كانت تحمل أسرة المؤرخ كما قدمنا . ورد
الملك الظاهر باهداء سلطان تونس ؛ ثم بعث سنة تسع وتسعين
الى المغرب ليشتري عددا من الحياض ، فزود ابن خلدون الرسل
بالإرشاد والتوصية . ولكنهم عادوا بهدية فخمة كان سلطان تونس
قد أعدها وتأخر إرسالها ؛ وعدة هدايا أخرى قدمها أمراء المغرب ،
ومنها خيل مسومة ، وعدد وسروج ذهبية . ويصف لنا ابن
خلدون يوم تقديم الهدايا وعرضها ، ثم يقول لنا إنه شعريومثذ بالفخر
وحسن الذكر بما « تناول بين هؤلاء الملوك من السعى في الوصلة
الثابتة على الأبد » (١) .

(١) راجع الفصل الخاص بذلك في « التعريف » ص ٣٣٥-٣٤٦ .

الفصل السابع

في دمشق وفي معسكر تيمورلنك

عود ابن خلدون الى منصب القضاء . وفاة السلطان برقوق وولاية الناصر فرج . رحلة ابن خلدون الى فلسطين . عزله عن القضاء . غزو التتار للشام . مسير الناصر فرج الى لقاء الغزاة . استصحابه لابن خلدون الى دمشق . عوده نجاة الى مصر . نزول ابن خلدون من أسوار دمشق وسيره الى معسكر تيمورلنك . وصفه للقائه مع الفاتح . حديثه مع تيمورلنك . رسالته عن جغرافية المغرب . حديث الخلافه مع الفاتح . هدية ابن خلدون لتيمورلنك ، ومفاوضاته في الصلح . رواية القريزي وابن إياس وابن عربشاه عن هذه المفاوضات . استئذان ابن خلدون للفتاح في السفر . عوده الى مصر . سعى ابن خلدون الى استعادة منصب القضاء . ولايته للمرة الثالثة . اضطراب الدسائس من حوله . ذروة المعركة بينه وبين خصومه . تعاقب الولاية على القضاء والعزل منه . وفاة ابن خلدون .

— ١ —

لبث ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء زهاء أربعة عشر عاماً ، يحول بينه وبين توليه ، على قوله ، ذلك الجناح من البلاط الذي شغب في حقه ، وأغرى السلطان بعزله ؛ فلما ضعف ذلك الحزب وانقرض رجاله ، انتهز السلطان أول فرصة لرده الى منصبه . وكان ذلك في منتصف رمضان سنة إحدى وثمانمائة (مايو سنة ١٣٩٨ م) على أثر وفاة ناصر الدين التتسي قاضي المالكية . وكان ابن خلدون عندئذ بالفيوم يعني بضم قمح ضيعته التي يستحقها من

أوقاف المدرسة «القمحية» ؛ فاستدعاه السلطان وولاه القضاء للمرة الثانية . ثم توفي السلطان بعدئذ بقليل ، في منتصف شوال ؛ فخلفه ولده الناصر فرج ؛ وسرى الاضطراب الى شئون الدولة ، واضطربت الفتن والثورات المحمية حيناً . فلما استقرت الأمور نوعاً ، استأذن المؤرخ في السفر الى بيت المقدس ، فأذن له ؛ وجال ابن خلدون في المدينة المقدسة ، يتفقد آثارها الخالدة ؛ وشهد المسجد الأقصى ، وقبر الخليل ، وآثار بيت لحم ، ولكنه أبى الدخول الى كنيسة القيامة (قبر المسيح) . يقول لنا : « وبناء أُمم النصرانية على مكان الصليب بزعمهم ، فنكرته نفسى ، ونكرت الدخول اليه » . ثم عاد من رحلته ووافى ركاب السلطان أثر عوده من الشام في ظاهر مصر ، ودخل معه القاهرة في أواخر رمضان سنة ٨٠٢ .

وفي المحرم سنة ثلاث عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية . وسرى أن هذا العزل كان نتيجة لسعى منظم من خصوم المؤرخ ، وأن تكراره كان مظهرًا بارزًا لذلك النضال الذى كان يضطرم بينه وبين خصومه داخل البلاط وخارجه . ولم يمض قليل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على مدينة حلب في مناظر هائلة من السفك والتخريب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م) (١) ثم اخترق الشام جنوباً الى دمشق . فروع مصر لهذه الأنباء ، واضطرب

(١) راجع تفاصيل الاستيلاء على حلب في المقيزى : السلوك فى دول الملوك — (مخطوط دار الكتب المصرية) ج ٣ ورقة ٢٣ .

البلاط أيما اضطراب ، وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة الفاتح التتري ورده ، واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء والصوفية ومنهم ابن خلدون . ولا ريب أن المؤرخ لم ترقه هذه المفاجأة التي ذكرته بما عانى بالمغرب من تلك المهام السلطانية الخطرة ؛ بل هو يقول لنا صراحة إنه حاول الاعتراض والتلمص ، لولا أن عمره يشبك حاجب السلطان « بلين القول ، وجزيل الانعام »^(١) . ويفرد المؤرخ فصلاً لحوادث هذه الحملة ، ويمهد له بتعريف عن نشأة التتار والسلاجقة^(٢) . وكان سفر الحملة في ربيع الثاني سنة ٨٠٣ ، فوصلت الى دمشق في جمادى الأولى ، ونزل ابن خلدون مع جمهرة الفقهاء والعلماء في المدرسة العادلية ، واشتبك جند مصر توا مع جند الفاتح في ظاهر دمشق في معارك محلية ثبت فيها المصريون ؛ وبدأت مفاوضات الصلح بين الفريقين . ولكن خلافاً حدث في معسكر السلطان ، وغادره بعض الأمراء خفية الى مصر ؛ وعلم السلطان أنهم دبروا مؤامرة لخلعه ، وتولية أمير آخر يدعى لاجين ؛ فترك دمشق لمصيرها ، وارتد مسرعاً الى القاهرة فوصلها في جمادى الآخرة^(٣) . وعلى أثر ذلك وقع خلاف بين القادة والرؤساء حول تسليم المدينة . وهنا تغلب المؤرخ نزعة

(١) التعريف ، ص ٣٦٦ . ويقول المقرئ يزى إن أوامر السلطان ليشبك كانت صريحة في إرغام ابن خلدون على السفر (السلوك — ج ٣ ورقة ٢٤) .

(٢) يراجع هذا الفصل في التعريف ص ٣٥١-٣٦٥ .

(٣) السلوك ، ج ٣ ورقة ٢٦ .

المغامرة كما تغلبه الأثرة . فقد خشي أن تقع المدينة في يد الفاتح فيكون نصيبه الموت أو النكال ؛ ورأى أن يعتصم بالحرأة ، وأن يغادر جماعة المترددين الى معسكر الفاتح ، فيستأمنه على نفسه ومصيره . ويحدثنا المؤرخ عن ذلك بصراحة ، فيقول معلقاً على ما شجر بين القادة من خلاف : « وبلغني الخبر ، فخشيت البادرة على نفسي ، وبكرت سحرا الى جماعة القضاة عند الباب ، وطلبت الخروج ، أو التذلي من السور لما حدث عندي من توهمات ذلك الخبر » (١) . وانتهى المؤرخ باقناع زملائه فأدلوهم من السور ، وألنى عند الباب جماعة من بطانة تيمورلنك وابنه شاه ملك الذي عينه لولاية دمشق عند تسليمها فانضم اليهم ، واتمس منهم مقابلة تيمور ؛ فساروا به الى المعسكر وأدخل في الحال الى خيمة الفاتح . ويصف لنا ابن خلدون ذلك اللقاء الشهير في قوله : « ودخلت عليه بخيمة جلوسه ، متكئاً على مرفقه ، وصحاف الطعام تمر بين يديه تشربها الى عصب المغل ، جلوساً أمام خيمته حلقاً حلقاً . فلما دخلت عليه ، فانحنيت بالسلام وأوميت إيماء الخضوع ، فرفع رأسه ، ومد يده الى فقبليها ؛ وأشار بالجلوس فجلست حيث انتهيت ، ثم استدعاني من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بنحوارزم فأقعده يترجم بيننا » (٢) .

وتحدث الفاتح طويلاً الى المؤرخ وسأله عن أحواله وأخباره وسبب مقدمه الى مصر وما وقع له بها ، ثم سأله عن المغرب ومدنه

(١) التعريف ص ٣٦٨ .

(٢) التعريف ص ٣٦٨ و ٣٦٩ .

وأحواله وسلاطينه ، وطلب اليه أن يكتب له رسالة في وصف المغرب . وحديثه المؤرخ بأنه كان يسمع به ويتمنى لقاءه منذ أربعين سنة أعنى مذ تألق نجمه وبزغ مجده ، وشرح له طرفاً من آرائه ونظرياته الاجتماعية في العصبية والملك . ولا ريب أن مفاوضة في شأن المدينة وقعت أيضاً بين المؤرخ والفتح واستطاع المؤرخ أن يقنع الرؤساء والفقهاء بالتسليم ؛ فقد فتحت دمشق أبوابها للفتح على أثر ذلك ، وجاء القضاء والرؤساء وعلى رأسهم المؤرخ الى معسكر تيمورلنك يقدمون له الخضوع والطاعة . ويقول لنا ابن خلدون ان تيمورلنك صرفهم واستبقاه حيناً ؛ ثم انصرف واشتغل أياماً بكتابة رسالة في وصف بلاد المغرب حتى أتمها وبلغت على قوله اثنتي عشرة كراسة صغيرة ، ثم قدمها الى تيمورلنك فأمر بترجمتها الى اللغة المغولية^(١) .

وكان المفهوم أن دمشق قد نجت بالتسليم من بطش الفتح ، ولكن التتار احتجوا باستمرار القلعة في المقاومة ، فشددوا عليها الحصار حتى سلمت ، ثم اقتحموا المدينة وصادروا أهلها وأوقعوا فيها السفك والعيث والنهب وأضرموا النار في معظم أحيائها ؛ وتكررت المناظر المروعة التي وقعت في حلب . على أن ابن خلدون لم يقطع

(١) لم تصل إلينا هذه الرسالة التي كتبها ابن خلدون في وصف بلاد المغرب، ولكن المرجح أنها لم تكن سوى صورة مفصلة مما كتبه عن ذلك في تاريخه الكبير في القسم الذي يخصه لتاريخ البربر ويمهد له بوصف عام في جغرافية هذه البلاد (راجع كتاب العبر - ج ٦ ص ٩٨ وما بعدها) .

صلته بالفتاح بل لبث متصلاً به يتردد لزيارته خلال المحنة ؛ وحديثه
 تيمورلنك ضمن ما حدث بأمر شخص تقدم اليه مدعيًا الخلافة
 وأنه سليل بنى العباس ، وجرت مناقشات فقهية طويلة في شأنه
 اشترك فيها المؤرخ وأدلى فيها بآرائه ونظرياته في الخلافة . وقدم
 ابن خلدون أيضاً الى الفاتح هدية هي « مصحف رائق وسجادة أنيقة
 ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة » ولما قدمها
 اليه وضع تيمورلنك المصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن
 الكريم ، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين
 في مجلسه . والتبس المؤرخ منه في هذا المجلس أماناً للقضاة والرؤساء
 والعمال فأجابه الى طلبه وأصدر الأمان .

هذه هي رواية ابن خلدون عن صلته بالفتاح التتري ،
 وما وقع له معه من الحادثات والمقابلات ، وقد كان فيها يؤدي
 دور السياسي القديم . ولكن مؤرخاً مصرياً كبيراً معاصراً هو المقرئ
 يفصل هذه الحوادث تفصيلاً آخر ، فيقول لنا إن الذي فاوض
 تيمورلنك في تسليم دمشق هو القاضي تقي الدين بن مفلح الحنبلي ؛
 أرسله الزعماء الى الفاتح لإجابة لطلبه في عقد الصلح بعد أن فشل
 في اقتحام المدينة بالعنف ، وإن ابن مفلح بذل نفوذه لإقناع الزعماء
 بالتسليم ، وأنه هو الذي تدلى بعد ذلك من السور مع جماعة الأعيان
 والفقهاء ، واقتادهم الى معسكر الفاتح وعقد معه الصلح واستصدر
 منه الأمان ، ثم تولى بعد ذلك تنفيذ جميع رغائبه في جمع المال
 والأسلاب . ولكن تيمورا نكت بعد ذلك عهده ، وقبض على
 ابن مفلح وزملائه ، واقتحم جنده المدينة ونهبوها وأضرموا النار

فيها^(١). ويؤيد هذه الرواية مؤرخ مصرى آخر هو ابن إياس ، ويقول لنا إن الزعماء اختاروا ابن مفلح للمفاوضة لأنه كان يعرف التركية^(٢). على أن المقرئى يؤيد رواية ابن خلدون فى مكان آخر فيقول لنا إنه « لما علم بتوجه السلطان تدلى من سور المدينة وسار الى تيمورلنك ، فأكرمه وأجلسه وأنزله عنده ؛ ثم أذن له بالمسير الى مصر فسار اليها » ، ثم يقول بعد ذلك إن تيمورلنك أصدر له مرسوم السفر وأطلق معه جماعة بشفاعته^(٣). وابن خلدون صريح فى روايته فى أنه هو المفاوض والوسيط فى عقد المهادنة بين الفاتح وأهل دمشق كما قدمنا وأنه كان ممثل الرؤساء والقضاة لدى تيمورلنك ولا شك عندنا فى روايته . وهى من جهة أخرى رواية ابن عربشاه الدمشقى مؤرخ تيمورلنك الذى كتب تاريخه قريباً من هذه الحوادث ، فهو يصف لقاء ابن خلدون للفاتح تحت أسوار دمشق على رأس العلماء والقضاة ، ويصور لنا فى عبارة شعرية ساحرة منظر هذا اللقاء وما تخلله من أحاديث ومناقشات^(٤). على أن صحة هذه الرواية لا تمنع من جهة أخرى أن يكون ابن مفلح قد اشترك فى المفاوضة وتولى تنفيذ شروط التسليم .

ولعل ابن خلدون كان يعلق على صلته بالفاتح آمالاً أخرى

(١) السلوك ، ج ٣ ورقة ٢٧ .

(٢) ابن إياس فى « تاريخ مصر » (بولاقي) ج ١ ص ٣٣١ و٣٣٢ .

(٣) السلوك ، ج ٣ ورقة ٢٨ .

(٤) ابن عربشاه فى كتاب « عجائب المقدور » (مصر) ص ١٢٣ .

وما بعدها . وراجع كتابى « مصر الاسلامية » ص ١٢١ .

غير ما وفق اليه في شأن دمشق وشأن زملائه العلماء والقضاة ؛
ولعله كان يرجو الانتظام في بطانة الفاتح والحظوة لديه والتقلب في
ظل رعايته ونعمائه . على أنه لم يوفق بلا ريب الى تحقيق مثل هذه
الأمنية ؛ فلم تمض أسابيع قلائل حتى سُمّ البقاء في دمشق ، وذهب
الى تيمور يستأذنه في العود الى مصر ، فأذن له وطلب اليه في تلك
المقابلة أن يقدم اليه بغلة إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها ، وبعث
اليه تيمور ثمنها فيما بعد عقب وصوله الى مصر . وغادر المؤرخ
دمشق في شهر رجب (سنة ٨٠٣) لنحو شهرين فقط من مقدمه
اليها ؛ ودهمه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه ؛ ولكنه
وصل سالماً الى القاهرة في أوائل شعبان سنة ثلاث وثمانمئة .

وهنا يهتف المؤرخ مغتبطاً بنجاته : « وحمدت الله على الخلاص »
ويقول لنا انه كتب الى سلطان المغرب مولاه السابق ، يصف هذه
الحوادث وما وقع خلالها بينه وبين تيمورلنك ، ويصف له الفاتح
وعظيم بأسه وشاسع ملكه وروعة سلطانه .

— ٢ —

وما كاد ابن خلدون يستقر في القاهرة حتى أخذ يسعى للعود
الى منصب القضاء . وقد رأينا أنه كان يحتفظ دائماً بكرسى التدريس
في مدرسة أو اثنتين . ولكن القضاء من مناصب السلطة والنفوذ ؛
وكان ابن خلدون يشعر وهو في ذلك الجو المشوب بكدر الحصومة
والمنافسة ، أنه بحاجة الى ذلك النفوذ الذي اعتاد أن يتمتع به في
جميع علاقاته السلطانية ؛ وكانت المعركة التي تضطرم حول ذلك
الكرسى ، والتي شهدنا مظاهرها في تكرار تعيينه وعزله ، تذكى

بلا ريب في نفسه شهوة الظفر بذلك الكرسي ، فيكون ذلك آية نصره على خصومه ومنافسيه . وكان المؤرخ قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع أبدا الى مسند النفوذ والجاه . ويصور لنا هذه النفسية مؤرخ مصرى نزيه ثقة في إشارة موجزة إذ يقول لنا في خاتمة ترجمته للمؤرخ « رحمه الله ، ما كان أحبه في المنصب » (١) . وكان ثمة شيء آخر الى جانب هذا الشغف بالمنصب ؛ فقد كان بين ابن خلدون وبين خصومه نضال ، وكان منصب القضاء كما سنرى محور هذه المعركة . يرتفع ابن خلدون اليه كلما استطاع أن يسترد مكانته في القصر وأن يتغلب على كيد خصومه ، ويفتقده كلما نجحت سعاية خصومه في حقه .

عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية في المحرم سنة ثلاث كما قدمنا ، وذهب معزولا في ركب السلطان الى الشام ؛ فاتخذ خصومه بعده عن القاهرة فرصة للدس في حقه ، وزعم بعضهم أنه هلك في حوادث دمشق (٢) . ويريد المؤرخ هنا أن نفهم أن المنصب كان محفوظاً له أو أنه وعد على الأقل برده اليه من أولى الأمر ، فيقول لنا إنه على أثر هذا الإرجاف في حقه عين مكانه في قضاء المالكية ، جمال الدين الإقفهسي (جمادى الثانية سنة ثلاث) فلما عاد الى مصر عدل عن ذلك ، وعزل الإقفهسي ؛ وولى ابن خلدون للمرة الثالثة في أواخر شعبان أو أوائل

(١) ابن تغرى بردى ، في المنهل الصافي ج ٢ ورقة ٣٠١ .

(٢) التعريف ص ٣٨٣ .

رمضان^(١) فلبث في منصبه زهاء عام يعمل في جو يفيض بالأحقاد والخصومة، ولكنه يقول لنا إنه لم يحفل كعادته بمصانعة الأكابر وإنه استمر كما كان « من القيام بالحق والإعراض عن الأغراض » . فاضطربت من حوله الدسائس القديمة ، واشتدت في حقه المطاعن والمثالب ، وأسفرت المعركة عن النتيجة المعتادة ، وعزل المؤرخ كرة أخرى في ١٤ رجب سنة أربع (٨٠٤) ، وولى مكانه جمال الدين البساطي في أواخر رجب ، وهو ممن شغلوا المنصب من قبل . والظاهر أن المعركة كانت هذه المرة أكثر وضوحاً وصراحة ، وأن ابن خلدون عانى من حملات خصومه ما لم يعان من قبل ، حتى أنه طلب بعد العزل أمام الحاجب الكبير ، ووجه إليه كثير من التهم . ويقول لنا ابن حجر والسخاوي في هذا الموطن : « وادعوا عليه (أى على ابن خلدون) أموراً كثيرة أكثرها لا حقيقة له ، وحصل له من الإهانة ما لا مزيد عليه » ^(٢) . وهنا اشتدت المعركة بين المؤرخ وخصومه ، واستحالت الى نضال عنيف سريع الأثر ، وبقي مظهرها التداول على المنصب ، ولكنه انحصر حيناً بين ابن خلدون

(١) يذكر ابن خلدون في التعريف أن تعيينه هذه المرة كان في « أواخر شعبان » (ص ٣٨٣) . ولكن ابن تغرى يردى يؤرخ هذا التعيين بيوم السبت ٣ رمضان سنة ٨٠٣ (المنهل الصافي ج ٢ ورقة ٣٠١) ويقول ابن إياس إنه كان في ١٣ رمضان (تاريخ مصر ج ١ ص ٣٣٧) .

(٢) ابن حجر في كتاب « رفع الأصر عن قضاة مصر » (مخطوط دار الكتب السالف الذكر) ورقة ١٥٩ ، وينقله السخاوي في الضوء اللامع (طبع مصر) ج ٤ ص ١٤٦ .

والبساطى ، مما يدل على أن البساطى كان ممثل الحزب الذى يناوئ المؤرخ فى هذا الدور من المعركة . والظاهر أيضاً أن ابن خلدون كان يعتمد فى مقاومة خصومه على عوامل وقوى ليست أقل أثراً مما يعتمدن عليه ؛ فانه لم يمتص على ولاية البساطى نحو ثلاثة أشهر حتى عزل فى أوائل ذى الحجة ، وعين ابن خلدون للمرة الرابعة فى ١٦ ذى الحجة ، واستمر فى المنصب عاماً وشهرين ؛ ثم رجحت كفة خصومه فعزل فى السابع من ربيع الأول سنة ست (٨٠٦) ، وأعيد البساطى فى الشهر نفسه ، ثم عزل فى شهر رجب سنة سبع ؛ وأعيد ابن خلدون للمرة الخامسة فى شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر فى ٢٦ ذى القعدة من نفس العام ؛ وأعيد خصمه القديم جمال الدين الإقفهسى فلبث ثلاثة أشهر ؛ ثم عزل وخلفه جمال الدين التنسى لمدة يومين فقط ؛ ثم أعيد البساطى فى ربيع الأول سنة ثمان (٨٠٨) وعزل فى شعبان من العام ذاته ؛ ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة ، فلبث فى منصبه بضعة أسابيع فقط ^(١) . وفى السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس سنة ١٤٠٦ م) توفى المؤرخ والمفكر الكبير ، قاضياً للمالكية ، وقد بلغ الثامنة والسبعين من حياة باهرة حافلة بجليل الحوادث ،

(١) راجع فى أدوار هذه المعركة وحوادث التعيين والعزل — ابن خلدون نفسه فى التعريف (ص ٣٨٣ و ٣٨٤) ، وحسن المحاضرة للسيوطى (مصر) ج ٢ ، ص ١٢٣ ، والمنهل الصافى (ج ٢ ورقة ٣٠١) ، وتوجد مفارقات يسيرة فى التواريخ فى مختلف الروايات .

ورائع التفكير والابتكار ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر^(١) وهي يومئذ من مقابر العظماء والعلماء . ويصل ابن خلدون في تدوين أخبار هذا النضال العجيب في « التعريف » حتى عزله للمرة الخامسة في ذى القعدة سنة سبع أعنى الى ما قبل وفاته بعدة أشهر فقط .

(١) السخاوى في الضوء اللامع ، المجلد الثانى من القسم الثانى ، ص ٣٧٠ . وفي النسخة المطبوعة ج ٤ ص ١٤٦ .

الفصل الثامن

ابن خلدون والتفكير المصرى

ابتعاد ابن خلدون في مصر عن أحداث السياسة . إنتاجه الأدبى في هذه الفترة . حكم ابن خلدون على المصريين . بذور الخصومة بينه وبين المجتمع القاهرى . حملات الكتاب المصريين عليه . موقف المحافظ ابن حجر منه ومن مؤلفه . مطاعن الركراكى والبشبيشى والعينى في حقّه . حملة السخاوى عليه . الجناح الذى يؤازره من الكتاب المصريين . تقدير المقرئى له ولتفكيره . تأثر المقرئى بتفكيره ونظر ياته . ظهور هذا التأثير في كتابات المقرئى . نظريات المقرئى في أسباب محن مصر . شهادة أبى المحاسن لابن خلدون . إقتباس القلقشندى من آثاره . حياة ابن خلدون في مصر . عزلته وآلامه المعنوية . أين كان يقيم في القاهرة . أين يمضى الشتاء الأخير .

— ١ —

قضى ابن خلدون في مصر ثلاثة وعشرين عاماً (٧٨٤ — ٨٠٨ هـ) ولكنها كانت بين مراحل حياته أقلها حوادث وأقلها إنتاجاً . فأما عن الحوادث فإن الحياة السياسية العاصفة التى قضاهها ابن خلدون بالمغرب ، والتى جاز خلالها معتركا شاسعاً من المغامرات والدسائس الخطرة ، وعانى كثيراً من الخطوب والحن ، كما نعم مراراً بمراتب النفوذ والسلطان ، والتى هى فى الواقع صفحة قوية شائقة من تاريخ المغرب في أواسط القرن الثامن ؛ هذه الحياة المضطربة العاصفة ، استبدلها المؤرخ في مصر بحياة أكثر هدوءاً ودعة .

وفى مصر يعيش ابن خلدون شخصية عادية لا علاقة لها بشئون الدولة العليا ، بعد أن لبثت بالمغرب ربع قرن روح هذه الشئون ؛ ويتجرد من ثوب السياسى المغامر ليتشح بثوب العالم المقتدر ، وليستوحى نفوذه المحدود من هذه الناحية . على أن المؤرخ لقي فى هذه الفترة حادثين من أهم حوادث حياته ، هما فقد أسرته ، ولقاؤه للفتاح التترى تيمور لنك .

وأما عن الإنتاج الأدبى ، فقد رأينا أن المؤرخ حقق أعظم أعمال حياته ، أعنى كتابة تاريخه الضخم ومقدمته الرائعة قبل مقدمه الى مصر . ولا نعرف أن ابن خلدون وضع أثناء مقامه بمصر مؤلفاً جديداً ؛ غير أن الذى لا ريب فيه هو أن وجوده بمصر على مقربة من المكاتب والمراجع الشاسعة ، قد أتاح له فرصة التنقيح والتهديب والإضافة فى التاريخ والمقدمة ؛ وسرى فى فصل قادم أنه استمر فى مراجعة مؤلفه والزيادة فيه فى مواطن كثيرة ، ولا سيما فى أنباء الدول الإسلامية بالشرق ، وأنباء الدول المغربية والأندلس فى عصره ، وأنه وصل فى رواية حوادث عصره حتى خاتمة القرن الثامن بعد أن كان يقف بها عند سنة ٧٨٣ هـ ، عام الفراغ من وضع مؤلفه . كذا استمر المؤرخ فى كتابة ترجمة حياته أثناء إقامته بمصر ، واستمر فيها الى قبيل وفاته ، وضمنها فصولاً جديدة عن خواص دول الممالك المصرية ، ونشأة التتار . وكتب أثناء مقامه بالشام وصفاً لبلاد المغرب ورفعها الى تيمورلنك كما قدمنا . كذلك لا ريب فى أن ابن خلدون كان يعنى فى دروسه ومجالسه ببث مبادئه وآرائه الاجتماعية وشرحها .

غير أن ابن خلدون لم يستطع على ما يظهر أن ينشئ له بمصر مدرسة حقيقية ، يطبعها بأرائه ومناهجه ، وقد كان حرياً أن ينشئ مثل هذه المدرسة في بلد انقطع فيه للبحث والدرس أعواماً طويلة . نعم إن التفكير المصرى المعاصر ليس خلواً من تأثير ابن خلدون كما سنرى ، ولكن هذا التأثير الذى كان حرياً أن يزدهر بمصر وأن ينبث في مدرستها التاريخية التى كانت يومئذ في أوج قوتها ، كان ضئيلاً محدود المدى . ونستطيع أن نرجع ذلك الى الروح الذى استقبل به المؤرخ من المجتمع المصرى المفكر ، وهو روح نفور وخصومة ؛ فقد جاء ابن خلدون الى مصر يسبقه حكمه على المصريين في مقدمته بأنهم قوم « يغلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب »^(١) . ويورد ابن خلدون هذه الملاحظة في معرض كلامه عن أثر الهواء في أخلاق البشر ويعتبرها نتيجة لوقوع مصر في المنطقة الحارة . على أنه مهما اتخذت هذه الملاحظة سمة البحث العلمى ، فإنها لا يمكن أن تقابل ممن قيلت في حقهم بغير الإستهانة والحفيظة . وكان طبيعياً أن يحدث هذا الغرس السيئ أثره في شعور المجتمع المصرى المفكر نحو المؤرخ . وكان هذا المجتمع نفسه يجيش عندئذ بكثير من عوامل الخصومة والمنافسة ، وزعامته يطبعها لون من الخفاء والقطيعة . وكان اضطرام المنافسة بين أعلام التفكير والأدب يومئذ سواء في ميدان التفوق والنبوغ ، أو في تحصيل ما تسبغه الزعامة الأدبية من الجاه والرزق ، ظاهرة هذه الخصومة . وكان المجتمع القاهرى الأدبى ينقسم عندئذ الى شيع وطوائف تنحاز

كل شيعة أو طائفة الى زعيم أو جناح معين من الزعماء ، فتوئيد جهوده الأدبية وتناجز خصومه في ميدان الحدل . فلم يكن من السهل على أجنبي مثل ابن خلدون جاء ينتظم في سلك هذا المجتمع منافساً في طلب الجاه والرزق ، أن ينعم بصفاء الأفق ، أو يلقي خالص المودة والصدقة . هذا الى ما كان يغلب على خلاله من حدة وصرامة وكبرياء تزيد من حوله الحفاء والقطيعة .

كان طبيعياً أن تلقى آراء ابن خلدون ودروسه في هذا الأفق الكدر من الإعراض والانتقاص أكثر مما تلقى من الإقبال والتقدير ، وأن تكون محدودة الذبوع والأثر . ومع ذلك فقد درس على ابن خلدون جمهرة من أعلام التفكير والأدب المصريين وانتفعوا بعلمه ، وظهر أثره جلياً في بعض ثمرات التفكير المصرى المعاصر . ومن درس عليه وانتفع بعلمه الحافظ ابن حجر العسقلانى المحدث والمؤرخ الكبير ؛ فهو يقول لنا في كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » إنه « اجتمع بابن خلدون مراراً وسمع من فوائده ومن تصانيفه خصوصاً في التاريخ » وإنه « كان لسنناً فصيحاً حسن الترسل وسط النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة » ، وإنه كان جيد النقد للشعر وإن لم يكن بارعاً فيه (١) . بيد أن ابن حجر يحمل على ابن خلدون بشدة وينقل في ترجمته كثيراً مما قيل في ذمه وتجريحه . فهو يقول لنا في تاريخه إن ابن خلدون مؤرخ بارع « ولكنه لم يكن مطلعاً على الأخبار على جليتها

(١) رفع الإصر (المخطوط المشار إليه) ورقة ١٦٠ ، ونقله السخاوى

ولاسيما أخبار المشرق^(١)، ويعارض المقرئ في مدح المقدمة ويرى أنها لا تمتاز بغير « البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية » وان محاسنها قليلة ، « غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسناً ما ليس بحسن »^(٢). وأما ابن خلدون كقاض فان ابن حجر يقول لنا إنه باشر القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر ، وانه لما ولى المنصب تنكر للناس وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وانه عزل لأول مرة بسبب ارتكابه التدليس في ورقة^(٣) ؛ ثم ينقل في هذا الموطن كثيراً مما قيل في ذم المؤرخ وتجريحه . من ذلك « ان أهل المغرب لما بلغهم ولايته للقضاء تعجبوا ونسبوا المصريين الى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفة^(٤) « كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عددناها بالضد من ذلك » . ومن ذلك قول الركاكي أحد الكتاب الذين عملوا مع ابن خلدون « انه عرى عن العلوم الشرعية » . بل ينقل ابن حجر أيضاً بعض المطاعن الشخصية والأخلاقية التي قيلت في حق المؤرخ ؛ من ذلك ما نقله عن العينياني وهو أنه كان يتهم بأمر قبيحة^(٥) ؛ وما نقله عن كتاب القضاة للبشيشي ، وهو « أن ابن خلدون كان في أعوامه الأخيرة يشغل بسماع المطربات ومعاشره الأحداث وانه تزوج امرأة لها أخ

(١) أنباء الغمر في أنباء العمر (مخطوط دار الكتب) ، ج ١

ص ٧١١ .

(٢) رفع الاصر، ورقة ١٦٠ .

(٣) رفع الاصر، ورقة ١٥٩ .

(٤) ابن عرفة مفتي تونس ، وكان خصماً لابن خلدون كما قدمنا .

(٥) أنباء الغمر، ج ١ ص ٧١١ .

امرد ينسب للتخليط » وانه كان « يكثر من الازدراء بالناس ، وانه حسن العشرة إذا كان معزولاً فقط ، فاذا ولى المنصب غلب عليه الخفاء والنزق فلا يعامل بل ينبغي أن لا يرى » . وهذه أقوال تتم عن خصومه مضطربة ، ومبالغة في الانتقاص تنحدر الى معترك السباب والقذف . وقد كان البشبيشى^(١) بلاريب من ألد خصوم المؤرخ وأشدهم وطأة عليه . وقد دون حملاته على المؤرخ في كتاب ألفه في تاريخ القضاة ولم يصل اليها ولكن ابن حجر ينقل اليها منه تلك الفقرات الشخصية اللاذعة . وأخيراً يقول ابن حجر إن ابن خلدون كان يتمسك بزيه المغربي ويأبى أن يرتدى زى القضاة لا لشيء سوى حبه المخالفة في كل شيء^(٢) .

على أن ذلك كله لم يمنع الحافظ ابن حجر من أن يستمع الى دروس ابن خلدون وأن ينتفع بها حسبما تقدم . بل لم تمنعه هذه الخصومة الأدبية المضطربة من أن يطلب الى ابن خلدون أن يمنحه الإجازة العلمية التقليدية التي كان الظفر بها من أكابر العلماء والأساتذة شرفاً يُحرص عليه . وقد وصلت اليها هذه الإجازة بشرطها — ويرى القارىء صورتها الفتوغرافية منشورة

(١) وهو الجمال عبد الله البشبيشى . ولد سنة ٧٦٢ هـ بقرية بشبيش من أعمال الغربية ، وتوفى سنة ٨٢٠ هـ . وكان من أكابر فقهاء الشافعية ومن أقطاب الأدب واللغة . وقد ولى الحسبة بالقاهرة حيناً « ترجمته في الضوء اللامع — القسم الثالث المجلد الثانى ص ٥١١ » .
(٢) رفع الإصرافى مواضع مختلفة من ترجمة ابن خلدون — الورقة ١٥٨ الى الورقة ١٦٠ .

فيما يلي — (١) وفي جانبها الأيمن نص الطلب (الاستدعاء) الذي كتبه ابن حجر بخطه وتوقيعه مؤرخاً في أوائل شعبان سنة ٧٩٧ هـ ، وفيه يطلب الى ابن خلدون أن يصدر له ولعدة من زملائه واخوانه هذه الإجازة . وفي جانبها الأيسر نرى نص الإجازة التي أصدرها ابن خلدون بخطه وتوقيعه في منتصف شعبان سنة ٧٩٧ هـ لابن حجر وزملائه الذين تقدم بأسمائهم معه .

وموقف الحافظ ابن حجر من ابن خلدون وأثره يدعو الى التأمل ؛ فهو على رغم اترانه واعتداله وتحفظه ينساق هنا الى نوع من التجريح والانتقاص ليس مألوفاً في كتاباته . ولا ريب أن في لهجته وأقواله مبالغة وتحاملا . ولكن لا ريب أيضاً أن لها قيمتها في تقدير الرأي المصرى المعاصر لابن خلدون ، بل نستطيع أن نعتبرها ممثلة لرأى الفريق المفكر الذى كان يخاصم المؤرخ ويشدد في تجريحه والحملة عليه ؛ وقد كان الفريق الأقوى بلا ريب لأنه كان يضم كثيراً من المفكرين والفقهاء البارزين مثل ابن حجر ، والجمال البشبيشى ، والركراكى ، وبدر الدين العيني (العينتابى) . وقد امتدت آثار هذه الخصومة الأدبية طوال القرن التاسع الهجرى حتى جاء السخاوى في أواخر هذا القرن يردد كل ما ذكره ونقله شيخه ابن حجر في ذم ابن خلدون وتجريحه والانتقاص من أثره ، ولكن

(١) حصلت على هذه الصورة من صديقتى الأستاذ محمد بن تاوويت الطنجى . وقد حصل عليها هو بدوره هدية من الأستاذ المستشرق الألماني هـ. ريتير الأستاذ بجامعة فرنكفورت منقولة عن مصنف ابن حجر «التذكرة الجديدة» (الجزء السادس) وهو الذى توجد منه نسخة مخطوطة فى مكتبة اياصوفيا باستانبول (رقم ٣١٣٩ اياصوفيا) .

فى لهجة مرة لاذعة تم عن التحامل وقصد التشهير والهدم ، أكثر مما تم عن قصد النقد الصحيح . وهذه الروح المرة اللاذعة تبدو فى معجمه (الضوء اللامع) فى معظم تراجم الشخصيات البارزة ؛ بيد أنه يعترف فى كتاب آخر له « بنفاسة » مقدمة ابن خلدون ، ويبدو أكثر اعتدالا وتقديراً^(١) .

— ٢ —

على أن ابن خلدون كان من جهة أخرى يحظى بتقدير فريق قوى من رأى المصرى المفكر . وكان على رأس هذا الفريق المؤرخ العلامة تقي الدين المقرئى . فقد درس المقرئى فى فتوته على ابن خلدون وأعجب بغزير علمه ، ورائع محاضراته ، وطريف آرائه ونظرياته . ويتحدث المقرئى عن شيخه ابن خلدون بمنتهى الخشوع والإجلال وينعته « بشيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضى القضاة »^(٢) ويتتبع أخباره فى مصر والشام فى كتابه « السلوك » ويرجمه فى كتابه « درر العقود الفريدة » بأسهاب و إعجاب ، ويرتفع فى تقدير مقدمته الى الذروة فيقول : « لم يعمل مثلها ، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها ، إذ هى زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم ؛ توقف على كنه الأشياء ، وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود وتنبئ عن أصل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدر النظيم ، وألطف من الماء »^(١) كتاب الاعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ ، (مصر)

ص ١٥١ .

(٢) راجع خطط المقرئى ، ج ٢ ص ٧٦ و ١٩٠ .

نص الأجازة التي أصدرها بن خلدون

الحمد لله والصلوة والسلام على رسول الله أجرت
لهؤلاء السادة والعلماء القادة أهل التحصيل والأفادة ،
والفضل والإجادة والأبداء في الكمال والأعادة ، جميع
مأسأله ورجوه من الأجازة وأملوه ، على شروطه المعتبرة
عند العلماء البررة . وأخبرهم أن مولدى فى غرة
رمضان عام اثنين وثلاثين وسبع مائة والله تعالى ينفعنا
وأيامهم بالعلم وأهله . ويجهلنا من سالكى سبله . وكتب
بذلك عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الخضرى المالكى فى
ستصدف شعبان عام سبعة وتسعين وسبعمائة .

نص الاستدعاء الذى قدمه ابن حجر

بسم الله الرحمن الرحيم
أما بعد حمد الله الذى لا يخيب سؤال سؤاله . ولا تقشع
سحائب كرمه مع كثرة أفضياله . والصلوة والسلام على
أشرف الخلق محمد وآله . فالستول من احسان كل واقف على
هذا الاستدعاء من السادة العلماء والأئمة النفعاء ونقله
الأخبار وحلة الأثر وناظمي الأشعار ، أجازة صاحب هذا
الاستدعاء أبى القاسم على بن احمد بن على بن بشير البالى ،
وبعد وفوز أبى محمد بن عمر بن عبد العزيز بن محمد الخروبي .
وبعد وحسين أبى الشيخ نجم الدين محمد بن على بن أفضى
القبضة نجم الدين محمد بن عقيل البالى . وبعد وست العراق
أبى شهاب الدين احمد بن محمد بن مسلم . وأبى بكر بن
شمس الدين محمد بن ملبح ومن عاصمهم من أبائهم وأمهاتهم
وأخوتهم وأخواتهم جميع ما يصح عنه روايته من سموع
وحداز ومنظوم ومنثور وألف أجازة عامة بشرطها المعتبر .
ولكاتب هذا الاستدعاء أبى الفضل احمد بن على بن محمد
العسقلانى الشهير بأبى حجر ولا أبى عمه أبى الطيب احمد
شعبان بن محمد بن محمد بن حجر . وكتب فى العشر الثانى من
رجب الفرد سنة سبع وتسعين وسبعمائة . وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وسلم وحسبنا الله تعالى وكفى

سرى به النسب»^(١) . وهو تقدير يعارضه فيه ابن حجر كما قدمنا .
ويأخذ ابن حجر وتلميذه السخاوى على المقرئى موقفه من ابن
خلدون ، ويرميانه بالمبالغة والإفراط فى تعظيمه وإجلاله ؛ ويقدم
إلينا ابن حجر تعليلاً لهذا الموقف ، هو أن المقرئى كان ينتمى
الى الفاطميين وابن خلدون يجزم باثبات نسبهم ، ثم يقول لنا ،
إن المقرئى غفل فى ذلك عن مراد ابن خلدون ، فانه كان لانحرافه
عن آل على ، يثبت نسب الفاطميين إليهم ، لما اشتهر من سوء
معتقد الفاطميين وكون بعضهم نسب الى الزندقة وادعى الألوهية^(٢) .
وقد تأثر المقرئى فوق تعظيمه وتقديره لابن خلدون بنظرياته
تأثراً كبيراً . وظهر هذا الأثر واضحاً فى كتابه « إغاثة الأئمة بكشف
الغمة » الذى انتهت إلينا نسخة وحيدة منه تحتفظ بها دار الكتب
المصرية^(٣) .

فى هذا الكتاب الذى يقول لنا المقرئى إنه كتبه فى ليلة
واحدة من ليالى المحرم سنة ٨٠٨ ، والذى يتحدث فيه عن محن مصر
منذ أقدم العصور الى عصره ، ينحو المقرئى فى الشرح والتعليل

(١) لم يصلنا من « درر العقود الفريدة » سوى قطعة صغيرة .
واعتمادنا هنا على ما نقله السخاوى وابن حجر عن المقرئى ، فى الضوء
اللامع للسخاوى ؛ وفى رفع الاصر وأنباء الغمر لابن حجر .

(٢) رفع الاصر، الورقة ١٦ ، ونقله السخاوى فى الضوء اللامع .

(٣) توجد هذه النسخة ضمن مجموعة خطية محفوظة برقم ٧٧

مجاسيع م) وتشغل فيها من الورقة ١٤ إلى ٤٣ . وقد قام بتحقيق هذا
المؤلف الأستاذان محمد مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ونشر بعناية
لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة ١٩٤٠) .

منحى شيخه وأستاذه ابن خلدون فى مقدمته . فىقدم لرسالته بمقارنة موجزة بين الماضى والحاضر ، وملخص لما جازته مصر من محن الغلاء والشَّرَق منذ الطوفان الى عصره ، ثم يفرد لنا فصلا يتحدث فيه عن الأسباب التى نشأت عنها هذه المحن وأدت الى استمرارها طوال هذه الأزمان . وفى هذا الفصل نرى منهج ابن خلدون فى البحث والتعليل واضحاً ، بل نرى المقرئ يستعمل ألفاظ شيخه وعباراته مثل « أحوال الوجود وطبيعة العمران » وما إليها . وفى رأى المقرئ أن أسباب الخراب والمحن ، ترجع أولاً : الى تولية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة ، واستيلاء الظلمة والجهلاء عليها ، وثانياً : الى غلاء إيجار الأتبان ، وزيادة نفقات الحرث والبذر والحصاد (نفقات الإنتاج) على الغلة ، وثالثاً : الى ذبوع النقد المنحط ؛ ويتبع ذلك ببذخ فى تاريخ العملة فى الدول الإسلامية ومصر . ثم يتحدث عن طبقات المجتمع وأوصاف الناس ، ويقسم المجتمع المصرى الى سبعة أقسام :

(١) أهل الدولة .

(٢) أهل اليسار من التجار وأولى النعمة من ذوى الرفاهة .

(٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار ، وأصحاب المعاش وهم السوق .

(٤) أهل الفلح وهم أرباب الزراعة والحرث وسكان الريف

(٥) الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم .

(٦) أرباب المصالح والأجر وأصحاب المهن .

(٧) ذوى الخصاصة والمسكنة الذين يتكفون الناس .

ويذكر المقرئ أحوال كل فريق بالتفصيل . ثم يتحدث عن أسعار عصره وبخاصة أسعار المواد الغذائية ، ويختتم بشرح رأيه في معالجة هذه المحن ، وهو أن يغير نظام العملة ، فلا يستعمل منها إلا المكين الثابت من ذهب وفضة ، وهي فكرة تثبت النقد بعينها .

هكذا ينحو المقرئ في الشرح والتعليل . وهكذا نلمس أثر المؤرخ واضحاً في منهج تلميذه ؛ ونستطيع أن نجد كثيراً من أوجه الشبه بين ما يعرضه المقرئ في رسالته ، وبين ما كتبه ابن خلدون في مقدمته عن طبيعة الملك وعوامل فسادة ، وعن السكة ، وعن أثر المكوس في الدولة ، وأثر الظلم في خراب العمران ، وكيف يسرى الخلل الى الدولة وتغلبها وفرة العمران والغلاء والقحط ، وغير ذلك مما يتعلق بانحلال الدول وسقوطها^(١) ؛ بل نستطيع أن نلمح مثل هذا الأثر في بعض ما كتبه السخاوي نفسه في كتابه « الإعلان بالتوبيخ » عن قيمة التاريخ وأثره في دراسة أحوال الأمم ، فهنا يبدو السخاوي أيضاً رغم خصومته لابن خلدون متأثراً بفكرته الفلسفية في شرح التاريخ وفهمه .

وهناك مؤرخ مصري آخر هو أبو المحاسن بن تغرى بردى يشاطر شيخه المقرئ تقديره لابن خلدون ، ويشيد بمقدرته ونزاهته في ولاية القضاء ، ويقول لنا انه باشر القضاء بحزمة وافرة وعظمة زائدة وحمدت سيرته^(٢) .

(١) راجع هذه الفصول في مقدمة ابن خلدون ، ص ١٤٠ — ١٤١

١٥٧ — ١٥٨ و ٢١٧ — ٢٢٠ و ٢٤٦ و ٢٥٢ .

(٢) المنهل الصافي ، ج ٢ ورقة ٣٠٠ .

ويظهر أثر ابن خلدون أيضاً في اعتماد بعض أكابر الكتاب المصريين المعاصرين عليه والاقتباس من مقدمته وتاريخه . ومن هؤلاء أبو العباس القلقشندي صاحب كتاب « صبح الأعشى » فانه يقتبس من ابن خلدون في مواضع شتى من موسوعته (١) .

— ٣ —

هذه صورة دقيقة شاملة لحياة ابن خلدون في مصر ، وصلاته بحياتها العامة ، وأثره في حركتها الفكرية المعاصرة . وهذه الحقبة من حياة المؤرخ ، وهي حقبة طويلة امتدت ثلاثة وعشرين عاماً ، تخالف في نوعها وظروفها حياته بالمغرب ؛ ففي المغرب عاش ابن خلدون بالأخص سياسياً يتقلب في خدمة الدول والقصور المغربية ، ويخوض غمر دسائس ومخاطرات لانهاية لها . ولكنه عاش في مصر عالماً وقاضياً ؛ وإذا استثنينا مفاوضاته مع تيمورلنك في حوادث دمشق ، وسعيه الى عقد الصلة بين بلاط القاهرة وسلاطين المغرب ، فانه لم يتح له أن يودى في سير السياسة المصرية دوراً يذكر . وإذا كان ابن خلدون قد خاض في مصر معترك الدسائس أيضاً ، فقد كان هذا المعترك محلياً محدود المدى ، شخصياً في نوعه وغاياته .

وكانت حياة ابن خلدون في مصر أكثر استقراراً ودعة ، وأوفر ترفاً ونعماً من حياته بالمغرب . ولكن الظاهر أن سحبا من الكتابة والألم المعنوي كانت تغشى هذه الحياة الناعمة . فقد كان ابن خلدون

(١) راجع « صبح الأعشى » ج ٤ و ٥ و ٦ ففيها أسئلة كثيرة من هذا الاقتباس .

فى مصر غربياً بعيداً عن وطنه وأهله ، وكان يعيش فى جو يشوبه كدر الخصومة وجهد النضال . ونستطيع أن نلمس ألم البعاد فى نفس المؤرخ فى بعض المواطن ، فهو يذكر غربته حين يتحدث عن اتصاله بالسلطان أثر مقدمه ويقول إن السلطان « أبر مقامه وأنس غربته » ، وهو يكشف لنا عن هذا الألم فى مواطن كثيرة .

ولا ريب أن هلاك أسرة المؤرخ كانت عاملاً فى إذكاء هذا الألم المعنوى ، وهو يحدثنا عن هذه الفاجعة بلهجة الحزن واليأس حين يقول : « فعظم المصاب والجزع ورجح الزهد » .

وكان المؤرخ يؤثر حياة العزلة فى فترات كثيرة ؛ وهو يشير الى ذلك فى بعض المواطن ، حيث يقول لنا انه : « لزم كسر البيت ممتعاً بالعافية لابساً برد العزلة » . وتشير التراجم المصرية الى هذه العزلة فيقول لنا السخاوى : « ولازمه (أى المؤرخ) كثيرون فى بعض عزلاته ، فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم » . وكان المؤرخ يشتغل فى هذه الفترات بمراسلة أصدقائه بالمغرب والأندلس من السلاطين والأمراء والفقهاء ، وهو يشير الى ذلك فى عدة مواضع . وقد يكون من الشائق أن نعرف أين كان يقيم المؤرخ بالقاهرة .

ولدينا عن ذلك نصان نقلهما ابن حجر عن الجمال البشيشى ؛ ويقول الجمال فى أولهما : « انه كان يوماً بالقرب من الصالحية فرأى ابن خلدون وهو يريد التوجه الى منزله وبعض نوابه أمامه ... » فيلوح من هذه الإشارة أن المؤرخ كان يقيم مدى حين على مقربة من الصالحية فى الحى الذى تقع فيه هذه المدرسة أعنى حى بن القصيرين أو فى أحد الأحياء القريبة منه ، وذلك لأن مركز وظيفته

كقاضٍ للقضاة كان بهذه المدرسة ، ولأن إيوان الفقهاء المالكية كان يقع بجوارها^(١) . وأما في النص الثاني فيقول لنا الجبال ما يأتي مشيراً الى ولاية ابن خلدون للقضاء عقب عودته من دمشق سنة ثلاث وثمانمائة : « إلا أنه (أى ابن خلدون) تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات ... الخ »^(٢) . ويستفاد من ذلك ان المؤرخ كان يقيم في هذا الحين في أحد الأحياء الواقعة على النيل ، ولعله جزيرة الروضة أو لعله بالضفة المقابلة من القسطنطينية ، حيث كانت لا تزال بقية من الأحياء الرفيعة التي قامت هنالك مذ خُطت الروضة وعمرت وصارت منزل البلاط في أواسط القرن السابع ، وسكن الكبراء والسراة في الضفة المقابلة لها من القسطنطينية . ويرجح هذا الفرض ان المدرسة القمحية التي كان يدرس فيها ابن خلدون بلا انقطاع كانت تقع على مقربة من هذا الحي .

هذا وأما عن مثوى المؤرخ الأخير ، فقد ذكر لنا السخاوي أنه دفن « بمقابر الصوفية خارج باب النصر » . ويحدثنا المقرئ عن موقع هذه المقابر^(٣) وقد كانت تقع بين طائفة من التربة والمدافن التي شيدها الأمراء والكبراء في القرن الثامن خارج باب النصر في اتجاه الريدانية (العباسية) . ومقبرة الصوفية هذه أنشأها صوفية

(١) راجع خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٧١ و ٣٧٢ .

(٢) سبق أن أشرنا الى هذا النص . ويراجع النصان في كتاب رفع الأصرار لابن حجر في ترجمة ابن خلدون .

(٣) الخطط ، ج ٢ ص ٤٦٣ .

الخائنه الصلاحية في أواخر القرن الثامن في هذا المكان ، وخصصت
لدفن الصوفية ، وقد كان المؤرخ كما نذكر ، مدى حين شيخا
لخائنه بيبس .

فهل يكشف لنا الزمن يوماً عن مثوى رفات المفكر
العظيم ، فيغدو قبره أثراً جليلاً ، يحج إليه المعجبون برائع تفكيره
وخالد آثاره ؟

الكتاب الثاني

تراث ابن خلدون
الفكري والاجتماعي

الفصل الأول

علم العمران كما يعرضه ابن خلدون

فهم ابن خلدون للتاريخ . علم العمران أو الاجتماع البشرى . كيف يعتبره أساساً لفهم التاريخ . تحليله لظواهر المجتمع . تقسيمه لعلم العمران . محتويات المقدمة . نقد ابن خلدون لكتاب التاريخ . استعراضه لموضوع علمه . نظريته فى العصبية . ابن خلدون والعرب . حملته عليهم . حديثه عن الدولة والملك . نظريته فى عمر الدولة . الملك وأصنافه . نشأة المدن والأمصار . المعاش ووجوه الرزق . أنواع العلوم .

يمتاز ابن خلدون عن جمهرة المؤرخين المسلمين بل عن جميع المؤرخين قبله ، بأنه نظر الى التاريخ كعلم يستحق الدرس لارواية تدون فقط . وقد أراد أن يكتب التاريخ على ضوء منهج جديد من الشرح والتعليل ، فانهى به التأمل والدرس الى وضع نوع من الفلسفة الاجتماعية ؛ وكتب مقدمة مؤلفه التاريخى لتكون شرحاً وتمهيداً يُقرأ على ضوءها التاريخ وتفهم وقائعه ، فجاءت وحدة مستقلة من الابتكار الفائق ، تسجل مذهباً جديداً فى فهم الظواهر الاجتماعية وتعليلها ، وفى فهم التاريخ ونقده وتحليله .

ويصف لنا ابن خلدون هذا البحث الجديد الذى وفق إليه بأنه علم مستقل بنفسه ، وأنه ذو موضوع خاص « وهو العمران البشرى والاجتماع الإنسانى » وذو مسائل « هى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته واحدة بعد أخرى » . ويقول لنا إن هذا

العلم « مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة » انتهى إليه بالبحث الخاص ، ولم يقف لأحد قبله على كلام فيه ، اللهم إلا إذا كان القدماء الذين عفت آثارهم ولم تصلنا ، فهو أول من وضعه ونظم أصوله وشروحه .

ولهذا العلم الحديد الذى ابتكره ابن خلدون ، فى فهم التاريخ ودرسه أهمية كبيرة ، فهو فى رأيه قانون لتمحيص الحق من الباطل فى الرواية وإظهار الممكن والمستحيل ؛ وذلك « بأن ننظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته ، وبمقتضى طبعه ، وما يكون عارضاً لا يعتد به ، وما لا يمكن أن يعرض له ؛ وإذا فعلنا ذلك ، كان ذلك قانوناً فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار ، والصدق من الكذب ، بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه » ؛ ومحاولة فهم التاريخ على هذا النحو هى التى حملت ابن خلدون على درس هذا الموضوع الحديد ، وهو ما يسميه العمران أو الاجتماع البشرى^(١).

بيد أن ابن خلدون ينظر الى موضوعه من أفق شاسع جداً ، ويجعل من المجتمع الإنسانى كله ، وما يعرض له من الظواهر الطبيعية مادة لتأمله ، ويحاول أن يتتبع هذا المجتمع بالدرس والتحليل فى جميع أطواره منذ نشأته وبدأته الى استقراره وانتظامه فى المصر والدولة ؛ وتردده بين الضعف والقوة ، والفتوة والكهولة ، والنهوض والسقوط ؛ ويستقصى خلال ذلك ، أحوال هذا المجتمع وخواصه ، وعناصر تكوينه وتنظيمه من الفرد والجماعة الى السلطان والدولة ،

وما يعرض لهذه العناصر في حياتها الخاصة والعامة من الظروف والأحوال ؛ وما تقتضيه سلامة هذا المجتمع ، وما يؤذن بفساده وانحلاله ، فهو في الواقع يعالج مادة شاسعة تفوق تعريفه الأول .
وفي مكان آخر يلخص ابن خلدون ، مادة علمه من الناحية الموضوعية في أنها « ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوجوه برهانية ، يتضح بها التحقيق في معارف الخاصة والعامة وتدفع بها الأوهام والشكوك » (١)
ثم يقسم بعد ذلك موضوعه الى ستة فصول كبيرة هي :
الأول — في العمران البشري على الحملة وأصنافه وقسطه من الأرض .

الثاني — في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية .
الثالث — في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية .
الرابع — في العمران الحضري والبلدان والأمصار .
الخامس — في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه .
السادس — في العلوم واكتسابها وتعلمها (٢) .

وهذا التقسيم الإجمالي يقدم إلينا فكرة عما يرى ابن خلدون أنه مادة لهذا العلم الذي يسميه بالعمران أو الاجتماع البشري . وهو تقسيم تبدو دقته وبراعته متى استعرضنا بعد ذلك مواد مقدمته كلها ، ورأينا كيف ينبسط الموضوع ويتشعب الى أبعد الحدود ، وكيف ينظم ابن خلدون حلقات بحثه في سلسلة وثيقة الإتصال والتماسك ،

(١) المقدمة ، ص ٣٣ .

(٢) المقدمة ، ص ٣٤ .

تشهد بتفوق هذا الذهن العبقري ، وطرافته ، وقوة تدليله وجدله .

— ٢ —

لسنا نحاول في هذه الرسالة أن نتناول فلسفة ابن خلدون ونظرياته الاجتماعية بالتحليل والنقد^(١) ، فتلك مهمة لا يتسع لها هذا المقام الضيق . ولكننا نحاول فقط أن نستعرض محتويات مقدمته بإيجاز ، وأن نقف قليلاً ببعض نظرياته الاجتماعية .

يبدأ ابن خلدون مقدمته بالحديث عن قيمة التاريخ ومذاهبه وعما يرتكبه المؤرخون من الأخطاء في إيراد الأخبار والوقائع ، سواء بعامل الغرض والتحيز ، أو بعامل السهو والجهل بقوانين العمران وأحوال المجتمع ، وعدم الدقة والتمحيص في تقدير الممكن والمستحيل . ثم يمثل لذلك بعدة أمثلة يناقشها ويحاول أن يبين وجه الخطأ فيها . بيد أن هذه المناقشة لا تخلو أحياناً من الضعف أو الهوى ؛ فأما الضعف فيبدو مثلاً في أسباب دحضه لقصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر البرمكي ، وفي دفاعه عن خلال الرشيد ، ثم دفاعه عن خلال المأمون^(٢) . وأما الهوى فيبدو مثلاً في حديثه عن نسب الخلفاء العبّاسيين (الفاطميين) ، ونسب الأدارسة بالمغرب الأقصى ، ومحاولته نقض المطاعن التي توجه إلى نسبهما^(٣) .

(١) يستطيع من يريد شرحاً وافياً لمقدمة ابن خلدون ونظرياته الفلسفية والاجتماعية أن يرجع إلى رسالة صديقي الدكتور طه حسين (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) التي نقلتها إلى العربية .

(٢) المقدمة ، ص ١٢ و ١٤ و ١٦ و ١٧ .

(٣) المقدمة ، ص ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٠ .

وقد رأينا أن حياة ابن خلدون كسياسي يتقلب في مختلف الدول والقصور تجعله يخضع أحياناً لمؤثرات الدعوة والهوى . على أن معظم حديثه في هذا الفصل طريف ممتع ، وكثير من مآخذه على أسلافه من الرواة والمؤرخين قوى صارم . وهو يتدرج من ذلك الى ضرورة تمحيص الوقائع والأخبار طبقاً لهذا القانون الذي يتكون في رأيه بدرس العمران أو الاجتماع البشري على نحو ما قدمنا .

بعد هذا التمهيد النقدي المستفيض ، تحدثنا ابن خلدون عن العلم الذي ابتكر موضوعه ، فيبدأ طبقاً لتقسيمه الذي أتينا عليه ، بالحديث عن العمران أو الاجتماع البشري بصفة عامة ، ويشرح لنا طبيعة الاجتماع وضرورته وكيفية تنوعه بالنسبة للإقليم ، وتأثره بظروف الجو من الحر والبرد والاعتدال ، وأثر الهواء في أخلاق البشر وألوانهم وأحوالهم ؛ ويستعرض خلال ذلك جغرافية العالم كما كانت تعرف في عصره ، وهي جغرافية الأقاليم السبعة . ولسنا نلمس في هذا الفصل كثيراً من الطرافة أو الحدة . وفي الفصل الثاني يتناول ابن خلدون أنواع العمران البدوي ، فيحدثنا بإفاضة عن المجتمع البدوي وخواصه ويقارنه بمجتمع الحضر . وهنا إحدى النظريات الاجتماعية المبكرة التي يطالعنا بها المؤرخ ، فهو يحدثنا هنا عما يسميه « العصبية » وهي عبارة عما تتمتع به القبيلة أو الأسرة من القوة والجاه ، وقوامها في نظره الإتصال برابطة النسب والقربة وما إليهما من الروابط الماثلة . وهذه العصبية هي منشأ الرياسة والسلطان أو الدولة في المجتمع البدوي ؛ وتكون هذه الرياسة لأهل العصبية ؛ ومدى الحسب الذي ترتب عليه العصبية فالرياسة ،

في نظره أربعة أجيال ، وقد تمتد الى خمسة أو ستة ولكن في حالة انحطاط وضعف . وتنهار العصبية ومن ثم الرياسة بانحلال الحسب . وتنتقل الى عشيرة أو أسرة أخرى تجتمع لها أسباب الكثرة والقوة وهكذا . وغاية العصبية هي الملك^(١) . وهنا يتحدث ابن خلدون عن خواص الملك واختلاف صورته ومداه باختلاف الأمم التي يقوم فيها ، وأثر الغلبة في الأمم المغلوبة ، وكونها مولعة دائماً بتقليد الغالب .

ثم يحدثنا ابن خلدون عن العرب . وحديث ابن خلدون عن العرب طريف شائق رغم ما يطبعه من شدة وتحامل . فالعرب في نظره أمة وحشية ، تقوم فتوحهم على النهب والعيث ، ولا يتغلبون إلا على البسائط السهلة ، ولا يقدمون على اقتحام الجبال أو الهضاب لصعوبتها ؛ وإذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب لأن طبائعهم من الرحلة وعدم الانقياد والخروج على النظام منافية لل عمران ، ولأنهم أهل تخريب ونهب ، يخربون المباني وينهبون الأرزاق ، ويفسدون الأعمال والصنائع ؛ وهم أبعد الأمم عن سياسة الملك ، لأنهم لبداءوتهم وخشونتهم أكثر شعوراً بالاستقلال والحرية ، لا يدينون لرياسة أو نظام . وسياسة الملك تقتضى النظام والخضوع والانقياد^(٢) . ويستمر ابن خلدون بعد ذلك في حملته على العرب

(١) راجع شرح ابن خلدون لنظريته في العصبية ، وخواصها وتطورها في المقدمة ص ١٠٨ — ١١٧ . وقد تناول صديقي الدكتور طاهر خيمري نظرية العصبية عن ابن خلدون في رسالة بالألمانية عنوانها :
Der Asabija Begriff in der Muquaddima des Ibn Haldun .
وقد نشرت في مجلة Der Islam الألمانية (Band XXIII, 1936) .

فى مواضع أخرى من مقدمته ، فيقول لنا إن الأبنية التى يختطها العرب يسرع إليها الخراب ، وإن العرب أبعد الناس عن الصنائع ، وإنهم ليسوا أهلاً للعلم ، وإن حملة العلم فى الدول الإسلامية أكثرهم من الأعاجم^(١) . وإذا كان ابن خلدون يعتمد فى هذه الحملة على كثير من الأدلة والملاحظات الصادقة فإنه مع ذلك يبالغ فى حكمه على العرب ، وتعوزه الحجة فى كثير من آرائه . ولا يتسع المقام هنا لمناقشته وتفنيد آرائه بافاضة . ولكننا نقول فقط فى شأن الفتوحات العربية ، إن العرب هم الذين افتتحوا وهاد الشام ومفاوز الأناضول وأرمينية وتوغلوا فيما وراء فارس ، واقتحموا شمال إفريقيا حتى المغرب الأقصى ثم اسبانيا ، وعبروا جبال البرنيه الى فرنسا . وهذه كلها أقطار وعرة وليست من البسائط التى يسهل غزوها . وقد افتتحها العرب جميعاً فى أقل من قرن ، وفى وابل من الظفر الباهر . ثم إن العرب لم يخربوا هذه الأقطار ولكنهم بالعكس أقاموا فيها دولا ومجتمعات عامرة زاهرة ؛ ويكفى لكى ندحض نظرية ابن خلدون فى خواص الفتوح العربية أن نستشهد بقيام الدولة الأموية فى المشرق ، ثم قيام الدولة الإسلامية فى اسبانيا . وقد نفهم سر هذا التحامل الذى يطلق رأى ابن خلدون فى العرب بمثل هذه الشدة إذا ذكرنا أنه رغم انتسابه الى أصل عربى ، ينتمى فى الواقع الى ذلك الشعب البربرى الذى افتتح العرب بلاده بعد مقاومة عنيفة وفرضوا عليه دينهم ولغتهم ، واضطروه بعد طول النضال والمقاومة والانتفاض أن يندمج أخيراً فى الكتلة الإسلامية ،

وأن يخضع راعماً لرياسة العرب في إفريقية واسبانيا حتى تحين الفرصة لتحرره ونهوضه . والخصومة بين العرب والبربر في إفريقية واسبانيا شهيرة في التاريخ الإسلامي ؛ وقد ورث البربر بغض العرب منذ بعيد ، ونشأ ابن خلدون وترعرع في هذا المجتمع البربري يضطرم بمشاعره وتقاليده وذكرياته ، ونشأت فيه أسرته قبل ذلك بمائة عام ، ونعمت برعاية الموحدين البربر وتقلبت في نعمهم ، فليس غريباً بعد ذلك أن نسمع منه أشد الأحكام وأقساها على العرب .

بيد أنه يجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن ابن خلدون يجيش هنا بنزعة علمية وأخرى قومية ، فابن خلدون يحمل على العرب الذين ينتسب إليهم بمثل هذه الشدة ، ولكنه يحاول هنا أن يدعم حملته بالأدلة والشواهد التاريخية ، ويطلع حديثه هنا نزعة علمية تحررت من أغلال التقاليد الموروثة . ثم هو يجيش هنا أيضاً بعاطفة وطنية قوية ، فهو ينطق هنا بلسان ذلك الوطن البربري الذي غزاه العرب واثخنوا فيه مدى أحقاب وبسطوا عليهم سلطانهم الديني والسياسي ، ولبت عصوراً يقاتل في سبيل حرياته واستقلاله .

وفي الفصل الثالث يحدثنا ابن خلدون عن الدولة والمملك . فالدولة تحدث بالقبيل والعصبية على نحو ما تقدم ، وللدولة خواص معينة ، وصور معينة تختلف باختلاف القائمين بأمرها ؛ والدعوة الدينية أثر في تقوية الدولة ، ولكن الدعوة الدينية لا تتم إلا بالعصبية أيضاً . والخلاف يوهن الدولة ويدنى أجلها . وللملك كما للدولة طبائع وخواص ، منها الانفراد بالحد ، والترف والدعة والسكون وهي خواص إذا استحكمت ، فإنها تحمل الدولة الى الهرم ثم الفناء . ثم

إن للدولة أعماراً طبيعية كالأشخاص ؛ ويقدر ابن خلدون عمر الدولة منذ نشأتها حتى الفتوة ثم الكهولة فالهرم والسقوط ، بثلاثة أجيال في الغالب ، ويقدر الجيل بأربعين عاماً ، فعمر الدولة لا يعدو في الغالب مائة وعشرين سنة إلا في أحوال نادرة^(١) . وهذه النظرية تتفق مع نظرية الحسب التي تقدمت عند ذكر العصبية . وهنا يبلغ ابن خلدون ذروة الابتكار والطرافة ، وتبدو نظرياته الاجتماعية وتحليله للمجتمع ، في منتهى القوة والروعة . وفي رأينا أن هذا الفصل هو أبداع أقسام المقدمة وأمتنها في العرض والتدليل ، وأسطعها في الدلالة على براعة هذا الذهن القوى الممتاز .

ويستمر ابن خلدون في موضوع الدولة والملك طويلاً ، فيتناول بعد ذلك تحول الدولة من البداوة الى الحضارة ، وأطوارها المختلفة ، وأثر الموالى والمصطنعين في هذا التطور . ثم يتناول الملك وأصنافه ، والإمامة والخلافة واختلاف الآراء في شأنهما ، ومذاهب الشيعة ؛ ثم يتحدث عن تحول الخلافة الى الملك ، ورسوم الخلافة من بيعة وولاية عهد وغيرهما ، وألقابها وخططها الدينية وهي القضاء والعدالة والسكة ؛ ثم عن الملك وخططه كالوزارة ودواوين الأعمال والحباية والرسائل والشرطة وقيادة الأساطيل ؛ ورسوم الملك وشاراته المختلفة ، والحروب ومذاهبها ، والحباية والمكوس ونظم التجارة ؛ ويختتم ابن خلدون هذا الفصل بالكلام عن الظلم ، وكونه يؤدى الى انحلال الدولة وخراب العمران وحديثه هنا أيضاً قوى مبتكر .

ويلحق بموضوع الدولة حديث البلدان والأمصار ، ونشأة

المدن وخواصها واختلاف ظروفها وأحوالها ، من خصب ورفاهة وجذب وفقير ، وهو اختلاف يتعدى أثره الى الأقطار التي تضم هذه المدن ، ثم موقف أهل البادية من المصر ، وتوقف مدى الحضارة في المصر على حالة الدولة ، وكون الحضارة هي غاية العمران ونهاية عمره ، وأنها مؤذنة بفساده ؛ وتفاوت الأمصار في الغلة والصنائع واللغة ، وهذا هو موضوع الفصل الرابع من المقدمة .

وفي الفصل الخامس يتحدث ابن خلدون عن المعاش ووجوه الرزق ووسائل اكتساب الثروة ، ثم عن التجارة وما يتعلق بها من العرض والطلب والاحتكار والأسعار وغيرها ، ثم عن الصناعات وأنواعها وأحوالها بصفة عامة ، ثم يفرد لكل واحدة من أمهاتها كالزراعة والبناء والحياكة والتوليد والطب فصلاً خاصاً .

ويخصص ابن خلدون الفصل السادس للكلام عن العلوم والتعليم . والعلم من طبائع العمران ، ويكثر ويزدهر حيث يعظم العمران ؛ ثم يتحدث عن أنواع العلوم الدينية والمدنية (الوضعية والعقلية) ؛ ويتخلل ذلك فصول طويلة شائقة عن الرؤيا والسحر وأسرار الحروف والكمياء والانفعال الروحاني والأسرار الخفية والاستدلال على الضمائر ، وهي جميعاً عنده من أنواع العلوم أو مما يلحق بها . ثم يحمل على الفلسفة والمشتغلين بها باعتبارها علماً باطلاً ، وينوه بخطورها على الدين والعقيدة ، ويناقش بعض الأصول الفلسفية ويفندها . ويحدثنا بعد ذلك عن التربية ومذاهبها وخواص العلماء ، وكون معظمهم في الإسلام من الأعاجم ؛ ويختتم بفصول عن علوم اللغة والبلاغة والنثر والنظم ومذاهب الشعر لعصره .

الفصل الثاني

علم السياسة والمملك قبل ابن خلدون

ابن خلدون مبتكر علم العمران . علم السياسة والمملك قبل ابن خلدون . كتاب السلطان لابن قتيبة . نظريات الفارابي الاجتماعية . حديث إخوان الصفا عن السياسة وأقسامها . ماذا أفاد ابن خلدون من ذلك . تطور علم السياسة . الأحكام السلطانية وسياسة الملك لأبي الحسن الماوردي . سراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي . حديث ابن خلدون عن كتاب الطرطوشي . رسالة الغزالي في السياسة الملكية . المنهج السلوك . الآداب السلطانية لابن الطقطقي . موضوعه وروحه النقدي . ابتكار ابن خلدون وطرافته

هذه هي محتويات تلك المقدمة الشهيرة التي يعالج فيها ابن خلدون علمه الجديد « العمران » ويمهد بها لقراءة التاريخ وفهمه . وهذه المقدمة هي الكتاب الأول من تاريخه العام . ولكنها جاءت كما رأينا وحدة ضخمة مستقلة ، تمتاز بروعة ابتكارها وشاسع أفقها ، وطرافة موضوعاتها ، وعمق مباحثها . وإذا كان هذا البحث الجديد الذي يعالجه ابن خلدون بمنتهى الإفاضة والبراعة والدقة يثير منا الإعجاب والدهشة ، فانه يحملنا على التساؤل في الوقت نفسه ، ماذا كان نصيب ابن خلدون الحقيقي من ذلك الابتكار الرائع ؟ وهل كان له الفضل في ابتداء هذا العلم ، أم كان له فقط فضل التوسع والإفاضة ، في دراسة سبق أن عولجت من

قبل ؟ يقول لنا ابن خلدون إن علمه بكر جديد وانه ألهم إليه إلهاماً^(١) بل هو لا يكاد يعرف ما هو ذلك العلم بالضبط ؛ فما نصيب هذه الدعوى من الصحة ؟ لقد حاولنا أن نستقصى مصادر ابن خلدون فيما خلفه المفكرون المسلمون قبله مما يمس موضوعه أو يقترب منه ، وأن نحقق بدرس هذه الآثار ما نقله الفيلسوف المؤرخ من أسلافه ، فأنتهينا بعد طول البحث الى أن ابن خلدون رجل موضوعه ، ومخترع علمه ، وصاحب الفضل الأول في ابتكار هذا العلم الجديد الذى يسميه « بالعمران أو الاجتماع البشرى » . نعم ان هنالك موضوعات مما يعالج ابن خلدون عولجت من قبل ، وهنالك مباحث تلمس بعض موضوعات علمه ؛ ولكن هذه كما سنرى دراسات محدودة لبعض نواح ضيقة من ذلك العلم الشاسع الذى يعالجه ابن خلدون بمثل هذه الإفاضة فى سلك متماسك منتظم الروابط والشواهد ، وكل ما خلفه أسلافه فى ذلك لا يعدو لمحات ضئيلة مبعثرة هنا وهناك لاتجمعها وحدة عامة ، ولا يمكن أن تصلح وحدها أساساً لمثل هذه الدراسة الاجتماعية الممتازة . وقد رأينا أن نستعرض هذه المباحث الأولى التى يشير ابن خلدون الى بعض منها ، حتى نرى بالمقارنة المادية الى أى حد يرتفع ذلك الذهن الفائق فى أفق الطرافة والابتكار .

لسنا نجد قبل ابن خلدون مفكراً مسلماً يجعل المجتمع وتكوينه وخواصه موضوعاً لدروسه وتأمله ، ولكننا نجد بعض المفكرين المسلمين يعالجون منذ القرن الثالث الهجرى موضوع السياسة والملك كأنه علم

خاص أو أدب خاص ؛ وقد فهمت السياسة في هذا العصر بمعنى ضيق جداً ، هو شرح الخلال التي يجب أن يتمتع بها السلطان ، والعيوب التي يجب أن يبرأ منها لكي يحكم بأهلية وكفاية . وأما المُلْك فانه يعالج من ناحية الشروط التي يجب توفرها شرعاً في الإمام أو السلطان ، وما يخرج به عن أهلية الحكم ، ثم الخطط السلطانية كالوزارة والإمارة ومختلف الدواوين . وأقدم ما انتهى إلينا في هذا الموضوع ما كتبه ابن قتيبة الدينوري^(١) في كتاب « عيون الأخبار » حيث يفرد قسماً خاصاً بعنوانه « كتاب السلطان » يتحدث فيه عن الخلال التي يجب أن يتحلّى بها السلطان ، وفي رسوم صحبته ومعاملته ومشاورته ، وما يجب عليه نحو العمال والحكام^(٢) . وعمدة ابن قتيبة في حديثه ، مجموعة من الأقوال والحكم المأثورة ، ومنها كثير مما ينسب لحكماء الفرس والهنود ، فحديثه أقرب إلى النصيح والموعظة منه إلى العرض والشرح . وفي أوائل القرن الرابع نجد فيلسوفاً مسلماً هو أبو نصر الفارابي^(٣) يمس في مباحثه موضوع المجتمع والاجتماع بطريقة فلسفية ، فيتحدث في كتابه « مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة » عن حاجة الإنسان إلى الاجتماع والتعاون ، وعن نشأة القرى والمدن ، وعن خصال رئيس المدينة الفاضلة (السلطان) ، وما لا يناسب المدينة الفاضلة ، والفرق بين أهل

(١) توفي ابن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ - ٨٨٩ م .

(٢) راجع هذا الفصل في كتاب عيون الأخبار (طبع دار الكتب)

ج ١ ص ١ - ١٠٧ .

(٣) توفي الفارابي سنة ٣٣٩ هـ - ٩٥٠ م .

المدن الفاضلة والمدن الفضالة ؛ ثم عن الصناعات وأقسامها^(١) كل ذلك بطريقة فلسفية موجزة جداً . وظهرت في أواسط القرن الرابع « رسائل إخوان الصفا » الفلسفية ، وفيها هنا وهناك لمحات وشذور عن بعض الموضوعات السياسية والاجتماعية ؛ ويعتبر إخوان الصفا « السياسة » علماً مستقلاً بذاته ويقسمونها الى خمسة أقسام : السياسة النبوية ، والملوكية ، والعامية ، والخاصية ، والذاتية . والأولى تتعلق بوضع النواميس والسنن الزكية ، وتطهير النفوس من شوائب العقائد والآراء الخبيثة . وأما السياسية الملوكية فهي « معرفة حفظ الشريعة على الأمة ، وإحياء السنة في الملة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، باقامة الحدود وإنفاذ الأحكام التي رسمها صاحب الشريعة ، ورد المظالم وقمع الأعداء ، وكف الأشرار ونصرة الأخيار » . وأما السياسة العامية وهي الرياسة على الجماعات كرياسة الأمراء على البلدان والمدن ورياسة قادة الجيوش على العساكر « فهي معرفة طبقات المروسين وحالاتهم وأنسابهم وصنائعهم ومذاهبهم وأخلاقهم ؛ وترتيب مراتبهم ومراعاة أمورهم ... الخ » . وأما السياسة الخاصة فهي معرفة كل إنسان كيفية تدبير منزله وأمر معيشته . وأما السياسة الذاتية فهي معرفة كل إنسان نفسه وأخلاقه^(٢) . ويتحدث إخوان الصفا في إمكانية أخرى عن الغرض من الملك وعن أنواع الرياسة ؛ وعن الإمامة

(١) راجع كتاب المدينة الفاضلة (طبعة ليدن) ص ٥٣ ٥٩٩ ٦٧٩ .

(٢) رسائل إخوان الصفا (مصر) ج ٢ ص ٢٠٨ ٢٠٩ .

وشروطها وأحكامها^(١)؛ ويتحدثون عن تقسيم العلوم ويقسمونها الى ثلاثة أقسام كبيرة : الرياضية ، والشرعية الوضعية ، والفلسفية الحقيقية ؛ ولكل قسم منها أنواع وفروع كثيرة ، وتدخل الآداب بأنواعها في القسم الأول ؛ وعلوم الدين والقرآن والسنة في القسم الثاني ؛ والمنطقيات والطبيعات والالهيّات في الثالث . وتوضع السياسة في باب « الالهيّات »^(٢) . كذلك يتحدث إخوان الصفا عن تقسيم الصنائع وما تحتاج إليه من العناصر^(٣) ويتحدثون عن « تأثير طبيعة البلدان في الأخلاق » في فصل خاص^(٤) . كل ذلك في أسلوب علمي فلسفي رائع البيان والتدليل .

وهنا نقف قليلا . فانا نجد فيما تناوله الفارابي وإخوان الصفا شيئا مما تناول ابن خلدون في مقدمته . مثال ذلك حديث الفارابي عن حاجة الإنسان الى الاجتماع ، وعن نشأة القرى والمدن ، وحديث إخوان الصفا عن تقسيم العلوم ، والصنائع ، ثم عن تأثير طبيعة البلدان في الأخلاق . وقد تناول ابن خلدون هذه المسائل كما بينا^(٥) وجعلها من موضوعات علمه . ولكننا نجد بالمقارنة أن

(١) رسائل اخوان الصفا (مصر) ، ج ١ ص ٢٣ و ج ٤ ص ٣٠ وما بعدها و ص ١٨١ .

(٢) رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ص ٢٠٢ وما بعدها .

(٣) رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ص ٢١١ .

(٤) رسائل اخوان الصفا ، ج ١ ص ٢٣٢ - ٢٣٥ .

(٥) راجع المقدمة ، في ضرورة الاجتماع الانساني (ص ٣٤) ، وفي قيام المدن والأمصار (ص ٢٨٦ وما بعدها) وفي تقسيم العلوم (ص ٣٥٨ وما بعدها) ، وتقسيم الصنائع (ص ٣١٨ وما بعدها) ، وفي تأثير الهواء في أخلاق البشر (ص ٧٢ - ٧٣) .

ابن خلدون لا يكاد يشترك في هذه الموضوعات مع الفارابي وإخوان الصفا بأكثر من رؤوسها ؛ وبينما يتناولها الفارابي وإخوان الصفا بطريقة فلسفية علمية محضة إذا بابن خلدون يتناولها من الناحية الاجتماعية ، ويفيض في عرضها بطريقة عملية محضة ، ويذهب في الشرح والتدليل مذهباً آخر ؛ فهو لا يخلو هنا أيضاً من الاستقلال الطرافة والابتكار .

ثم نجد ذلك البحث الذى اصطلح على تسميته « بالسياسة » يتخذ مكانه وينتظم الى أدب خاص ، ويعالج تارة من الناحية الفقهية المحضة ، وتارة من الناحية الأخلاقية والفلسفية . ومن أشهر الكتب التى تعنى بجانبه الفقهى ، كتاب الأحكام السلطانية لأبى الحسن الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م) ؛ وهو من أشهر وأقيم الكتب فى هذا الموضوع . وفيه يتحدث المؤلف بإفاضة عن الإمامة وشروطها ، والإمام وما يجب أن يتوفر فيه من الصفات ، وما يخرج به عن الإمامة ، وما يجب على الأمة نحوه ؛ ثم عن الوزارة وأنواعها والإمارة وأنواعها والقضاء وشروطه ، والنفى والغنيمة والحزبة والحراج وأحكامها ، والإقطاع ، والدواوين ، والحدود . كل ذلك من الناحية الفقهية وعلى المذهب الشافعى . وللماوردى أيضاً رسالة أخرى عن « الوزارة وسياسة الملك » يتحدث فيها بإفاضة عن الوزارة وما يجب أن يتوفر فى متوليها ، ثم عن الوزير واختصاصه وواجباته وحقوقه نحو السلطان ، وحقوق السلطان نحوه وأنواع الوزارات ، وعلائق الوزير والسلطان . وبحث الماوردى هنا أخلاقى فلسفى تتخلله الحكم والأقوال المأثورة .

وفي كتاب « سراج الملوك » لأبي بكر الطرطوشي الأندلسي المتوفى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) يتقدم البحث قليلا . ويعالج الطرطوشي موضوعه من الناحية الأخلاقية والفلسفية ، ويتناول بعض موضوعات لم يتناولها أسلافه . فيحدثنا عن الخصال الواجبة في السلطان ، والصفات التي تؤدي الى ضياع الملك ، ثم عن خلال السلطان منفردة ، وعيوبه منفردة ؛ ويتكلم بعد ذلك عما يجب أن يتصف به السلطان نحو الجند والرعية ، وما يجب عليه نحو الأموال العامة وإنفاقها ؛ ثم عن الجزية وشروط العمال ، وعن الدواوين ، وعن الظلم وسوء عواقبه ، ثم عن الحروب وتدبيرها وأحكامها . وكتاب الطرطوشي هو أكبر مؤلف من نوعه ؛ ولكن الصبغة الدينية تغلب على أسلوبه ، ويتخذ على الأغلب صورة الوعظ ، وتتخلله الأحاديث والحكم والأقوال المأثورة بكثرة . ويقول لنا الطرطوشي في ديباجته « إن كتابه لم يسبق الى مثله أقلام العلماء » . على أننا نرى مما تقدم أن غير واحد من كتاب المشرق قد سبق الطرطوشي الى موضوعه ، وإن كان الطرطوشي يمتاز بالإفاضة وبأنه طرق بعض أبواب لم تطرق من قبل .

ونخص ابن خلدون كتاب الطرطوشي بالذكر بين الكتب التي تهم موضوعه لأنه يحدثنا عن تلك الكتب ، فيقول لنا إن في كتاب السياسة المنسوب لأرسطو جزءا صالحا من موضوع علمه إلا أنه غير مستوف ولا معطى حقه من البراهين . وكذا في كلام ابن المقفع ، وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات ، الكثير من مسائل علمه غير مبرهنة كما برهنها ، وإنما يسلك في ذكرها

منحى الخطابة والترسل . ولكنه يصارحنا بأن الطرطوشى « قد حوّم فى كتاب سراج الملوك وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابه ومسائله ... لكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ، إنما يبوب الباب للمسألة ثم يستكثر من الأحاديث والآثار ... وكأنه حوّم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده » (١) . والواقع أن ابن خلدون يعالج بعض الموضوعات التى يعالجها الطرطوشى ، مثل الدواوين ، ومذاهب الحروب ، وعواقب الظلم ؛ ولكنه ينحو فى العرض والتدليل منحى آخر ؛ ولا نلمس فى كتاب الطرطوشى أثر ذلك المذهب الاجتماعى المبتكر الذى يسيطر على بحث ابن خلدون من مبدئه الى منتهاه .

ولدينا رسالتان أخريان فى هذا الموضوع ، أعنى موضوع السياسة الملكية هما « التبر المسبوك فى نصائح الملوك » المنسوب للإمام أبى حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥ هـ (١١١٢ م) وضعه بالفارسية للسلطان محمد بن ملك شاه ، وهو مجموعة نصائح فى الخلال التى يجب أن يتحلّى بها السلطان ، ومعظمه مواعظ وقصص قديمة (٢) ؛ « والمنهج المسبوك فى سياسة الملوك » ، كتبه عبد الرحمن ابن عبد الله للسلطان صلاح الدين الأيوبنى (أواخر القرن السادس) فى نفس الموضوع ، أعنى الخلال السلطانية ، وفيه أيضاً حديث فقهى عن القتال والىء والغنيمة ؛ ومواعظ وقصص قديمة مكررة .

(١) المقدمة ، ص ٣٣ .

(٢) طبعت هذه الرسالة على هامش كتاب «سراج الملوك» (مصر) .

بقى لدينا من هذا الثبت مؤلف يمتاز بشيء من التوسع في فهم الموضوع وشيء من الطرافة في عرضه ؛ ذلك هو كتاب « الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية » لمؤلفه محمد بن علي بن طباطبا المعروف بالطقطقي ، الذي عاش ، كما يستنتج من إشارات في كتابه ، في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجري بعد ذهاب الدولة العباسية ، وكتب مؤلفه في أواخر سنة ٧٠١ هـ (١٣٠٢ م) بمدينة الموصل لأمرها عيسى بن إبراهيم^(١) ويخصص ابن الطقطقي في كتابه فصلاً كبيراً « للأمور السلطانية والسياسات الملكية »^(٢) غير أنه يعرض موضوعه في صورة أخرى ، ويقول لنا في مقدمته إنه لا يقصد البحث في أصل الملك وحقيقته وانقسامه الى ریاسات دينية ودنياوية من خلافة وسلطنة وإمارة وولاية ، وما كان من ذلك على وجه الشرع وما لم يكن ، ومذاهب أصحاب الآراء في الإمامة ، وإنما يقصد البحث في موضوع « السياسات والآداب التي ينتفع بها في الحوادث الواقعة ، والوقائع الحادثة ، وفي سياسة الرعية وتحسين المملكة وفي إصلاح الأخلاق والسيرة »^(٣) ويتحدث ابن الطقطقي في هذا الفصل عما يجب أن يكون عليه الملك الفاضل من الخصال وما لا يجب ، ثم عن حقوق الملك على الرعية ، وأخصها الطاعة . ونحدثنا طويلاً عن مزايا الطاعة

(١) راجع مقدمة المؤلف في طبعة « جريفزولد » التي نشرها المستشرق آلفارت سنة ١٨٥٨ ؛ وراجع أيضاً مقدمة الناشر الألمانية (ص ١٤ و ١٥) .

(٢) الفخرى ، ص ١٩ — ٨٨ .

(٣) انفخرى ، ص ١٩ .

وخواصها في الدولتين الأموية والعباسية ، وكيف كان فقدانها عاملاً من أهم العوامل في وهن الدولة العباسية وسقوطها ، ويشرح نظريته بالوقائع والحقائق التاريخية^(١) . ثم يتحدث عن الحقوق الواجبة للريعية على الملك وأنواع السياسات التي يجب أن يتبعها نحو مختلف الطبقات ، والنظر في العقوبات وتقديرها وظروفها ، وخطر الانغماس في الشهوات على الملك والدولة ؛ ويورد خلال ذلك شيئاً من وصايا الحكماء اليونان والفرس . ولكن ابن الطقطقي لا يعنى بعرض المبادئ والقواعد النظرية عنايته بتطبيقها على حوادث التاريخ ولا سيما تاريخ الدول الإسلامية . وهو يمتاز في عرضها وتطبيقها بنزعة نقدية قوية قلما نلمسها في آثار أسلافه ، كما أنه يمتاز بحسن التدليل وتطبيق النظريات على الوقائع . بل نستطيع أن نقول إن هذا الفصل الذي يمهّد به لتاريخ الدول الإسلامية كان فتحاً جديداً في النقد التاريخي ، وفي درس الدولة من الناحية الاجتماعية . وهو بلا ريب مما يدخل في مواد تلك الدراسة الاجتماعية الشاسعة التي استخرج منها ابن خلدون علمه ومذهبه الاجتماعي . بيد أن ابن خلدون لم يطلع فيما يظهر على هذا الأثر الذي يعالج بعض نواح من موضوعه ، فقد كان الكتاب حديثاً بالنسبة لعصره ، ولم يكن قد وصل تداوله وذيعوه من المشرق إلى المغرب ؛ هذا إلى أن الموضوع الذي يعالجه ابن الطقطقي ضيق جداً بالنسبة لدراسة ابن خلدون ؛ وإذا كان كلاهما يشترك في فهم التاريخ بطريقة تحليلية ، فإن ابن خلدون يتفوق على سلفه تفوقاً عظيماً بسعة

(١) الفخري ، ص ٣٥ و ٣٦ .

آفاقه ، وينهج في دراسته سبيلا أخرى تحتفظ بكل جذعها وطرافها .

• • •

والآن وقد عرضنا كل ما كتبه المفكرون المسلمون في موضوع الدولة والسياسة الملوكية والمدنية والاجتماعية قبل عصر ابن خلدون ، وبيننا بالمقارنة المادية أن هذا التراث كله لم يكن يمد ابن خلدون أو يلهمه بموضوع علمه ، وإن كان يعرض الى نواح ضئيلة مما يتناوله ابن خلدون في دراسته ، فانا نستطيع أن نقرر مع ابن خلدون أن ذلك العلم الذى يسميه بالعمران أو الاجتماع البشرى هو علم لم يوجد قبله في التفكير الإسلامى ، بل لم يوجد في التفكير القديم كله ، إذا استثنينا بعض ما خلفه الفلاسفة اليونان ولا سيما أرسطو عن نظم الدولة والمجتمع . فاذا كان ابن خلدون قد انتفع بشيء من تراث الماضى ، فانما يكون من هذا التراث الغابر ، ولا سيما تراث أرسطو ؛ وقد كان ابن خلدون فيما يظهر مطلعاً على بعض جوانب من فلسفة أرسطو ، كما يبدو من إشارته الى « سياسة » أرسطو ، وعلى شروح ابن رشد لأرسطو^(١) . على أنه لا ريب في أن هذا الانتفاع لم يكن ذا شأن يذكر سواء في صوغ فلسفته التاريخية أو فلسفته الاجتماعية .

فابن خلدون إذاً ، كما قدمنا أستاذ موضوعه ، ومخترع علمه . وهو يقول لنا بحق إن علمه جديد مبتكر ، وانه ليس من علم السياسة المدنية الذى تناوله أسلافه من قبل ، بل هو علم مستنبط

(١) راجع المقدسة ، ص ٣٣ . وقد وضع ابن خلدون كما سنرى ملخصات لبعض كتب ابن رشد ، ولكنها لم تصل إلينا .

النشأة مستقل بذاته ، لم يعالجه مفكر قبله ، أو لم يعالجه بمثل ابتكاره وسعته واستيعابه .

وسنرى أن هذا العلم الذى استحدثه ابن خلدون واستنبطه ، يتخذ من حيث مادته وموضوعاته مكانه بين علومنا الحديثة ، فى علوم الاجتماع ، وفلسفة التاريخ ، والنظام ، والاقتصاد السياسى . وسنبين فى موضع آخر ، كيف يرتفع النقد الحديث بتراث ابن خلدون الاجتماعى الى أسمى مكانة ، ويعتبره مبتكر علم الاجتماع الحديث وواضع أسسه .

الفصل الثالث

كتاب العبر والتعريف

وآثار ابن خلدون الأخرى

مؤلف ابن خلدون التاريخي . فكرته الأصلية في الاختصار على تاريخ المغرب . تنقيحه لتاريخه وزيادته في محتوياته . مدحه لخلال البربر . طريقته وأسلوبه . كتاب التعريف أو ترجمة ابن خلدون لنفسه . محتويات التعريف . صراحة ابن خلدون في الكشف عن كثير من نزعاته . خلاله القوية . الجانب القصصي في تعريفه . آثاره الأخرى . كتاب لباب المحصل . كتاب شفاء السائل .

- ١ -

ان هذا الكتاب الأول ، الذي يعرض فيه ابن خلدون نظرياته في التاريخ والاجتماع ، والذي يشغل وحده مجلداً كبيراً ، ليس إلا مقدمة لمؤلفه التاريخي الضخم أو تاريخه العام .

ويسمى ابن خلدون مؤلفه التاريخي : « كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر » ويقسمه إلى ثلاثة كتب كبيرة على النحو الآتي :

الأول — في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك

من العلل والأسباب . وهذا الكتاب هو الذى عرضنا إليه فيما تقدم ، وهو المعروف بالمقدمة .

الثانى — فى أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدأ الخليفة إلى هذا العهد أعنى الى عصر المؤلف وفيه الإلماع ببعض من عاصروهم من الأمم والمشاهير ودولهم مثل النبط والسريانيين والفرس وبني اسرائيل والقبط واليونان والروم والترك والإفرنجية .

الثالث — فى أخبار البربر ومن اليهم من زناته وذكر أوليتهم وأجيالهم وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول .

ويقع مؤلف ابن خلدون فى سبعة مجلدات ضخمة ، الأول يشمل الكتاب الأول ، وهو علم العمران ، أو المقدمة . وتبدأ الموسوعة التاريخية منذ المجلد الثانى . ويستغرق الكتاب الثانى وهو أخبار العرب وأجيالهم ، وأخبار باقى الأمم القديمة والتركبة والفرنجية حتى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) أربعة مجلدات ، من الثانى الى الخامس ؛ ويشمل الكتاب الثالث ، وهو أخبار البربر حتى عصر المؤلف المجلدين السادس والسابع ؛ ويختتم ابن خلدون مؤلفه بالتعريف عن نفسه فى عدة فصول كبيرة كما نفصل بعد .

ويبدأ ابن خلدون كعظم المؤرخين المسلمين بالحديث عن أصل الخليفة وأنساب الأمم المختلفة . وحديثه فى ذلك معاد جله من الروايات والأساطير الدينية القديمة التى ترددها التواريخ الإسلامية نقلا عن التوراة وعن المؤرخ القوطى اللاتينى أورسيوس

(هرشيوش) (١) بيد أنه يبدى ريبه في صحة الكثير منها . ويشرح لنا ابن خلدون بعد ذلك برنامج تاريخه كاملاً (٢)؛ ويبدأ بالكلام عن العرب الجاهلية ، ثم اليهود واليونان والرومان والفرس . وينقل معظم روايته عن اليونان والرومان عن ابن العميد .

ويشغل حديثه عن ظهور الإسلام وحياة النبي وعصر الخلفاء الراشدين جزءاً خاصاً ألحقه بالمجلد الثانى . ثم يبدأ تاريخ الدول الإسلامية منذ المجلد الثالث ، فيتحدث عن الدولة الأموية ؛ ثم الدولة العباسية بإفاضة . ويشغل تاريخ الدولتين المجلد الثالث . ويشمل المجلد الرابع تاريخ الفاطميين والقرامطة وتاريخ الأندلس منذ الفتح حتى مبدأ دولة بنى الأحمر ، وتاريخ بنى بويه وبنى سبكتكين . ويشمل المجلد الخامس تاريخ الترك السلاجقة بإفاضة ثم تاريخ الحروب الصليبية ، وتاريخ دول المالك في مصر حتى أواخر القرن الثامن . ويعتمد ابن خلدون في هذا القسم أعنى تاريخ العرب والدول الإسلامية على تراث أسلافه مثل ابن هشام والواقدي والبلاذري وابن عبد الحكم والطبرى والمسعودي وابن الأثير وغيرهم . ويبدأ ابن خلدون كتابه الثالث وهو أخبار البربر في المجلد السادس .

(١) باولوس أورسيوس Paulus Orsius حبر ومؤرخ إسباني (توطى) عاش في القرن الخامس الميلادي ووضع باللاتينية تاريخاً للخليقة حتى عصره . وقد اشتهر تاريخه بالرغم من ركاكته وكثرة خرافاته وانتفع به كثير من المؤرخين اللاحقين . وعرفه المؤرخون المسلمون ونقلوا عنه . وأشار إليه ابن خلدون في مواضع عديدة من تاريخه ، وتعرفه الرواية الإسلامية بهرويسيس أو هرشيوش .

(٢) كتاب العبر ، ج ٢ ص ١٦ و ١٧ .

ويذكر لنا ابن خلدون ان كتابة تاريخ البربر هي غرضه الأول من وضع مؤلفه التاريخي ، إذ يقول في مقدمته : « وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي اما صريحاً ومندرجاً في أخباره وتلويحاً ، لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأمه وذكر ممالكه دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأمه ، وأن الأخبار المتناقلة لا توفي كنه ما أريده منه » (١) . ولهذا التصريح من جانب ابن خلدون قيمة خاصة ، فقد حمل بعض النقدة على تاريخه ، ورموه بالقصور وعدم الاطلاع والتحقيق فيما كتب عن المشرق . وقد أشرنا فيما تقدم الى أقوال الحافظ ابن حجر وغيره في ذلك (٢) . والواقع أن القسم الخاص بتاريخ البربر من كتاب العبر ، هو — بعد المقدمة — أنفس أقسامه ، وأوفرها طرافة ، وأقواها عرضاً وتحقيقاً ، وفيه من الروايات والحقائق الغريبة عن أحوال تلك الأمم والقبائل البربرية ، ما لم يوفق اليه أي مؤرخ قبل ابن خلدون أو بعده . ولا غرو فابن خلدون بطبيعة نشأته وحياته ، وتقلبه في خدمة الدول والقصور البربرية ، ودرسه لأحوالها دراسة المطلع ، رجل هذا الموضوع وأقدر من يتناوله .

وفي هذا الكتاب الثالث يبدأ ابن خلدون حديثه عن « العرب المستعربة من بقية الدول الإسلامية من العرب » بالمغرب ، ثم تاريخ البربر والقبائل والبطون البربرية الشهيرة مثل زناته ومغراوة ولواته

(١) المقدمة ، ص ٢٧ .

(٢) راجع ص ٩٩ من هذا الكتاب .

ومصمودة والبرانس وكتامة وصنهاجة ، منذ أقدم العصور حتى عصره ؛ ويقدم لنا عن أصول البربر ، وأحوالهم ، وعقائدهم قبل الفتح الإسلامي ، روايات وحقائق لم تكن معروفة من قبل . ويسرد تاريخ المرابطين والموحدين بإيجاز ؛ ثم يفيض في تاريخ الدول البربرية القريبة من عصره والتي عاصرها إفاضة ظاهرة ؛ ولما كان ابن خلدون قد اتصل بمعظم هذه الدول المعاصرة ، وأدى في تقلباتها ، أدواراً ، فانه يشير في كثير من المواطن الى مواقفه وأعماله فيها ^(١) . ويشغل تاريخ البربر المجلد السادس ومعظم المجلد السابع من كتاب العبر كما انتهى اليها . بيد أنه يتضح من مراجعة أخبار الدول المعاصرة ، أن ابن خلدون ، قد راجع ما كتبه في شأنها وزاد عليه فيما بعد في كثير من المواطن . ونحن نعرف أن ابن خلدون قد أتم كتابة النسخة الأولى من تاريخه في تونس سنة ٧٨٣ هـ قبل نزوحه الى مصر . وهو يقول لنا خلال حديثه عن أخبار بني حفص ما يأتي : « كنت قد أنهيت بتأليف الكتاب الى ارتجاع توزر من أيدي ابن يملول وأنا يومئذ مقيم بتونس ، ثم ركبت البحر في منتصف أربع وثمانين الى بلاد المشرق لقضاء الفرض ، ونزلت بالاسكندرية ثم بمصر ، ثم صارت أخبار المغرب تبلغنا على السنة الواردين... » ^(٢) وقد وقع ارتجاع توزر سنة ٧٨٣ هـ ^(٣) . وفي مصر تناول

(١) مثال ذلك ما ورد في ص ٣٧٧ و ٣٧٩ من المجلد السادس وفي ص ١٣٣ و ١٤٣ و ٣٠٥ و ٣٢٩ و ٣٣٤ و ٣٧٧ من المجلد السابع .

(٢) كتاب العبر ، ج ٦ ص ٣٩٦ .

(٣) كتاب العبر ، ج ٦ ص ٣٩٥ .

ابن خلدون تاريخه بالتهذيب والإفاضة ، ووصل في روايته في أخبار الدول البربرية الى سنى ٧٩٠ و ٧٩١ و ٧٩٢ وأحياناً الى سنة ٧٩٦ هـ^(١). ووصل في أخبار الدول المصرية والتركية حتى سنى ٧٩٣ و ٧٩٥ و ٧٩٦ و ٧٩٧ هـ^(٢). ووصل في أخبار الأندلس حتى سنة ٧٩٤ هـ^(٣). وهذه كلها إضافات وفصول جديدة أضيفت الى المؤلف الأصلي أثناء إقامة المؤرخ بمصر ، والنسخة التى انتهت إلينا ، والتي نتداولها الآن ، هى بلا ريب من أتم النسخ وأوفاهها .

ونلاحظ في هذا القسم أيضاً — تاريخ البربر — أن ابن خلدون يفرد فصلاً خاصاً للتكلم عن خلال البربر « وعما كان لهم قدماً وحديثاً من الفضائل الإنسانية والخصائص الشريفة » وهو يقول لنا بحماسة « وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة ، وما جبلوا عليه من الخلق الكريم ، مرقاة الشرف والرفعة بين الأمم ، ومراعاة المدح والثناء من الخلق ، من عز الحوار وحماية التزليل ، ورعى الأذمة والوفاء بالقول والعهد ، والصبر على المكاره والثبات في الشدائد ... وإبابة الضيم ومشاقة الدول ، ومقارعة الخطوب وغلاب الملك ، وبيع النفوس من الله في نصر دينه ، فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم »^(٤). ولم يعقد ابن خلدون

(١) راجع ج ٦ ص ٣٩٩ و ٤٠٣ و ٤٢٤ ، وج ٧ ص ١٤٥ و ١٤٦

١٤٧ و ٢١٨ و ٢١٩ .

(٢) راجع ج ٥ ص ٥٤٠ — ٥٥٠ و ص ٥٦١ و ٥٦٣ .

(٣) راجع ج ٤ ص ١٧٩ .

(٤) راجع ج ٦ ص ١٠٣ وما بعدها .

مثل هذا الفصل للتحديث عن خلال أية أمة من الأمم الأخرى ، فهو هنا ينم عن هوى خاص ونعرة بربرية واضحة ؛ وفي ذلك أيضاً ما يفسر لنا صرامته في الحملة على العرب غزاة إفريقية والمتغلبين عليها . على أنه توجد أقسام أخرى من مؤلف ابن خلدون غير تاريخ البربر تمتاز بقيمة خاصة . مثال ذلك روايته عن دولة الإسلام في صقلية ، وعن تاريخ الطوائف بالأندلس ، والممالك النصرانية في اسبانيا ، وتاريخ دولة بني الأحمر في غرناطة . وينوه العلامة دوزي بقيمة رواية ابن خلدون عن تاريخ النصارى في اسبانيا ؛ ويقول إنه لا يوجد في الآداب النصرانية في العصور الوسطى ما يستحق أن يقارن بها ، وإن مؤرخاً نصرانياً لم يوفق لكتابة رواية في مثل وضوحها ودقتها عن أية دولة مسلمة ^(١) . ويتفوق ابن خلدون في هذه الأقسام من تاريخه على المؤرخين المسلمين تفوقاً عظيماً من حيث الدقة والتحقيق وتمحيص الرواية ؛ ويرجع ذلك في الغالب إلى أنه اطلع على مصادر في عصره لم تصل إلينا . وقد اهتم البحث الحديث برواية ابن خلدون عن تاريخ البربر اهتماماً عظيماً كما اهتم بمعظم هذه الأقسام الأخرى من تاريخه ، فترجمت جميعاً إلى اللغات الأوروبية كما سنبين بعد .

ويختتم ابن خلدون كتابه بعدة فصول كتبها في التعريف بنفسه وسرد تاريخ حياته منذ نشأته حتى نزوحه إلى مصر ، وما توالى عليه بها من الحوادث حتى مستهل سنة ٧٩٧ هـ . وتعرف هذه

Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature d'Espagne (١)
au moyen-âge, p. 96.

الفصول « بالتعريف » أو « التعريف بابن خلدون » ؛ وهو ما سنعود إليه .

* * *

وقد نهج ابن خلدون في تنظيم مؤلفه منهجاً جديداً ، فقسمه الى كتب ، ثم الى فصول متصلة متداخلة ، وتتبع تاريخ كل دولة على حدة من البداية الى النهاية مع مراعاة نقط الوصل والتدخل بين مختلف الدول . وهو من هذه الناحية يتفوق على أسلافه تفوقاً كبيراً . وقد وضعت معظم الموسوعات التاريخية الإسلامية قبل عصره في صورة جداول تاريخية مرتبة وفق السنين ، وجمعت حوادث كل سنة رغم تباعدها وتباينها معاً . ولكن ابن خلدون عدل عن هذه الطريقة الى طريقة الفصول والدول المتصلة ، وهي أقرب الى الدقة وحسن الرواية والتنسيق . وهو ليس أول من ابتدئها من المؤرخين المسلمين ، فقد سبقه اليها منذ القرنين الثالث والرابع مؤرخون كالواقدي ، والبلاذري ، وابن عبد الحكم المصري ، والمسعودي ، دونوا التاريخ فصولاً متصلة^(١) . ولكنه يمتاز عن أسلافه ببراعة التنظيم والربط والسبك ، ثم يمتاز عنهم أيضاً بالوضوح والدقة في تبويب الموضوعات ووضع الفهارس .

ولابن خلدون أسلوب خاص في العرض والتعبير . وكما أن مقدمته تمتاز بطرافة موضوعاتها ، فهي أيضاً تمتاز بروعة أسلوبها

(١) الواقدي في كتاب «فتوح مصر والشام» المنسوب إليه ، والبلاذري في «فتوح البلدان» وابن عبد الحكم في «فتوح مصر وأخبارها» والمسعودي في «مروج الذهب» .

الأدبي الذي يجمع بين البساطة وقوة التعبير ، ودقة التدليل ، وحسن الأداء والتناسق . وإذا كانت المقدمة مثلاً أعلى للتفكير الناضج والابتكار الفائق ، فهي في نظرنا أيضاً مثل أعلى لحسن البيان والفصاحة المرسلة والعرض الشائق ، وذلك رغم ما يطرأ أحياناً على أسلوبها من ضعف في العبارة ، وغرابة في التعبير ، وشذوذ في اللفظ ، ترجع الى نشأة ابن خلدون البربرية ، وثقافته بآداب المغرب والأندلس ، ولم تكن يومئذ في أوج قوتها .

ويكتب ابن خلدون تاريخه بنفس الأسلوب القوي المرسل ؛ وفي أحيان كثيرة يرتفع الى ذروة القوة في التعبير ، ولكنه في أحيان كثيرة يبالغ في الإيجاز والإتباع ، فتبدو عبارته قاصرة عن بيان مقاصده ويعتورها الغموض واللبس ، أو يعتورها نوع من الركافة والضعف ، وتتخللها الألفاظ الغريبة . غير أنه على العموم أستاذ موضوعه ، يمتاز في معظم الأحيان بالبيان القوي الشائق .

— ٢ —

ترك ابن خلدون سيرة حياته مكتوبة بقلمه . وليس ابن خلدون أول من ترجم نفسه من الكتاب والمفكرين المسلمين . فكثير منهم ترجم نفسه ولا سيما المحدثين . ومن الأدباء والمؤرخين الذين ترجموا أنفسهم ياقوت الحموي في كتابه « معجم الأدباء » ولسان الدين ابن الخطيب معاصر ابن خلدون وصديقه في كتابه « الإحاطة في أخبار غرناطة » ومعاصره الحافظ ابن حجر في كتابه « رفع الإصر عن قضاة مصر » والسيوطي في كتابه « حسن المحاضرة » . ولكن هؤلاء جميعاً يضعون عن أنفسهم تراجم موجزة . أما ابن خلدون

فهو أول مفكر مسلم يخصص لنفسه ترجمة مستفيضة تشغل كتاباً بأسره ، ويحدثنا بصراحة عن كثير من أعماله وأحواله التي لا يحسن الحديث عنها . وابن خلدون يعتبر بحق نفسه شخصية من شخصيات التاريخ تستحق سيرتها التدوين والترجمة ؛ فقد لبث نحو ثلث قرن شخصية بارزة في الدول المغربية المعاصرة ، يؤثر بأعماله ونفوذه في تطوراتها ومصايرها ، فتاريخه في الواقع قطعة من تاريخ هذه الدول لا يمكن إغفالها .

كتب ابن خلدون إذاً ترجمة نفسه في عدة فصول مستفيضة وجعلها ذيلاً لمؤلفه التاريخي . وتعرف هذه الفصول بالتعريف ، وهو العنوان الذي اختاره ابن خلدون لأول فصل منها وهو : « التعريف بابن خلدون مؤلف هذا الكتاب » وتشغل من المجلد السابع من تاريخه (في طبعة بولاق) نحو مائة صفحة من القطع الكبير^(١) . ويحدثنا ابن خلدون في هذا « التعريف » عن نسبه وتاريخ أسرته منذ قدمت إلى الأندلس واستقرت في إشبيلية حتى نزوحها إلى المغرب ، وما ساهم به زعماءها في حوادث الأندلس ، وما انتهوا إليه من رفيع المناصب والنفوذ حتى أيام الطوائف . ثم يحدثنا عن نشأته وتربيته الأولى وما قرأ ودرس من الكتب والعلوم ، وعن شيوخه الذين تلقى عنهم ، ويترجم لنا كثيراً منهم . ثم يتناول سيرة حياته العامة ، منذ ولي توقيع العلامة لأبي اسحاق سلطان تونس سنة ٧٥٢ هـ ، ويحدثنا بإفازة عن اتصاله بأمراء المغرب ودوله ، وتقلبه في قصور تونس وبجاية وتلمسان وفاس ، وعما انتهى إليه

(١) كتاب العبر ، ج ٧ ص ٣٧٩ - ٤٦٢ .

من النفوذ في هذه القصور والدول وهو قتي في عنفوانه لم يجاوز الثلاثين ، وعما أصابه مراراً من محن الاعتقال والتشريد ، ثم عن رحلته الى الأندلس واتصاله بملك غرناطة ووزيره ابن الخطيب ، وسفارته الى ملك قشتالة وزيارته لإشبيلية موطن أسرته الأول ، وكيف نشب الحفاء بينه وبين ابن الخطيب وملك غرناطة ، فارتد الى المغرب يتقلب في خدمة أمرائه ودوله حتى انتهى كرة أخرى الى بلاط تونس فاستقر فيه ، ثم لزم العزلة حيناً وعكف على كتابة مؤلفه حتى أتمه ، ورأى أخيراً أن نختم حياة المغامرة السياسية في تلك القصور المضطربة فغادر تونس الى مصر سنة ٧٨٤ هـ .

وبحدثنا ابن خلدون بعد ذلك عن حياته في مصر واتصاله بالسلطان وولايته التدريس وقضاء المالكية ، وما كان من سعاية خصومه في حقه حتى عزل عن منصب القضاء ، ثم سفره لقضاء الحج وعوده الى مصر لينقطع للتدريس والقراءة ، وليرتد حيناً الى حياة الدعة والعزلة حتى مستهل سنة ٧٩٧ هـ .

وهنا نختم ابن خلدون فصول « التعريف » بنفسه الملحقة بكتاب العبر في النسخة التي أخرجتها مطبعة بولاق كما قدمنا . ولكن دار الكتب المصرية تحتفظ بنسخة مستقلة من « التعريف » أتم وأوفى عنوانها « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » وفي نهايتها أنها نقلت عن نسخة المؤلف الأصلية^(١) . وفي هذه

(١) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب تحت رقم ١٠٩ م تاريخ ، والظاهر أنها قد نقلت عن إحدى النسختين المحفوظتين باستانبول اللتين سبقت الإشارة إليهما واللتين اتخذتا أساساً لإخراج النسخة المحققة من « التعريف » التي طبعت بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة ١٩٥١) . وبالرغم مما يعتور هذه النسخة من التصحيف والنقص في بعض العبارات فإنها تكاد تطابق النسخة المحققة في النص وفي الترتيب .

النسخة عدة فصول أخرى عن حياة ابن خلدون في مصر، يحدّثنا فيها بافاضة عن ولايته لوظائف التدريس والقضاء، وعن سعيه لعقد العلائق بين سلطان مصر وسلاطين المغرب، وعن حوادث مصر الداخلية يومئذ، ثم سفره إلى الشام في ركب الملك الناصر فرج، ولقائه عاهل التتار تيمورلنك تحت أسوار دمشق، وما دار بينهما من الأحاديث، وما وقع في تلك الفترة من حوادث الفتح التتري، وتمهيدته لذلك بنبذة عن أصل التتار وتاريخهم، ثم عوده بعد ذلك إلى مصر؛ يتخلل ذلك كله شروح وتعليقات فلسفية واجتماعية لبعض الظواهر والحوادث السياسية على طريقته في المقدمة. ثم يحدّثنا عما وقع بعد عوده إلى مصر من عوده إلى ولاية القضاء مراراً وتكراراً، وما لقي في ذلك من كيد خصومه وسعائتهم. ويصل ابن خلدون في رواية هذه الحوادث حتى ختام سنة ٨٠٧ هـ أعني قبيل وفاته ببضعة أشهر فقط، وتشغل هذه الفصول في النسخة الخطية المشار إليها نحو أربعين صفحة كبيرة^(١). وتقع النسخة كلها في مائة وتسع وأربعين صفحة. وفي القسم الأول منها الذي يقابل نسخة التعريف المتداولة زيادات وإضافات كثيرة

(١) تشغل هذه الفصول في النسخة الخطية من ص ١٠٧ إلى ص ١٤٩. وهذا بيانها كما أورده ابن خلدون: ولاية الدروس والخواني. ولاية خاتمه بيمرس والعزل منها. فتنة الناصري. السعاية في المهادة واللاحاق بين ملوك المغرب والملك الظاهر. سفر السلطان إلى الشام لمداغة الظفر (التتار) عن بلاده. لقاء الأمير تيمور سلطان المغل والظفر.

مما يدل على أن ابن خلدون عاد أثناء مقامه في مصر فتناول ترجمة حياته بشيء من التنقيح والتهديب .

وهذا « التعريف » الشامل الذي يتركه لنا ابن خلدون عن نفسه وحوادث حياته ، قطعة فريدة في الأدب العربي ؛ فهو صورة قوية ممتعة لتلك الشخصية الممتازة الجريئة ، رسمت في كثير من الحرية والصراحة ، حتى أنها لتفصح في كثير من المواطن عن خواص صاحبها النفسية ، وليست هذه الخواص دائماً مما يحمد أو مما تقرر الأخلاق الفاضلة . فهناك الكبرياء ، والزهو ، والأثرة ؛ وهنالك الطمع وحب التقلب ، وشغف الدس ، وانتهاز الفرص بأى الوسائل ثم هنالك الجحود ونكران الصنيعة ؛ هذه كلها نلمحها من آن الى آخر ماثلة في أعمال المؤرخ ومواقفه حسبما يقصها علينا بنفسه . ولكن هذه الخلال السيئة لا تبعد كثيراً عن خواص الشخصية الممتازة بل هي في الغالب خلال السياسة القوية الظافرة أو هي بعبارة أخرى مقومات السياسة « المكياثيلية » التي تقبوا مكانتها بين مذاهب السياسة الحديثة . ثم هي تقرن في الوقت نفسه بكثير من خواص العبقريّة ومميزاتها ؛ فهناك الى جانبها ، نرى الجرأة والإقدام ، وقوة النفس والثبات والجلد ، ونرى وفرة الذكاء والدهاء وبعد النظر ، ونرى قوة التأثير والإقناع ، ونرى الفصاحة والبيان الساحر ؛ هذه الخلال البديعة كلها أيضاً مما نستشف ونشهد في أعمال ابن خلدون ومواقفه . وفي هذا وذاك يحدثنا المؤرخ بصراحة وحرية وبساطة تحمل على الإعجاب .

ثم هنالك الجانب القصصى الشائق . وتلك الغمار الخطرة التي

تتخلل حياة المؤرخ ، ليست مما يقع في حياة الرجل العادى . فهو يجوز من قصر الى قصر ، ويجوز مخاطر النعمة والاعتقال والمطاردة ، ويقضى حياته السياسية في توجس مستمر ؛ ويسير في ركب الجند ويمثل الى جانب أميره في المعارك الحربية ، ويقوم بقضاء المهام الخطرة في أعماق الهضاب والصحارى . ونراه في دمشق في السبعين من عمره يخوض مخاطر جديدة ، وينزل من أبراج المدينة المغلقة مدلى بحبل ويقصد الى معسكر الفاتح في جرداء ؛ ونراه في مصر يقارع خصومه ويغالبهم رغم انفراده وكثرتهم ، ويفوز عليهم في ميدان النضال أكثر من مرة . أليست لهذه الحياة العنيفة الشائقة روعتها وسحرها ؟ إنا لنذكر حين نقرأ « تعريف ابن خلدون » تلك الترجمة الشهيرة التي تركها لنا بنفونوتو تشليني^(١) عن حياته الغربية . فهناك شبه عظيم بين السيرتين رغم اختلافهما في النوع ، وكلتاها تفيض بمواطن الجرأة والمخاطر ، ومواطن الإفضاء والصرامة . وإذا كانت ترجمة الفنان الإيطالى تعتبر في الأدب الغربى ، نموذجاً بديعاً للترجمة الشخصية ، وقطعة رائعة من العرض الساحر والقصص الشائق ، فان « تعريف » ابن خلدون يتبوأ مثل هذه المكانة في أدبنا العربى .

— ٣ —

ان المعروف المتداول من تراث ابن خلدون هو مؤلفه التاريخى

(١) بنفونوتو تشليني Cellini (١٥٠٠ - ١٥٧١) رسام وحفار وصانع إيطالى شهير خاض غمار حياة غريبة فياضة بالجرأة والمخاطرة ، وترك لنا ترجمة نفسه في مجلد ضخيم . وتعتبر ترجمته من أبديع آثار عصر الإحياء .

الكبير كتاب « العبر » بأجزائه السبعة الكبيرة ، وملحقه « التعريف » وهو الذى غدا بعد نشره كتاباً مستقلاً عنوانه « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » ، وما ورد فيهما من رسائل كتبها المؤرخ وقصائد نظمها فى مختلف المناسبات ؛ ولكن ابن الخطيب يذكر لنا فى ترجمته لابن خلدون فى كتاب « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ثبوتاً آخر لآثار ابن خلدون ؛ فيقول لنا إنه « شرح البردة شرحاً بديعاً ، ونلخص كثيراً من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أيام نظره فى العقلليات تقييداً مفيداً فى المنطق ، ونلخص محصل الإمام فخر الدين الرازى ، وألف كتاباً فى الحساب ، وشرع فى شرح الرجز الصادر عنى فى أصول الفقه بشىء لا غاية فوقه فى الكمال »^(١). وقد كتب ابن الخطيب هذه الترجمة قبل أن يضع ابن خلدون مؤلفه التاريخى بأعوام كثيرة ، ولذا لم يذكر فى هذا الثبوت. ولم يصلنا من تلك الآثار أو الرسائل التى ذكرها ابن الخطيب سوى أثر واحد ، والظاهر أنها لم تكن ذائعة معروفة فلم تذكر التراجم المصرية المعاصرة عنها شيئاً ؛ والظاهر أيضاً أنها لم تكن من الأهمية بمكان حتى أن ابن خلدون نفسه لا يشير إليها فى التعريف بشىء .

أما هذا الأثر الآخر الذى وصلنا من تراث ابن خلدون مما أشار إليه ابن الخطيب ، فهو مؤلف صغير فى الأصول وقفنا عليه أثناء بحوثنا فى مكتبة دير الإسكوريال باسبانيا ، حيث تتوى المجموعة الأندلسية . وقد كتب على صفحة عنوانه ما يأتى :

(١) ففتح الطيب (بولاق) ص ٤١٩ — وينقل القرى ترجمة ابن الخطيب لابن خلدون كلها (ج ٤١٤ — ٤٢٦) .

« لباب المحصل في أصول الدين تصنيف العبد الفقير الى الله تعالى الغنى به عن سواه ، الراجي عفوه ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ، غفر الله له ولوالديه ، ولجميع المسلمين » .

ويقول ابن خلدون في مقدمته شرحاً لموضوع كتابه ، إنه درس على شيخه وأستاذه العلامة أبي عبد الله محمد بن ابراهيم الآبلي كتاب المحصل الذي صنفه الإمام الكبير فخر الدين بن الخطيب وأنه نظراً لإسهابه وإطنا به ، رأى أن تحذف منه ما يستغنى عنه ، وأن يترك فيه ما لا بد منه ، وأن يضيف كل جواب الى سؤاله ، « فاختصرته وهذبته ، وحذو ترتيبه رتبته ، وأضفت اليه ما أمكن من كلام الإمام الكبير نصر الدين الطوسي ، وقليلاً من بنيات فكري ، وسميته لباب المحصل ، فجاء محمد الله رائق اللفظ والمعنى ، مشيد القواعد والمبني ... » (الورقة ٤-١)

ويقع المخطوط المشار اليه في خمسة وستين لوحة (ورقة) من القطع الصغير ، وقد كتبت بخط مغربي هو خط ابن خلدون نفسه ، وقد جاء في نهايته :

« وافق الفراغ من اختصاره عشية يوم الأربعاء التاسع والعشرين لصففر عام اثنين وخمسين وسبعمائة . وكتبه مصنفه الفقير الى الله تعالى ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي » (١) .

(١) تحفظ هذه النسخة الفريدة من أثر ابن خلدون بمكتبة دير الاسكور يال برقم ١٦١٤ (ورقمها في فهرس الغزيري ١٦٠٩) .
راجع Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis ج ١ ص ٥٤ . وقد قام أخيراً بتحقيقها ونشرها الأب الأوغسطيني لوسيانورو بيو Luciano Rubio أستاذ الفلسفة في دير الاسكور يال الملكي . وصدرت عن معهد مولاي أبي الحسن بتطوان (سنة ١٩٥٢) في ١٤٩ صفحة . وقد جعل الأستاذ الناشر هذا النص العربي للكتاب هو الجزء الأول . ثم نشر ترجمته الاسبانية مقرونة بمقدمة في تاريخ علم الكلام وجعله الجزء الثاني .

ومعنى ذلك ان ابن خلدون كتب «لباب المحصل» ولمّا يبلغ التاسعة عشرة من عمره . والمرجح جداً أنه أول ما كتب . وكتابه له في هذه السن المبكرة دليل على أن المؤرخ كان في مستهل حياته يعنى بعلم الأصول عناية خاصة .

ويقسم ابن خلدون كتابه الى أربعة أقسام أو أركان رئيسية ، الأول منها في البديهيّات ، والثاني في المعلومات ، ويتبعه الكلام على الموجودات عند الفلاسفة وعند المتكلمين ، والثالث في الإلهيات ، والرابع في السمعيّات ، ويشتمل كل ركن على عدة أقسام . ويختتم بالكلام على معنى الإيمان ، والكفر ، ثم عن الإمامة ، والشيعية وأنواعها . وتلخيصه وعرضه لكل ذلك واضح حسن الترتيب والتنسيق .

ومما يجدر ذكره أن نسخة لباب المحصل هذه — وهى النسخة الفريدة فى العالم — المحفوظة بمكتبة الإسكوريال ، كانت من مقتنيات مولاى زيدان سلطان مراكش المتوفى سنة ١٦٢٧ م ، وقد ذيل عليها بخطه فى صفحتها النهائية (وقد قدمنا صورتها بعد) بعبارة تحليلية قوية عن ابن خلدون نثبها فيما يلى :

« هو الإمام صاحب التاريخ العظيم ارتحل من المغرب والتقى بتمورلنك بالشام ، وشفع فيهم فشفعه ، ثم غدر بهم بعد ذلك . وكان كثير التنقل كالظل . استكتبه صاحب ولاية فاس ، ثم صاحب تلمسان ، ثم صاحب تونس . ودخل مصر وولى بها القضاء اعنى فى بعض الأعمال . وكان لا يستقر على حالة . وله فى الأدب اليد البيضاء ، فغلب عليه الفقيه ، وله مع ابن الخطيب الكاتب المشهور مكاتبات أدبية أبانت عن سلامة طبعه ، وحدة ذهنه ، وقوة فهمه ، ورقة تخيله . واختصاره هذا لا بأس به . وكتب عبد الله زيدان أمير المؤمنين الحسنى خار الله سبحانه له » .

قاجن العراغ من اختطاره عشتريهم
 كاربعة التاسع والعشرون لغير عام اثني
 وخمسين وسبع مائة وكتبه مصنف المغير
 الى الله تعالى عبر البحر محمد بن خلدون الحفزي

هو كالمع طاج التارخ العظيم ارتحل المغرب والتقى بعمود الهند
 بالشلح وشبع بهم بشقة عذاره بحر فلكه وكان كثير السفر
 كالأرض السكينة طاج وآته فاستقام طاج تلمسان ثم ط
 حب فونيرج خل مصر وولي بها لفظ اعن في بحر كالحار
 وكان لا يقدر على حالة وله في كادب اليو اليضا فقلب
 عليه للقيفه واشتمت به وله مع ليز الخطيب الكاتب المشهور
 مكابيل اربعة ايات عن سلامة كعبه وجره دسه
 وقوة همه ورقة تحيله وانقطر من اكا باسره وكتب
 عبر الله ريدان لموسر الحسني خازن الله بجانة له

الصفحة الأخيرة من كتاب لباب الحصول ، وفيها تاريخ كتابته ويليها
 كلمة عن ابن خلدون مكتوبة بخط مولاي زيدان سلطان مراکش ؛ وقد
 كان الكتاب ملكاً له .

هذا ، وقد حصلت دار الكتب حديثاً على نسخة مصورة من مخطوط مغربي في التصوف عنوانه « شفاء السائل لتهديب المسائل » ، يقع في سبعة وثمانين ورقة (١٧٤ صفحة) ومنسوب في صحيفة عنوانه « للشيخ أبي زيد عبد الرحمن بن الشيخ الفقيه المحقق المشارك المبرور المقدس المرحوم أبي بكر محمد بن خلدون الحضرمي »^(١) . وينعت مؤلفه في ديباجته « بالشيخ الرئيس الفقيه الحليل المدرس ، المحقق المشارك المتفنن ، العالم العلم ، الصدر الأوحده ، قطب العلوم الدينية ، ورافع راياتها ، وفتاح مغلفات المسائل العقلية ، والسابق الى غاياتها ، أبو زيد عبد الرحمن ... الخ » .

والمخطوط قديم ذكر في نهايته أنه كمل في جمادى الأولى عام تسعين وثمانمائة ، أعني بعد وفاة ابن خلدون باثنين وثمانين عاماً . وأما موضوع الكتاب ، فقد أوضحه المؤلف في فاتحته حيث يقول : « أما بعد فقد وقفني بعض الإخوان أبقاهم الله على تقييد وصل من عُدوة الأندلس ، وطن الرباط والجهاد ، ومؤوى الصالحين والزهاد ، والفقهاء والعباد ، مخاطب بعض الأعلام من أهل مدينة فاس حيث الملك يزأر ، وبحار العلم والدين تزخر ، وثواب الله يعد لأنصار دينه ويذخر ، طالباً كشف الغطاء في طريق الصوفية أهل التحقيق والتوحيد الذوق وفي المعرفة الوجدانية ، هل يصح سلوكه والوصول به الى المعرفة الصوفية ، ورفع الحجاب عن العالم الروحاني ، تعلماً من الكتب الموضوعية لأهله ، واقتداء بأقوالهم الشارحة لكيفيته ، فتكفي في ذلك مشافهة الرسوم ، ومطالعة

العلوم ، والاعتماد على كتب الهداية ، الوافية بشروط النهاية والبداية ، كالأحياء والرعاية أم لابد من شيخ يتبين دلائله ، ويحذر غوائله ، ويميز المريد عن اشتباه الواردات والأحوال مسائله ، فيتنزل منزلة الطبيب للمرضى ، والإمام العدل للأمة الفوضى » ، ثم يقول « والكلام في هذه المسألة يستدعى تحقيق طريق الصوفية ، وتمييزها من بين سائر الطرق ، وكيف استقرت عند الصدر الأول منهم في نوع من العبادة والمجاهدة واختصت بهذا الاسم . ثم صاروا إلى مجاهدات أخرى ، وغلب اسم التصوف عليها ، وهو المشهور عند الكافة » . ويشتمل الكتاب على الأبواب الآتية :

(١) الكلام في تحقيق طريق المتصوفة وتمييزه على الجملة من بين طرق الشريعة ، ومدلول هذا اللقب عند من سلف منهم في الأمة .

(٢) الكلام في المجاهدات باطلاق وأقسامها وشروطها .

(٣) الكلام فيما نقل المتأخرون اسم التصوف إليه والرد عليهم في ذلك .

(٤) الكلام في اشتراط الشيخ في المجاهدة وفي أى المجاهدات يجب .

(٥) القول فيما سمى إليه هم القوم من المجاهدات وما حملهم عليها من البواعث ، وكيف غلب استعمال اسم التصوف في مجاهداتهم الأخرى ، واختص بها عند الكافة ، وانتقل إليها عن هذه المجاهدة الأولى وتحقيق هذه الطريقة .

هذه هي الموضوعات التي يتناولها الكتاب ، وهي بعض مسائل التصوف ؛ وقد تناول ابن خلدون موضوع التصوف في المقدمة في فصل جامع لخص في مسائل التصوف ، واختلاف مذاهبه تلخيصاً بديعاً^(١) .

ويلوح لنا مما وُصف به مؤلف الكتاب من نعوت ، وما يبدو في روح أسلوبه ، وما يتخلله من عبارات خاصة في الوصف والتعبير ، أن هذا الكتاب هو فيما يرجح من تأليف ابن خلدون نفسه .
وما يحذر ذكره أن هذا الكتاب لم يرد في الثبت الذي أورده ابن الخطيب عن مؤلفات ابن خلدون . فهو إذاً فيما يبدو من إنتاجه بعد ذلك . وربما يكون قد كتبه خلال إقامته في فاس بين سنتي ٧٦٠ و ٧٦٢ هـ .

هذا ، وقد يكشف لنا الزمن عن آثار أخرى للمفكر العظيم ما تزال مطمورة في بعض المجموعات المغربية الخاصة ، وهي التي كشفت لنا في العصر الأخير عن كثير من ذخائر الأندلس التي كان يخشى أن تكون قد فقدت إلى الأبد .

(١) المقدمة ، ص ٣٩٠ — ٣٩٦ .

الفصل الرابع

ابن خلدون والنقد الحديث

أول عهد البحث الغربي بابن خلدون . المباحث الأولى عنه وعن مؤلفه . نشر المقدمة وترجمتها . ظهور نظريات وآرائه . رسالة فون كريمر عنه ابن خلدون مؤرخ الحضارة الإسلامية . تعليق الاستاذ شميت على هذا الوصف . رأى دى بوير . ابن خلدون الفيلسوف . ابن خلدون الاجتماعي . تحليل العلامة جيلوفتش لنظريات ابن خلدون الاجتماعية . فريرو وليفين . تقدير الأستاذ مونيه للمقدمة . فلسفة ابن خلدون الوضعية . تشاؤم ابن خلدون . رأى فون فيسندنك في تطبيق نظرياته على التاريخ الحديث . ابن خلدون الاقتصادي . تحليل الأستاذ كلوزيو لنظرياته الاقتصادية . رسالة الأستاذ شميت . تقديره لابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف للتاريخ واجتماعي .

يرتفع النقد الغربي بتراث ابن خلدون الى أسنى مكانة . وقد عرف التفكير الغربي قبل ابن خلدون طائفة كبيرة من المفكرين المسلمين لم يرتفع كثير منهم الى مكانته ، وعرف قبله كثيراً من المؤرخين المسلمين ، لا لأنهم أجدر بالبحث والتعريف ، ولكن لأنهم ظهروا في عصور الإسلام الفتية الزاهرة أو لأنهم تناولوا نواحي غنى بها التفكير الغربي^(١) . ولكن ابن خلدون ظهر في عصر

(١) عرف الغرب مؤرخين مثل المسعودي وأبي الفدا وابن العبري وابن خلكان وابن عربشاه قبل ابن خلدون بعصور طويلة؛ وترجمت بعض مؤلفاتهم الى اللاتينية . ونشر تاريخ ابن العبري وتاريخ ابن عربشاه (تاريخ تيمور) في إنجلترا بنصهما العربي منذ منتصف القرن السابع عشر .

سرى فيه الإنحلال الى صولة الإسلام وسيادته ، واضمحل التفكير الإسلامى ، فلم يكن أجدر العصور بالتعريف والبحث . ولبت تراث ابن خلدون مغموراً فى الشرق والغرب مدى قرون ، يكاد الشرق يجهله ، ولا يعرف الغرب شيئاً عنه . وفى سنة ١٦٩٧ م ظهرت عنه فى موسوعة « دربلو » الشرقية أول ترجمة غربية (١) . وهى ترجمة موجزة فياضة بالخطأ . ومضى بعد ذلك أكثر من قرن قبل أن يعنى التفكير الغربى بشأنه ، حتى نشر المستشرق الفرنسى سلفستردى ساسى سنة ١٨٠٦ ترجمة ابن خلدون مع ترجمة فرنسية لفقرات من المقدمة فى قاموسه Chrestomathie Arabe . ثم نشر بعد ذلك بأعوام ترجمة لمقتطفات أخرى من المقدمة . وعاد فنشر سنة ١٨١٦ ترجمة أوفى لابن خلدون فى قاموس التراجم العام Biographie Universelle مع وصف مسهب لمقدمة ابن خلدون . وفى نفس الوقت نشر المستشرق النيسوى فون هامار رسالة بالألمانية عن « اضمحلال الإسلام بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة » (٢) ، تعرض فيها لبعض نظريات ابن خلدون فى انحلال الدول ، ووصفه بأنه « مونتكيو العرب » . ونشر بعد ذلك ترجمة ألمانية لبعض مقتطفات من المقدمة ، ثم نشر وصفاً لبعض أجزاء المقدمة فى « المحلة الآسيوية » (٣) . واستمر دى ساسى

D'Herbélot : Bibliothèque Orientale.

(١)

Von Hammer-Purgstall : Ueber den Verfall des Islams nach (٢)
den ersten drey Jahrhunderten der Hidschat (١٨١٢).

Journal Asiatique (١٨٢٢). (٣)

وبعض زملائه المستشرقين على نشر مقتطفات مترجمة من مقدمة ابن خلدون أو تاريخه ، والبحث الغربي فيما بين ذلك يزداد اهتماماً بابن خلدون وتراثه ، وإعجاباً بقوة تفكيره وطرافته ، حتى نشر كاترمير مقدمة ابن خلدون كاملة بنصها العربي سنة ١٨٥٨ ، ونشر دى سلان بعد ذلك ببضعة أعوام ترجمة فرنسية كاملة للمقدمة ، وعندئذ ظهر ابن خلدون للتفكير الغربي في روعة ابتكاره ، وظهرت قيمة ذلك التراث الباهر الذى غمره النسيان مدى عصور .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر يعنى النقد الغربى بابن خلدون ونظرياته الاجتماعية عناية خاصة . كان وقوف الغرب على تراث ابن خلدون اكتشافاً علمياً حقاً ، وكان أعجب ما فى هذا الاكتشاف أن يظفر الغرب فى تراث المفكر المسلم ، بكثير من النظريات الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية التى لم يطرقها البحث الغربى إلا بعد ابن خلدون بعصور طويلة . أجل اكتشاف النقد الغربى لدعشته وإعجابه فى تراث ابن خلدون كثيراً مما رده ميكافيللى بعده بقرن ، وما رده فيكو ومونتسكيو ، وآدم سميث ، وأوجست كونت^(١) بعده بقرون . وكان المعتقد أن البحث الغربى أول من اهتم الى فلسفة التاريخ ، ومبادئ الاجتماع ، وأصول الاقتصاد

(١) ميكافيللى مؤرخ وسياسى إيطالى (١٤٦٩ - ١٥٢٧) .
وفيكو مؤرخ وفيلسوف إيطالى (١٦٦٨ - ١٧٤٤) ومونتسكيو مشرع وفيلسوف واجتماعى فرنسى (١٦٦٩ - ١٧٥٥) وآدم سميث اقتصادى انجليزى (١٧٢٣ - ١٧٩٠) وأوجست كونت فيلسوف فرنسى وهو واضع أصول الفلسفة الوضعية (١٧٩٨ - ١٨٥٧) .

السياسى ، فاذا بابن خلدون يسبقه بعضوور ويغزو فى مقدمته هذه الميادين ، ويعرض كثيراً من نواحيها ونظرياتهما بقوة وبراعة . ومن ثم فانا نرى النقد الغربى ، بعد أن اكتشفه ودرسه ، يرتفع بترائه الى أسمى مكانة ، وينظمه فى سلك الفلاسفة ومؤرخى الحضارة وعلماء الاجتماع والاقتصاد السياسى ، بل ويعترف له بفضل السبق فى هذه الميادين .

— ١ —

كانت الناحية التاريخية الفلسفية فى تفكير ابن خلدون أول ما عنى النقد الغربى بدرسه ، ولكن الناحية الاجتماعية ما لبثت أن لفتت أنظار طائفة من علماء الاجتماع ، وأخذت تتفوق على ما عداها من نواحي تفكيره . ومنذ أواخر القرن التاسع عشر نرى نظريات ابن خلدون الاجتماعية تشغل فراغاً كبيراً فى النقد المعاصر ، ويتناولها حتى يومنا طائفة من النقدة الاجتماعيين بالدرس والتحليل المقارن .

وكان فى مقدمة من درس تراث ابن خلدون من الناحية التاريخية الفلسفية المستشرق النمساوى الكبير البارون فون كريمر ، فكتب عنه بالألمانية رسالته الشهيرة « ابن خلدون وتاريخه لحضارة الدول الإسلامية »^(١) وقدمها لأكاديمية العلوم بفيينا سنة ١٨٧٩ . ويعتبر فون كريمر ابن خلدون مؤرخاً للحضارة Kulturhistoriker يؤرخ حضارة الشعوب الإسلامية ، لأنه من بين المؤرخين المسلمين

Von Kremer: Ibn Chaldûn und seine Kultur- Geschichte (١)
der Islamischen Reiche.

أول من خصص فصولاً ضافية للتحدث عن النظم السياسية وأنواع الحكم ، والخطط العامة كالقضاء والشرطة والإدارة وتطورها في الدول الإسلامية ، وعن النظم الاقتصادية والتجارة والمكوس والضرائب ، وعن المهن والحرف والصنائع ووجوه الكسب المعاش ، ثم عن العلوم والفنون والآداب وأصنافها وأحوالها وتطورها في العالم الإسلامي ، وهو اعتبار صادق من بعض الوجوه فقط لأن ابن خلدون لا يعالج هذه المسائل مستقلة أو لذاتها ، وإنما يعالجها كصور فقط من هذا العمران الذي هو موضوع بحثه ودرسه . ومراحل الحضارة مقياس لمراحل العمران .

ولم يلق هذا الوصف الذي أسبغه فون كريمر على ابن خلدون تأييداً كبيراً من النقدة . ويقول الأستاذ شميت وهو من أحدث من درس ابن خلدون ونقده ، في التعليق على هذا الرأي ما يأتي :

« إذا وجب مع بعض التحفظ أن نعتبر ابن خلدون مؤرخاً للحضارة ، فيحسن أن نتدبر ما إذا لم يكن قصد ابن خلدون الحقيقي سواء في هذا القسم من مؤلفه أو في تاريخه السياسي ، هو أن يقدم لنا أمثلة إيضاحية ومجموعة تبين لنا ما يعتبره موضوع التاريخ وجوهره ، لا أن يقدم لنا تطبيقاً كاملاً للقواعد التي قررها . ذلك أنه في الفصول الأولى من مقدمته يعالج المسائل التي يختلج بها ذهنه ، بمنتهى الإفاضة ، كأصول النقد التاريخي والقواعد الأساسية التي يجب أن يستند إليها البحث التاريخي ؛ ويعالج بالأخص فكرته في فهم التاريخ ومدادها وعواملها ونتائجها المنظمة أو قوانينها . ولقد كانت هذه الفكرة العظيمة المستنيرة في فهم التاريخ بأنه سجلٌ

لتطور الإنسان الاجتماعى ، مترتباً على العوامل الطبيعية وناشئاً عن تأثير الوسط وتفاعل الفرد والجماعة ، خليقة بأن تجعل كتابه « مفتتح عهد جديد » لو لم تكن الحضارة التى وصفها صائرة الى الانحلال العاجل ، واللغة التى كتب بها مجهولة من الأمم الفتية التى قدر لها أن تمضى بالمهمة ، بحيث غدا استمرار التقدم العلمى مستحيلاً ، واضطر بناء الحضارة الجدد أن يشقوا طريقهم ببطء ، دون المعاونة التى كان بوسعهم أن يقدموها ، الى بعض المراتب السامية التى تبوأها هو من قبل « (١) » .

ويعتبر دى بوير (الهولندى) ابن خلدون فيلسوفاً ، ويضعه فى ثبت الفلاسفة المسلمين الى جانب ابن سينا والغزالى وابن رشد وابن طفيل ، وينوه بقيمة المنطق فى صوغ نظرياته ؛ ويصفه بأنه مفكر متزن ؛ فهو ينكر ثمرة الكيمياء والعرافة بحق ، وكثيراً ما يعارض مبادئ الفلسفة العقلية ، بمبادئ الإسلام البسيطة سواء عن اعتقاد شخصى أو لاعتبار سياسى . بيد أن الدين لم يؤثر فى آرائه العلمية بقدر ما أثرت الأرسطوطالية الأفلاطونية . وقد أثرت فى تكوين ذهنيته جمهورية أفلاطون وفلسفة فيثاغورس الأفلاطونية ؛ وكذلك المؤلفات التاريخية لأسلافه المشاركة ولا سيما المسعودى ، أما تأثير . وقد حاول ابن خلدون أن يؤسس نظاماً فلسفياً جديداً لم يحل بذهن أرسطو ، وأن يجعل من التاريخ نظاماً فلسفياً ؛ وهو يقول لنا إن هذا النظام إنما هو الحياة الاجتماعية ، ومادة المجتمع

كلها وثقافته الفكرية . ومهمة التاريخ هي أن يبين كيف يعمل الناس وكيف يحصلون أوقاتهم ، ولماذا يقاتلون بعضهم بعضاً ، وكيف يجتمعون في جماعات كبيرة في ظل بعض الزعماء ، وكيف يلهمون أخيراً في ظل حياة الحضرة ، رغبة العناية بالفنون والعلوم الرفيعة ، وكيف تتقدم الحضارة من البداية الحشنة الى الترف الناعم وتزدهر ، ثم تضمحل وتموت . ثم يقول دى بوير إن ابن خلدون هو بلا ريب أول من حاول أن يشرح بإفاضة تطور المجتمع وتقدمه لأسباب وعلل معينة ، وأن يعرض ظروف الجنس والإقليم ووسائل الإنتاج وما إليها ، وأثرها في تكوين ذهن الإنسان وعاطفته وفي تكوين المجتمع . وهو يرى في سير الحضارة تناسقاً داخلياً منظماً . ويختتم دى بوير حديثه عن ابن خلدون بما يأتي : « لقد سار أمل ابن خلدون في أن يخلفه من يتم بحثه في سبيل التحقيق ، ولكن في غير الإسلام ؛ فكما أنه كان دون سلف فكذلك بقي دون خلف » (١) .

— ٢ —

بيد أن النقد الغربي كان أكثر اهتماماً بفلسفة ابن خلدون الاجتماعية . وقد لقي ابن خلدون من هذه الناحية ذروة الإعجاب والتقدير ، وعنى كثير من علماء الاجتماع المعاصرين بتحليل نظرياته الاجتماعية ومقارنتها بنظريات أقطاب الاجتماع المحدثين . ومن هؤلاء النقدة العلامة الاجتماعية لدشيج جمبلووتش ؛ فهو

T.J. de Boer : Geschichte der Philosophie im Islam (1901). (١)

يخصص لابن خلدون في مباحثه الاجتماعية فصلاً كبيراً ، ويصفه بأنه اجتماعي أو من علماء الاجتماع ، ويتناول طائفة من آرائه الاجتماعية بالتحليل والمقارنة ، ويبين أنه قد سبق في كثير من هذه الآراء أقطاب الاجتماع المحدثين . فهو مثلاً قد اهتدى الى نظرية الأجيال الثلاثة الخاصة بنهوض الأسر وانحلالها قبل أن يعرضها أوتو كارل لورنتس في أواخر القرن التاسع عشر . ويقول جملووتش إن ابن خلدون يرتفع الى ذروة البحث الاجتماعي حينما يعرض ملاحظاته عن تفاعل الجماعات الاجتماعية ، وكيف أن هذه الجماعات نفسها إنما هي ثمرة الوسط . وآراؤه في هذا المقام عن الأجناس الغالبة في منتهى الأهمية . وفي أقواله عن الوسط ومؤثراته ما يدل على أنه عرف « قانون التشبه بالوسط » قبل أن يعرفه داروين^(١) بخمسة قرون ؛ وفيما يقوله عن تشبيه الإنسان بالحيوان في الخضوع للقوانين الاجتماعية العامة ، ما يدل على أنه عرف مبدأ « وحدة المادة » قبل أن يعرفه هيكل^(٢) . ومن المدهش أن نرى كم تتفق الاجراءات التي ينصح ابن خلدون باتخاذها للفاتحين الظافرين لكي يؤيدوا سلطانهم ، مع النظم الحربية التي أثبت البحث التاريخي الحديث أن مؤسسي الدول الأوروبية في العصور

(١) داروين Darwin علامة طبيعي انجليزى اشتهر بمباحثه عن أصول الانسان والأنواع ، ومؤثرات الوسط (١٨٠٩ - ١٨٨٢) .

(٢) إرنست هيكل علامة بيولوجى وطبيعى ألماني اشتهر مثل داروين بمباحثه عن أصول الأنواع وله فيها نظريات جديدة

(١٨٣٤ - ١٩١٩) .

الوسطى قد اتخذوها ، بل إن فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعى العربى (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التى أسداها مكيا فيللى بعد ذلك بقرن الى الحكام فى كتابه « الأمير » . وحتى فى هذه الطريقة الخافة لبحث المسائل وفى صبغتها الواقعية الخشنة ، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجاً للإيطالى البارع الذى لم يعرفه بلاريب . هذا وقد استطاع ابن خلدون أن يقرر منذ خمسة قرون أصل السلطتين الروحية والزمنية ، كما يقررهما أساتذة القانون السياسى والقانون الكنسى .

وأخيراً يقول جمبلوئتش : « لقد أردنا أن ندلل على أنه قبل أوجست كونت ، بل قبل فيكو الذى أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعى أوربى ، جاء مسلم تقي فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، وأتى فى هذا الموضوع بأراء عميقة ، وما كتبه هو ما نسميه اليوم : علم الاجتماع »^(١) .

وفى نفس الوقت الذى أدلى فيه جمبلوئتش بهذه الآراء تناول تفكير ابن خلدون باحث اجتماعى ايطالى هو فريرو ، فأيد وصف جمبلوئتش لابن خلدون بأنه « اجتماعى » ونوه بطرافة ابن خلدون وسبقه فى هذا الميدان^(٢) . ويوافقهما فى ذلك الكاتب الاجتماعى الروسى ليفين فيعتبر ابن خلدون فيلسوفاً « اجتماعياً » .

ودرس مسيو مونييه استاذنا السابق بكلية الحقوق ، ابن خلدون

L. Gumplovicz : Un Sociologiste arabe au XIV siècle (dans (١)
Aperçus Sociologiques) pp. 201-226.

A. Ferreiro : Un Sociologo arabo del secolo XIV (٢)
(La Riforma Sociale) 1897.

من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية في بحثين قوين ، يتناول في أولها آراء ابن خلدون الاقتصادية^(١) وفي الثاني آراءه الاجتماعية ، ويعتبره فيلسوفاً واقتصادياً واجتماعياً معاً . ويصف مقدمته وتفكيره بما يأتي : « انها مزيج عظيم من القوانين الكونية ، وموسوعة لعلوم العصر ؛ وتحتوى على أجزاء متفرقة لبحث كامل في علم الاجتماع . وطريقتها بالأخص بديعة ، تدلل على ذهن علمى حق . وإذا كانت آراء ابن خلدون لا تعبر عن مثل وضعى أعلى ، فهى مع ذلك تقوم على الملاحظة التحليلية للحوادث ، وهى مرآة الواقع . وليست فلسفته سوى شرح وتعليل لتاريخه ، وشروحه تشهد بذهنية وضعية كان فيلسوفنا يسبق بها عصره » . ثم يحلل مسيو مونييه نظريات ابن خلدون الاجتماعية ويقسمها الى قسمين هما : القوانين العامة للحياة الاجتماعية ، وقوانين التطور الاجتماعية ؛ ويصفها بقوله : « وإذا فإن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية يغشاها على ما يظهر استنتاج بالغ التشاؤم . فالجتمتع ليس إلا لحظة في مجرى الأشياء الكونية ، وهو يفنى كما يفنى كل شىء . والحياة كالرؤى وكل تغير يقتضى عكسه ، وكل ارتفاع يعقبه سقوط ... ولكن تشاؤم ابن خلدون تشاؤم مستسلم غير مكترث ؛ فهو لا يحكم وإنما يشاهد . وهو بذلك يدل على ذهنية علمية حقة ، وبذا يجب أن يفسح له مكان في تاريخ الاجتماع الوضعى »^(٢) .

René Maunier : Les idées économiques d'un philosophe (١)

arabe (Revue d'histoire économique et sociale, 1912).

Maunier : Les idées sociologiques d'un philosophe arabe (٢)

au XIV siècle (l'Egypte contemporaine 1917, p. 31).

وينوه معظم نقدة ابن خلدون بهذا التشاؤم الذى يطبع فلسفته . ويقول لنا فون كريمر إن ابن خلدون يذهب فى تشاؤمه الى حدود بعيدة ، ويقارنه فى ذلك بأبى العلاء المعرى . ويعتقد أن مصدر هذه العاطفة هو انحطاط الدول والحضارة الإسلامية فى العصر الذى كتب فيه ابن خلدون . ولكن فريرو يرجعها الى ظروف الحياة السياسية العاصفة التى تقلب فيها ابن خلدون ، وما بثت الى نفسه من مرارة وخيبة أمل . على أن كثيراً من الناحية الواقعية لفلسفة ابن خلدون يرجع الى هذه العاطفة ؛ ولم يكن تشاؤمه نزعة شخصية كامنة فى أخلاقه ؛ ولكنه صفة لتفكيره فقط ، ونتيجة للبحث والدرس . أما ابن خلدون نفسه ، فكان كما تدل حوادث حياته أكثر ميلا الى الثقة والابتهاج والتفاؤل .

ويدرس الكاتب الألمانى فون فيسندنك نظريات ابن خلدون فى نشوء الدول وانحلالها ، ويرى فيه ذهنًا وافر الابتكار ، ومثلاً أعلى فى التفكير العربى ، وآخر نجم سطع فى أفق التفكير الإسلامى الحر . ويعتبره مثل فون كريمر مؤرخاً للحضارة Kulturhistoriker ؛ ويرى فيه بحق إماماً لمدرسة مكيا فيلى وفيكو ؛ ويحاول أن يطبق نظرياته فى سقوط الدول والأسر على الامبراطورية الألمانية والدول الأوربية فيقول : « وقد يلوح للألمانى فى الوقت الحاضر أن هذه الآراء الفياضة بالتشاؤم ليست من ابتكار مفكر أجنبى ، فإن الامبراطورية الألمانية لم تعمر طويلاً ثم ذوى غصنها غضاً الى عالم الفناء بسرعة خارقة ؛ فهل يجب أن نبعث لتلك المأساة عن أسباب غير تلك التى أوردها الكاتب العربى عن سقوط المرابطين والموحدين ؟

ان نظريات ابن خلدون تقدم الى المتأمل فرصة صادقة ؛ يقف مؤرخ الحضارة المسلم الكبير وحيداً في المشرق ، لم يعقبه خلف ولم ينسج على منواله ناسج ؛ ويطبق ما كان يشعر به أو يدعو إليه على أوروبا في القرن التاسع عشر أصبح تطبيق وأتمه . وتدوى ميول المفكر والسياسي الإفريقي في معترك الحوادث مهما كانت وجهتها ، دويماً يتردد صدهاء في عالم أفكار عصرنا ^(١) .

— ٣ —

درس الأستاذ استفانو كلوزيو ابن خلدون من ناحية أخرى هي الناحية الاقتصادية . ويرى كلوزيو بادية بدء « ان ابن خلدون من حيث الجنس الذي انحدر منه ، والبلد الذي ولد فيه ، والحضارة التي ينتمى إليها ؛ يمكن أن يوضع في صف عظماء الرجال الذي يتبوأون في التاريخ أسمى مكانة » . وقد اكتشف ابن خلدون آفاقاً جديدة في ميدان العلوم الاجتماعية . ولكنه لا يجارى مكيافيللي كمؤرخ ، لأنه لم يعرف أو لم يرد أن يطبق المبادئ التي عرضها في مقدمته لشرح أسباب الحوادث التي يقصها في تاريخه . ومع ذلك فقد سبق مكيافيللي ومونتسكيو وثيركو ، الى وضع أصول علم جديد هو الدرس النقدي للتاريخ . وتلك حقيقة نوه بها أماري المستشرق والمؤرخ الإيطالي الكبير قبل كلوزيو ، فوصف ابن خلدون بأنه أول كاتب في العالم عالج موضوع « فلسفة التاريخ » . ثم يحلل

Von Wesendonk : Ibn Khaldun, Ein arabischer (١)
Kulturhistoriker des XIV Jahrhunderts (Deutsche Rundschau,
Januar 1923) .

كلوزيو نظرية ابن خلدون في « الخبر الاجتماعي » ويرى أنها موجودة في تلك العبارة التي يستهل بها ابن خلدون حديثه عن أجيال البدو والحضر وهي : « ان اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهن من المعاش »^(١).

على أن كلوزيو ينوه بالأخص بنظريات ابن خلدون الاقتصادية ، فيقول لنا « ان المؤرخ البربرى العظيم استطاع في العصور الوسطى أن يكتشف مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسي قبل كونسيديران وماركس وباكونين »^(٢) ثم يحلل آراء ابن خلدون عن عمل الدولة من الناحية الاقتصادية وآثاره السيئة ، وعن القوى السياسية والطوائف الاجتماعية ، وعن طرق الملك وأنواع الملكية ، وعن مهمة العمل الاجتماعية ، وتقسيم العمل الى حر ومأجور ، وكون العمل الحر مصدراً للرزق (المعاش) ثم عن قانون العرض والطلب . ويرى كلوزيو في ذلك كله أن ابن خلدون كان اقتصادياً مبتكراً يعرف مبادئ الاقتصاد السياسي ويطبقها بذكاء وبراعة قبل أن يعرفها البحث الغربى بعصور طويلة . ويختتم بحثه بما يأتي : « إذا كانت نظريات ابن خلدون عن حياة المجتمع المعقدة تضعه في مقدمة فلاسفة التاريخ ، فان فهمه للدور

(١) المقدمة ، ص ١٠١ .

(٢) كونسيديران اشتراكي فرنسي له عدة مؤلفات في الاشتراكية (١٨٠٨ - ١٨٩٣) . وكارل ماركس اقتصادي واشتراكي الماني كبير ومؤسس الاشتراكية المتطرفة ، ومؤلف أعظم كتاب في الاشتراكية « رأس المال » ، (١٨١٨ - ١٨٨٣) . وباكونين اجتماعي واقتصادي روسي ومؤسس مبدأ اللاحكومية (١٨١٤ - ١٨٧٦) .

الذى يؤديه العمل والملكية والأجور يضعه فى مقدمة علماء الاقتصاد المحدثين» (١).

— ٤ —

ومن أحدث البحوث النقدية فى دراسة ابن خلدون رسالة للأستاذ ناتانيل شميت الأستاذ بجامعة كورنل بأمریکا ؛ درس فيها ابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف واجتماعى (٢). ويرى الأستاذ شميت أن ابن خلدون كمؤرخ يمكن أن يوضع فى صف مؤرخين عالميين مثل ديودور الصقلی ، ونقولاوس الدمشقى أو تروجوس بومبيوس ممن كتبوا فى القرن الأول الميلادى ، أو مؤلفين من كتاب القرن الثامن عشر مثل جاتير وشليتر. هذا مع كونه يتفوق عليهم سواء فى الانتفاع بالمصادر القديمة أو فى الرواية الأصلية ؛ ولو أن ابن خلدون لم يخلف لنا سوى تاريخه السياسى ، لكان أثراً يبنىء عن همة لا تنفد ، وغزارة فى المصادر ، وحكم سديد ، ولكان بالنسبة لبعض العصور مصدراً نفيساً للرجوع ؛ بل لكان فى عدوله عن طريقة الحوليات ما يرفعه بكثير عن مستوى رجال مثل البخارى والمسعودى والطبرى وابن الأثير . على أن حق ابن خلدون فى الشهرة

S. Colosio : Contribution à l'étude d'Ibn Khaldoun (Revue (١) du Monde musulman : XXVI - 1914).

وقد وضع الدكتور محمد على نشأت رسالة قيمة فى نظريات ابن خلدون الاقتصادية عنوانها «رائد الاقتصاد ابن خلدون» (القاهرة سنة ١٩٤٤).

N. Schmidt : Ibn Khaldun ; Historian, Sociologist and (٢) Philosopher.

الحالدة لا يرجع الى تاريخه بل يرجع الى ذلك الأثر المدهش الذى كتبه مقدمة لتاريخه ؛ فهنا تبدو عبقريته فى روعة بهاها ، وهنا ينثر بيدين نديتين ثمرات تأملاته الناضجة عن سير التاريخ البشرى .

وأما من حيث فلسفة التاريخ فيرى الأستاذ شमित أن ابن خلدون هو الذى اكتشف ميدان التاريخ الحقيقى وطبيعته ؛ وهو بلا ريب صادق حين يقول إن أحداً من المفكرين المسلمين قبله لم يطرق موضوعه ، وإذا كانت معرفتنا بعلوم القدماء أعظم وأغزر ، فإننا مع ذلك نستطيع اليوم أن نقول إن ابن خلدون كان بحق أول كاتب استطاع أن يعرف موضوع التاريخ بهذه الصورة ، وأن ينظر الى التاريخ كعلم خاص يبحث فى الحقائق التى تقع فى دائرته .

بل لم يقل أحد غير ابن خلدون إن التاريخ علم خاص موضوعه بحث جميع الظواهر الاجتماعية فى حياة الإنسان . فإذا كان مجرد بنا أن نتوسع فى فهم التاريخ الى هذا الحد ، وإذا كان التاريخ علماً ، فإن التونسي العظيم الذى ابتكر هذا رأى ودافع عنه ليس له سلف فيما يظهر ، ومن حقه أن يعتبر أنه المكتشف . وهنا بلا ريب أروع ابتكاراته وأكثرها طرافة ، وإن كان ذهنه النافذ قد شق طرقاً جديدة فى نواح كثيرة . وقد لاحظ ابن خلدون فى دراسة الدول وقيامها وسقوطها أن أسباب هذه التطورات لا ترجع فقط الى البواعث والأطماع ، والى الأغراض والغايات ، والى قوة الإرادة ، وقوة الذهن لدى الأفراد ؛ ولاحظ أن تأثير هذه العوامل لا تخضع فقط لخواص الجماعات التى تنتمى اليها ، ولكنها تخضع أيضاً للظروف الاجتماعية العامة . وقد حمله ذلك على أن يبحث

العوامل التي تؤثر في هذه الظروف الاجتماعية وتكيفها ، وانتهى الى أنها ترجع الى خواص قومية وجنسية . ولكنه لاحظ أيضاً أن هذه الخواص نفسها ترجع الى مؤثرات الوسط الطبيعية كالإقليم ، والماء ، والأرض ، والموقع ، والغذاء . وإذا فمن الضروري لكي نفهم التطور السياسي ، أن ندرس كل مظاهر الحياة الاجتماعية ؛ ولكي نفهم هذه يجب أن نحسب حساباً للعوامل الطبيعية ، ومن ثم كان اتساع نطاق التاريخ ، واتساع مهمة المؤرخ ، إذ يغدو التاريخ علم المجتمع الإنساني ، وإذا فهو علم الاجتماع . ثم يقول الأستاذ شमित إن ابن خلدون رغم طابعه الإسلامي إنما هو فيلسوف مثل أوجست كونت ، وتوماس بـكـل وهربرت سبنسر . وفلسفته التاريخية ليست كفلسفة هـجـل^(١) تحليلاً للقضاء والقدر . وإذا كان يذكر خلال بحثه كثيراً من آيات القرآن ، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ، ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن .

وأما عن الناحية الاجتماعية ، فإن الأستاذ شमित يرى مع معظم النقدة أن ابن خلدون هو مؤسس علم الاجتماع ، ويرى بالأخص مع جـبـلـوـقـش أن الاجتماع وجد قبل أوجست كونت

(١) توماس بـكـل كاتب ومؤرخ اجتماعي انجليزي ، وله مؤلف شهير في تاريخ الحضارة الانجليزية (١٨٢١ — ١٨٦٢) وسبنسر فيلسوف انكليزي ومؤسس فلسفة التطور (١٨٢٠ — ١٩٠٣) . وهـجـل فيلسوف الماني كبير ، درس فلسفة الدين والروحيات والإلهيات (١٨٣١ — ١٧٧٠) .

بعصور طويلة ، وأن ابن خلدون ذهب في تفكيره الى حدود لم يذهب اليها كونت ، وأنه فيما عالج من خواص العادة والإقليم ، والأرض ، والغذاء ، قد سبق مونتيكيو وبكل وسبسر وغيرهم .
وينقل الأستاذ شमित الينا هذه الكلمة عن العلامة الإسباني ألتاميرا : « كفى أنه في القرن الرابع عشر ، حينما كانت دراسة التاريخ الأوربية في منتهى النقص ومنتهى البعد عن آراء كالتى يعرضها ابن خلدون ويدافع عنها ، قد كُتِبَ كتاب كالمقدمة ، درست فيه وعرضت كل المسائل ، التى غدت فيما بعد ، أهم مهام المؤرخين المحدثين » (١) .

ويقول ألتاميرا أيضاً في كتابه « تاريخ اسبانيا والحضارة الاسبانية » عند ذكر ابن خلدون وتاريخه : « وقد اشتمل تاريخه على مقدمة هى فى الحقيقة مؤلف فى الاجتماع والفلسفة التاريخية لم يفقه حتى أيامنا فى الأهمية أى مؤلف آخر » (٢) .

• • •

ونكتفى بما قدمنا من آراء النقد الغربى فى تراث ابن خلدون وتفكيره ؛ ومما تقدم نرى أن النقد الغربى يرتفع بتراث ابن خلدون الى أسمى مكانة من التقدير والإعجاب ، ويضع تفكيره بين أرفع وأنفس ثمرات التفكير البشرى .

(١) راجع رسالة الأستاذ شमित المشار إليها ص ١٧ و ١٩ و ٢٢ و ٢٤

٢٦ و ٢٧ و ٢٩ .

R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización (٢)
Española (T.II. p. 358).

الفصل الخامس

ابن خلدون ومكيافيللي

أوجه الشبه بين مكيافيللي وابن خلدون . فلسفة مكيافيللي الاجتماعية كما يعرضها في كتاب «الأمير» . صلة مباحثه بموضوع السياسة الملكية الذي عالجه العرب . الناحية العملية الجافة في فلسفته . نماذج من آرائه في خلال الأمير الأمثل . عنصر القسوة والنف في الفلسفة المكيافيلية . التقاء ابن خلدون ومكيافيللي في مواطن كثيرة . ابن خلدون أستاذ المدرسة المكيافيلية . هل تأثر مكيافيللي بتفكير ابن خلدون أو غيره من المفكرين المسلمين . هل يكون الحسن بن الوزان صلة هذا التأثير . بعد هذا الغرض . الفكران كلاهما مبتدع مبتكر .

- ١ -

بعد وفاة ابن خلدون بأكثر من قرن؛ وضع نيكولو مكيافيللي المؤرخ والسياسي الإيطالي^(١) كتاباً يتبوأ في التفكير الغربي مكانة كتلك التي تتبوأها مقدمة ابن خلدون في التفكير الإسلامي . ذلك

(١) نيكولو مكيافيللي (Nicolo Machiavelli) كاتب ومؤرخ وسياسي إيطالي كبير . ولد سنة ١٤٦٩ بمدينة فيرنتزا (فلورنس) وتوفي بها سنة ١٥٢٧ ، واشتغل حيناً سكرتيراً للسياسة الخارجية في حكومة فيرنتزا وكلف بعدة مهام سياسية في إيطاليا وفرنسا وألمانيا . ولما عاد آل مديتشي لحكم فيرنتزا سنة ١٥١٢ ، قبض عليه بتهمة التآمر وعذب ثم أفرج عنه بوساطة البابا ليون العاشر . وعندئذ اعتزل الحياة العامة وكتب عدة مؤلفات شهيرة منها كتابه «الأمير» وناريخ فيرنتزا ومقالات عن ليثي المؤرخ الروماني ؛ وعدة رسائل سياسية وقطع مسرحية .

هو كتاب « الأمير » (Il principe) ، وهو كأثر ابن خلدون قطعة بديعة من التفكير السياسى والاجتماعى ، تمتاز بكثير من القوة والطرافة والابتكار الفائق . وإذا لم يك بين الأثرين كثير من أوجه الشبه المادى ، فان بينهما كثيراً من أوجه الشبه المعنوى ، وبين الذهنيين بالأخص مشابهة قوية من حيث الظروف والبيئة التى تكون كل فيها ، ومن حيث فهمه للتاريخ والظواهر الاجتماعية ، ومن حيث قوة العرض والاستدلال بشواهد التاريخ .

ونستطيع أن نرجع كثيراً من أسباب هذه المشابهة بين المفكرين العظمين الى تماثل عجيب فى العصر والظروف السياسية والاجتماعية التى عاش كل منهما فيها . فقد كانت الإمارات والجمهوريات الإيطالية التى عاش مكيايلى فى ظلها تعرض فى إيطاليا نفس الصور والأوضاع السياسية التى تعرضها الممالك المغربية أيام ابن خلدون ، من حيث اضطراب المنافسات والخصومات فيما بينها ، وطموح كل منها الى افتتاح الأخرى ، وتقلب إماراتها ورياساتها بين عصابة من الزعماء والمتغلبين . وقد اتصل مكيايلى بهذه الدول ، وقضى عسراً فى خدمة احداها وهى وطنه فيرنيزا (فلورنس) وانتدب لمهام سياسية مختلفة ؛ واستطاع أن يدرس عن كثب كثيراً من الحوادث والتطورات السياسية التى تعاقبت فى عصره ، وأن يجعل من هذا الدرس مادة لتأملاته عن الدولة والأمير ، كما جعل ابن خلدون من الحوادث التى عاصرها واشترك فيها مادة لدرسه وتأملاته .

على أن المفكر المسلم أغزر مادة وأوسع آفاقاً من المفكر

الإيطالى . ذلك أن ابن خلدون يتخذ من المجتمع كله وما يعرض فيه من الظواهر مادة لدرسه ، ويحاول أن يفهم هذه الظواهر وأن يعللها على ضوء التاريخ ، وأن يرتب على سيرها وتفاعلها قوانين اجتماعية عامة . ولكن مكيا فيلى يدرس الدولة فقط ، أو يدرس أنواعاً معينة من الدول هى التى يعرضها التاريخ اليونانى والرومانى القديم ، وتاريخ ايطاليا فى عصره ؛ ويدرس شخصية الأمير أو المتغلب الذى يحكم الدولة ، وما يلحق بها من الخلال الحسنة أو السيئة ، وما يعرض لها من وسائل الحكم . وهذه الدراسة المحدودة المدى تكون جزءاً صغيراً فقط من دراسة ابن خلدون الشاسعة ، هو الفصل الثالث من الكتاب الأول من المقدمة ، وهو الذى يدرس فيه أحوال الدول العامة والملك والمراتب السلطانية . وحتى فى هذا المدى المحدود يتفوق ابن خلدون على مكيا فيلى تفوقاً عظيماً ؛ ويبتدع هنا نظرية العصبية ، ونظرية أعمار الدول ، ويتناول خواص الدولة من الناحية الاجتماعية ؛ وإن كان مكيا فيلى من جهة أخرى يتفوق على ابن خلدون فى سلاسة المنطق ، ودقة العرض والتدليل ، ورواء الأسلوب .

كتب مكيا فيلى كتابه « الأمير » سنة ١٥١٣ وأهداه الى لورنزودى مدينتشى (الثانى) أمير فيرنزا ، وهو يشير الى غرضه من وضع كتابه فى قوله للأمير فى خطاب الإهداء : « ومع أنى أعتبر هذا المؤلف غير خليق بمطالعة محياك ، فانى أعتمد جل الاعتماد على عطفك ورقتك فى قبوله ، فلست أستطيع فى إهدائك خيراً من أن أقدم اليك فرصة لتفهم فى أقصر الأوقات كل ما عرفته

خلال أعوام طويلة ، وفي غمار من المتاعب والأخطار « وفي قوله :
 « فتناول ياذا الفخامة هذه الهدية الصغيرة بنفس الروح الذي
 أرسلها به ؛ وإنك إذا قرأته بامعان وتأمل ، فسوف تعرف خالص
 رغبتى فى أن تظفر بهذه العظمة التى يمنى بها حسن الطالع وتمنى
 بها خلاك » (١) . وإذن فقد أراد مكيا فيللى أن يقدم بكتابه « الأمير »
 مرشداً لأمرء عصره يرشدهم الى أمثل طرق الحكم ، وأمثلة الوسائل
 السيادة الشعوب التى يحكمونها . ومكيا فيللى يستمد آراءه ونظرياته
 من حوادث التاريخ القديم ، وبالأخص من حوادث عصره التى
 شهداها وخبرها ، ويرتب عليها أحكاماً وقواعد عامة كما يرتب
 ابن خلدون مثل هذه الأحكام والقواعد على دراسته للمجتمع ؛
 ويبسط مكيا فيللى دراسته فى بحوث موجزة ، ويبدأ بالحديث عن
 أنواع الإمارات ، ووسائل اكتسابها ، وعن الوسائل التى تحكم بها
 المدن أو الإمارات التى كانت تعيش فى ظل قوانينها قبل أن تغلب ،
 وعن الإمارات التى تقوم بالفتح وكفايات الأمير الشخصية ،
 وعن تلك التى تغنم على يد آخرين أو بطريق الحفظ ، أو تلك التى
 تغنم بالغدر والخيانة ، وعن الإمارات المدنية والدينية ، وعن أنواع
 الحىوش والجنود المرتزقة ، وما يجب أن يعرفه الأمير عن فن الحرب .
 ثم يتناول بعد ذلك شخصية الأمير ، وما يحمد فيه من الخلال
 وما يذم ، وعن الكرم والشج ، والرفقة والقسوة ، وعن الطريقة
 التى يجب أن يحفظ بها الأمرء وعودهم ، وعما يجب عليهم لتجنب
 (١) كتاب الأمير The Prince الترجمة الانجليزية طبعة إفريقيا

بغض الشعب واحتقاره ، وما يجب عليهم لاكتساب الشهرة والمجد ، وأخيراً يتحدث عن حُجَاب الأمير (أمنائه) وعن وجوب تجنب الملق ؛ وعن الأسباب التي فقد بها أمراء إيطاليا دولهم ، وعما يمكن أن يؤديه حسن الطالع في سير الشؤون البشرية ، ثم يختتم بالحث على تحرير إيطاليا من نير الأجانب أو غزوات البرابرة كما يسميهم .

تلك هي المباحث التي جعلها مكيافيللي قوام فلسفته عن الدولة والأمير . ويبدو بالأخص مما كتبه عن « الأمير » أنه يعالج موضوعاً عالجه المفكرون المسلمون قبل ابن خلدون بعصور طويلة ، هو موضوع « السياسة الملكية » وهو موضوع ينتظم منذ القرن الثالث الهجري في التفكير الإسلامي الى بحث أو علم خاص ، هو علم السياسة على نحو ما بينا في فصل سابق . وقد رأينا مما تقدم أن « السياسة » كانت تفهم عند العرب في العصور الأولى بمعنى ضيق جداً هو شرح الحلال الحسنة التي يجب أن يتصف بها الأمير ، والعيوب التي يجب أن يبرأ منها لكي يصلح لرئاسة الدولة وتبوء الملك ؛ ولكي يستطيع الحكم بأهلية وكفاية . ثم توسع المفكرون المسلمون في فهم معنى « السياسة » وقسموها الى عدة أنواع ، وتناولوا « السياسة الملكية » من الناحية الفقهية وكذا من الناحية الإدارية ، وبحثوا مركز الأمير من الناحية الشرعية ، وتحدثوا عن الخطط السلطانية . وظاهر أن ما يتناوله المفكر الإيطالي من خواص الأمير وخلالله وواجباته ، هو ضرب مما تناوله المفكرون المسلمون منذ أواخر القرن الثالث الهجري . من ذلك ما كتبه ابن قتيبة في كتاب « عيون الأخبار » والماوردي في كتاب « الأحكام السلطانية »

والطرطوشى فى كتاب «سراج الملوك» والغزالى فى كتاب «التبر المسبوك» ثم ابن الطقطقى فى كتاب «الآداب السلطانية». وهو موضوع تناوله ابن خلدون فيما تناول من أحوال الدول العامة والملك ، إذ يتحدث هنا عن حقيقة الملك وأصنافه ، وعن معنى الخلافة والإمامة وعن مختلف المذاهب والآراء فى حكم الإمامة ، ثم عن الخطط السلطانية^(١) ، وحديثه فى ذلك يمتاز عن حديث أسلافه بما يتخلل بحته وتدليله من الملاحظات والتأملات الاجتماعية التى لم يوفق إليها باحث قبله .

على أن مكيا فيلى يمتاز فى بحثه بروح عملية جافة . وبينما يتحدث المفكرون المسلمون عن الأمير أو الحاكم كما يجب أن يكون ، وعن خلاله المثلّى كما يجب أن تكون ، إذا بالمفكر الإيطالى ينظر الى الأمير الأمثل نظرة عملية محضة . فيصفه كما هو فى الواقع ، ويتصور خلاله المثلّى فيما هو حادث بالفعل ، ويرتب تدليله ونتائجه على ما أحرز الأمير وأحرزت خلاله من النجاح أو الفشل دون تأثر بما إذا كانت هذه الصور والحلال تتفق مع مبادئ الأخلاق المثلّى كما فهمت خلال العصور . ومن هنا تستمد فلسفة مكيا فيلى لونها القاتم ، وتوصم آراؤه ونظرياته السياسية بتلك الصرامة والقسوة والخبث التى جعلتها حتى عصرنا مضرب الأمثال للسياسة الغادرة التى لا ضمير لها ولا وازع ، والتى جردت من كل نزاهة وعفة ، وتغاضت عن كل المثل الإنسانية والأخلاقية . وإلى القارىء

(١) راجع المقدمة ، ص ١٥٦ و ١٥٨ إلى نهاية الباب .

بعض نماذج من تلك الآراء التي طبعت فلسفة مكيا فيللى ، وأميره
الأمثل ، بذلك الطابع الأسود :

١ — « ليس على الأمير أن يجزع لما يناله من لوم على تلك
الردائل التي لا يمكن دونها إنقاذ الدولة إلا بصعوبة ، ذلك انه إذا
بحث كل شيء بعناية ، ألفينا أن شيئاً يبدو كالفضيلة ، إذا اتبع ،
فانه يؤدى الى خرابه (أى الأمير) وألفينا شيئاً آخر يبدو كالرذيلة ،
إذا اتبع فانه مع ذلك يؤدى الى سلامه ورخائه » .

٢ — « ليس أكثر تبسديداً للمال من الجود والبذخ ،
إذ سرعان ما تعجز عن المضى فيهما ، وتغدو إما فقيراً أو محتقراً ،
أو تغدو إذا أردت أن تجتنب الفقر ، جشعاً مكروها . ويجب
على الأمير أن يحرص قبل كل شيء على ألا يكون محتقراً أو مكروها .
وإذا فخير أن يشتهر الأمير بالضعفة التي تثير اللوم دون بغض ،
من أن يرغم الإنسان من طريق البحث عن الشهرة بالجود ، على
أن يوصم بالجشع الذي يثير اللوم والبغض » .

٣ — « كان شيزارى بورچيا يعتبر قاسياً ؛ ومع ذلك فان
قسوته أرضت رومانيا (من الولايات البابوية) ووحدتها وردت
إليها السلام والولاء . ولو تأملت ذلك حق التأمل ، لرأيت أنه كان
أكثر رحمة من الشعب الفيرنتسى الذي أراد أن يتجنب الشهرة
بالقسوة ، فترك « بستويا » حتى خربت ؛ وإذا فها دام الأمير
قادراً على الاحتفاظ لشعبه بالوحدة والولاء ، فليس عليه أن يهتم
بوصمة القسوة ، لأنه بذلك يكون أكثر رحمة من أولئك الذين
يفرطون في استعمال الرحمة ، فتثور القلاقل ، ويعقبها القتل والنهب » .

٤ — « وهنا يبدو سؤال : هل خير أن يُحب الإنسان من أن يُرهب أو يرهب من أن يحب ؟ ويمكن أن نجيب بأنه من المرغوب أن يكون الإنسان محبوباً مرهوباً ، ولكن ما دام اجتماعهما في شخص واحد غير ممكن ، فانه لخير وأكثر سلامة أن يُرهب الإنسان من أن يحب ، إذا وجب أن يتصف باحدى الصفتين » .

٥ — « لا يستطيع الأمير العاقل ، وليس عليه أن يحفظ العهد ، إذا كان مثل هذا الوفاء قد ينقلب ضده ، وإذا لم يبق للأسباب التي حملته على قطعه وجود » .

٦ — « وإذا فليس من الضروري أن يتصف الأمير بالخلال الحسنة التي ذكرتها ، ولكن من الضروري أن يبدو كأنه يتصف بها ... ولا يستطيع الأمير ، ولا سيما الأمير الحديد أن يراعى كل الأمور التي يُقدر الناس من أجلها ؛ لأنه كثيراً ما يرغم لكي يحفظ الدولة على أن يتصرف بغير ما يقضى به الإخلاص والصدقة والإنسانية والدين . وإذا فن الضروري أن يكون عقله متأهباً ليعمل طبقاً لتقلب الريح والخط » .

٧ — وقال مشيراً الى سياسة ملك اسبانيا فرديناند الكاثوليكي ضد المسلمين عقب سقوط غرناطة : « إنه ينتحل الدين دائماً عدراً للقيام بأعمال عظيمة ؛ وقد ثابر بقسوة صالحة على إخراج المسلمين من مملكته وتطهيرها منهم ، وليس ثمة أبدع من هذا العمل وأندر منه » (١) .

(١) راجع الترجمة الانجليزية لكتاب الأمير The Prince — ص ١٢٣ و ١٣٠ و ١٣٣ و ١٣٤ و ١٤٢ و ١٤٣ و ١٤٤ و ١٤٥ و ١٤٦ و ١٤٧ و ١٤٨ (الطبعة المشار إليها) .

نستطيع من هذه النماذج الموجزة أن نفهم روح الفلسفة المكيافيللية في تصوير الدولة والأمير . وهي فلسفة تقوم على الحقائق العملية ، وتحل هذه الحقائق رغم جفائها وروعها المكان الأول في بناء الدولة وفي سياسة الأمير . فالنفاق ، والشح والضعة ، والقسوة والإرهاب ، والغدر والنكث بالعهد ، وإهدار الإخلاص والصدقة والأمانة والدين ، وما إليها مما يتنافى المثل الفاضلة ، وتأباه الأخلاق والإنسانية ، ليس مما تنكره الفلسفة المكيافيللية ، ولا مما يشين السياسة التي تقوم عليها ؛ ومن ثم كان الأمير والسياسي الأمثل في نظر مكيافيللي طغاة لجأوا في تأييد سلطانهم الى أروع الوسائل وأشنعها مثل البابا اسكندر السادس ، وابنه شيزارى بورجيا (دوق فالنتينو)^(١) . ويتناول مكيافيللي طرفاً من حياة شيزارى بورجيا الذي عرفه واتصل به في رسالة خاصة ، ويبدى إعجابه بتلك الخطط والوسائل الدموية التي ابتدعها ودبرها شيزارى للبطش بخصومه من الأمراء والقادة وقتلهم غدراً وغيلة . ومن ثم كان ذلك الطابع الأسود الذي ما يزال يدمغ « السياسة المكيافيللية » الى عصرنا . بيد أنه من الحق أن يقال إن المفكر الإيطالي يبدى في صوغ فلسفته كثيراً من القوة والبراعة وبعد النظر ، وإن هذه النظريات والمبادئ التي قد يحكم عليها من الوجهة النظرية الخالصة ،

(١) البابا اسكندر السادس أو اسكندر بورجيا تولى البابوية من سنة ١٤٩٢ الى وفاته سنة ١٥٠٣ ، وابنه شيزارى طاغية رومانيا وبعض الولايات الايطالية الأخرى ، ولد سنة ١٤٧٦ وتوفى سنة ١٥٠٧ بعد خطوط وحوادث عظيمة . واشتهر بالجرأة والغدر والقسوة الرائعة .

كانت وما زالت على كثر العصور قوام السياسات الضالفة ، وما تزال الى يومنا عنوان السياسة العملية القوية .

— ٢ —

يتناول ابن خلدون كما قدمنا موضوع الدولة والملك بإفاضة ويبحثه من نواح أوسع وأبعد مدى ، ويتفوق على مكيا فيلى تفوقاً عظيماً في معالجته من الناحية الاجتماعية . ويلتقى المفكران العظيمان في مواطن كثيرة . مثال ذلك ما يقوله ابن خلدون في فاتحة مقدمته عن قيمة التاريخ في درس أحوال الأمم ، ثم أقواله عن آثار البطش والسياسة العاسفة في نفوس الشعب ، وعن خلال الأمير وتطرفه أو توسطه فيها ، وعن حماية الدولة وأعطيات الجند ، وعن منافسة الأمير للرعية في التجارة والكسب ، وعن تطلع الأمير الى أموال الناس ، وأثر ذلك في حقد الشعب عليه ، وعن تطرق الخلل الى الدولة وامتداد يد الجند الى أموال الرعية ، وكذا ما يقوله عن كتبة (أمناء) السلطان^(١) ، فهذه كلها نقط أو موضوعات يعالجها مكيا فيلى أو يقترب منها ، سواء في كتابه الأمير أو في كتاب آخر له هو تاريخ فيرنيرا (Istorie Fiorentine) تتخلله تأملات فلسفية واجتماعية كثيرة^(٢) . وقد لا يتفق مكيا فيلى مع ابن خلدون في الرأي

(١) راجع المقدمة ، ص ٧ و ١٥٧ و ١٥٨ و ٢٣٥ و ٢٣٩ و ٢٤٨

٢٠٥ و ١٤١٠ .

(٢) قارن ما كتبه مكيا فيلى في موضوعات مماثلة في كتاب «الأمير» ص ٩٨ و ١٠٨ و ١١٨ و ١٢٦ و ١٣٥ و ١٤٩ و ١٨٣ وغيرها .

أو في منحى التفكير دائماً ، ولكن كثيراً مما يقوله المفكر المسلم يتردد صدها فيما يقوله المفكر الإيطالى . فابن خلدون هو بحق أستاذ هذه الدراسة السياسية الاجتماعية التى تناول مكيا فيلى بعده بنحو قرن بعض نواحيها ، وهو بالأخص صاحب الفضل الأول فى فهم الظواهر الاجتماعية ، وفى فهم التاريخ وحوادثه وتعليلها ، وترتيب القوانين الاجتماعية عليها بهذا الأسلوب العلمى الفائق .

قال العلامة الاجتماعى جمبلوفتش : « ان فضل السبق يرجع بحق الى العلامة الاجتماعى العربى (ابن خلدون) فيما يتعلق بهذه النصائح التى أسداها مكيا فيلى بعد ذلك الى الحكام فى كتابه « الأمير » . وحتى فى هذه الطريقة الخافتة لبحث المسائل ، وفى صبغتها الواقعية الحشنة ، كان من المستطاع أن يكون ابن خلدون نموذجاً للإيطالى البارع الذى لم يعرفه بلا ريب » (١) . وقال استفانو كلوزيو مقارناً ابن خلدون بمكيا فيلى : « إذا كان الفلورنسى العظيم (مكيا فيلى) يعلمنا وسائل حكم الناس فانه يفعل ذلك كسياسى بعيد النظر ؛ ولكن العلامة التونسى (ابن خلدون) استطاع أن ينفذ الى الظواهر الاجتماعية كاقصادى وفيلسوف راسخ ، مما يحمل بحق على أن نرى فى أثره من سمو النظر والبراعة النقدية ما لم يعرفه عصره » (٢) .

وقد نتساءل أخيراً ، هل وقف المفكر الإيطالى على شئ من تراث ابن خلدون وأسترشد به ، أم وقف على شئ من آثار

Gumplowicz : Aperçus sociologiques (p. 217). (١)

Colosio : Introduction à l'étude d'Ibn Khaldoun (ibid). (٢)

المفكرين المسلمين في موضوع السياسة الملكية وانتفع بها ؟ نعتقد مع العلامة جبلوقنش أن مكيا فيللي لم يعرف حين كتابة « الأمير » شيئاً عن ابن خلدون أو عن آثاره ، ولم يعرف من جهة أخرى شيئاً من آثار المفكرين المسلمين في موضوعه . صحيح أن بعض نواحي التفكير الإسلامي كانت معروفة في إيطاليا قبل مكيا فيللي وفي عصره ؛ وكانت ثمة علائق فكرية قديمة بين مسلمي الأندلس وشمال إفريقية ، وبين المجتمعات الفكرية في إيطاليا ، وكانت آثار إسلامية كثيرة قد ترجمت يومئذ إلى اللاتينية . ولكننا لا نلمح في أثر مكيا فيللي شيئاً يدل على أنه عرف ابن خلدون أو أى مفكر مسلم في موضوعه . وإذا كانت ثمة وجوه شبه كثيرة بين المفكرين من حيث فهم التاريخ وتحليله ، واستقراء الحوادث ، وترتيب القوانين الاجتماعية ، فذلك يرجع كما قدمنا إلى تقارب عظيم بين الذهنين ، وإلى تماثل في العصر والظروف التي عاش فيها كل منهما ، وإلى تماثل في الخبرة السياسية التي اكتسبها كل منهما ، بخوض حوادث عصره والاتصال بأمرائه وساسته . وربما يكون مكيا فيللي قد عرف شيئاً عن ابن خلدون ومقدمته في أواخر حياته بعد أن وضع كتابه « الأمير » بنحو عشرة أعوام ، أعني حوالى سنة ١٥٢٣ أو ١٥٢٤ ؛ ففي ذلك الحين كان الكاتب الأندلسي المنتصر ، الحسن بن محمد الوزان المعروف باسم ليون الإفريقي Léo Africanus يقيم في رومة ويتجول في شمال إيطاليا . وهو غرناطى ولد حوالى سنة ١٤٩٥ م ، ونشأ في فاس وتولى لبلاطها بعض المهام السياسية ؛ ثم حج إلى مكة سنة ١٥١٦ ، وعاد بطريق قسطنطينية ؛ وفي أثناء ركوبه البحر

الى المغرب أسرته عصابة من لصوص البحر الصقليين ، فأخذ الى رومة حيث نصره البابا باسم « يوهانس ليو » أو يوحنا الأسد . وفي رومة انقطع للبحث والتأليف ، ووضع قاموساً عربياً لاتينياً ، وألف كتابه الشهير في وصف إفريقيا ، وترجمه بعد ذلك الى الإيطالية . وكان في مدينة بولونيا بشمال ايطاليا على مقربة من فيرنزا سنة ١٥٢٤ حسبما يقرر في خاتمة قاموسه اللاتيني الذي توجد منه نسخة بخطه في مكتبة الإسكوريال^(١) . ومن الممكن بل لعله من المرجح أن يكون ابن الوزان قد التقى بمكيافيللي وعرفه في رومة باعتباره من أعلام التفكير والكتابة يومئذ . وكان مكيافيللي بالفعل في رومة سنة ١٥٢٥ ، قصدها ليرفع كتابه « تاريخ فيرنزا » الى صديقه وحاميه البابا كلنمضوس السابع (جوليانودي مديتشي) . ولو صح هذا اللقاء والتعارف لكان ثمة مجال للقول بأن مكيافيللي قد وقف على شيء من آثار التفكير الإسلامي التي لا بد أن يكون ابن الوزان قد أذاعها وتحدث عنها بين أصدقائه الإيطاليين ؛ ومن المرجح أن يكون ابن خلدون في مقدمة المفكرين المسلمين الذين يشملهم مثل هذا الحديث ، لا سيما وقد كان صيته ما يزال قوياً ذائعاً في إفريقيا والمغرب حيث نشأ ابن الوزان ودرس . على أنه مهما كان من شأن هذه الفروض ، فلنستطيع أن نقول إن مكيافيللي قد انتفع في صوغ فلسفته السياسية والاجتماعية بشيء

(١) راجع معجم المكتبة العربية الاسبانية في الاسكوريال

Casiri: Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis I. (p. 172).

ففيه تنقل هذه الخاتمة .

من آثار التفكير الإسلامى ؛ ولسنا نلمح فى كتابه أثراً لهذا التفكير .
ومكيا فيلى ذهن مبتدع مبتكر بلا ريب ، كما كان ابن خلدون
ذهناً مبتكراً مبتدعاً ، وقد شق كلا المفكرين العظمين طريقه
لنفسه ، وألهم وحى نفسه ؛ وكان كتاب « الأمير » فتحاً عظيماً فى
تفكير عصر « الإحياء » الأوربي (الرينسانص) كما كانت مقدمة
ابن خلدون فتحاً عظيماً فى التفكير الإسلامى .

الملحق الأول

بيان فهرسى عن كتاب العبر

ظهور القطع الأولى من مؤلف ابن خلدون . نشر المقدمة فى باريس
ومصر . إخراج مطبعة بولاق للمؤلف كله . صيغة الاهداء فى النسخة
التداولية ومدلولها . ما ترجم من أثر ابن خلدون الى مختلف اللغات .
ما يوجد من مخطوطات أثره .

- ١ -

لبث تراث ابن خلدون رغم أهميته ونفاسته حتى منتصف
القرن الماضى محتجباً ، بعيداً عن التداول العام إلا فقرات ومقتطفات
صغيرة من مقدمته وتاريخه تنشر ترجمتها من وقت لآخر . وفى ذلك
الحين بدأت العناية بنشر آثاره ؛ فنشرت المقدمة ، ونشرت قطع
مختلفة من تاريخه . وظهرت أول قطعة كبيرة من آثاره بباريس
سنة ١٨٤١ حيث نشر المستشرق نويل دى ثرجيه مقتطفات من
« كتاب العبر » تتضمن تاريخ بنى الأغلب ودولة الإسلام فى صقلية مع
ترجمة فرنسية بعنوان *Histoire de l'Afrique sous les Aghlabites*
et la Sicile sous la Domination musulmane . وفى سنة ١٨٥٨
ظهرت مقدمة ابن خلدون فى باريس فى ثلاث مجلدات ، أصدرها
المستشرق كاترمير عن نسخة مخطوطة بالمكتبة الملكية ، ضمن
المجموعة المسماة « مذكرات ومقتطفات من مخطوطات مكتبة الملك »
Notices et Extraits des Manuscrits de la Bibliothèque
du Roi . وهى تشمل ضمن هذه المجموعة ، المجلدات السادس عشر

الى الثامن عشر . وفي نفس ذلك التاريخ نشرت المقدمة بمصر لأول مرة (سنة ١٢٧٤ هـ - ١٨٥٨ م) بعناية الشيخ نصر المهوريني عن نسخة مخطوطة أخرى ، تتضمن بالديباجة فقرة إهداء للمؤلف لم ترد بنسخة باريس . ونشرت المقدمة في بيروت سنة ١٨٧٩ ، ثم نشرت بعد ذلك مراراً . وعينت مطبعة بولاق باخراج اثر ابن خلدون (كتاب العبر) كله ، فظهر تباعاً في سبعة مجلدات كبيرة ، وتم طبعه سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٨ م) واعتمد في إخراجها على عدة نسخ مخطوطة كلها ناقصة^(١) ، ولكنها تكمل بعضها بعضاً ، ونقلت المقدمة عن نفس النسخة المخطوطة التي نقلت عنها طبعة سنة ١٢٧٤ هـ فجاءت متضمنة فقرة الإهداء المشار اليها . ولهذه الفقرة أهمية خاصة في التعريف عن تاريخ النسخة التي تضمنتها وعن قيمتها ؛ ففيها يتقدم المؤلف باهداء هذه النسخة من كتابه الى خزانة « مولاه السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن من بني مرين » ويقول إنه « بعثها الى خزانته الموقفة لطلبة العلم بجامع القرويين من مدينة فاس حضرة ملكهم » . والسلطان عبد العزيز المذكور هو ابن أبي العباس بن أبي سالم بن السلطان أبي الحسن ؛ تولى عرش المغرب الأقصى سنة ٧٩٦ هـ ، وتوفي في صفر سنة ٧٩٩ هـ . وإذا فقد وقع إهداء ابن خلدون كتابه للسلطان عبد العزيز في هذه الفترة

(١) يوجد من هذه النسخ الناقصة بدار الكتب إثنان ، وتوجد أيضاً بها مجلدات مخطوطة متفرقة من كتاب العبر . وتحفظ هذه النسخ بالأرقام الآتية : ١٨٥ م تاريخ ، ٦٥٥ م تاريخ ، ٦٦٥ م تاريخ ، ١٩٥ م تاريخ .

٧٩٦ — ٧٩٩ هـ . وقد انتهى البحث الحديث بأن وقف على
 مجلدين من هذه النسخة التي بعثها ابن خلدون الى فاس لا زالا
 بمكتبة جامع القرويين ؛ عثر بهما الأستاذ ألفرد بل Bel وذكرهما
 ضمن الفهرس الذي وضعه لمكتبة جامع القرويين ، وأشار الى أن
 أحدهما يحمل صيغة الوقف ^(١) . وقد عاد الأستاذ ليفي بروقتسال
 فحقق صحة هذا الاكتشاف ، ونشر بحثه في المجلة الآسيوية مشفوعاً
 بصورة فتوغرافية لصيغة الوقف المرقومة على غلاف أحد المجلدين ؛
 والمجلدان هما الثالث والخامس (مما يقابل نسخة بولاق تقريباً) .
 والخامس يحمل صيغة الوقف ، وتاريخ هذا الوقف هو ٢١ صفر
 سنة ٧٩٩ هـ . وفي نهاية هذا المجلد إشارة من الناسخ تفيد أنه « نقل
 من الأصل المعتمد لمؤلفه » ^(٢) . وقد وقع إهداء ابن خلدون لهذه
 النسخة في نفس الوقت الذي أرسل فيه الظاهر برقوق سلطان مصر
 هديته الى سلاطين المغرب كأثر للصلات التي عمل ابن خلدون على
 عقدها بين بلاط القاهرة وقصور المغرب ؛ وأرسل ابن خلدون
 نسخة كتابه هذه الى المغرب مع رسل السلطان الظاهر ؛ وتوفى
 السلطان عبد العزيز في ذلك الحين . ولكن أبناء وفاته لم تكن قد
 وصلت بعد الى القاهرة . ومن المحقق أن هذه النسخة المهداة الى
 بني مرين سادة ابن خلدون وحامته الأوائل كانت من أتم نسخ
 الكتاب وأوفاهها ، إذ كان قد مضى على كتابة ابن خلدون نسخة

Catalogue des Livres arabes de la Bibliothèque de la (١)
 Mosquée d'El Quaruiyin à Fez (p. 6).

J. Asiatique, 1923 (Juillet-Sep. p.p. 163-164).

(٢)

وقد نشرنا صورة فوتوغرافية لصيغة الوقف المشار إليها في فاتحة الكتاب.

كتابه الأولى نحو خمس عشرة سنة ؛ وقد عني ابن خلدون أثناء مقامه بالقاهرة في هذه الفترة بتنقيح كتابه وتهذيبه والزيادة فيه ؛ وشمل التنقيح والزيادة جميع أقسام الكتاب ، ووصل ابن خلدون في تدوين أخبار الحوادث المعاصرة في كثير من المواطن الى سنة ٧٩٥ و ٩٦ و ٩٧ هـ حسبنا بينا فيما تقدم . وتوجد بدار الكتب (بمجموعة مصطفى باشا) نسخة مخطوطة من كتاب العبر في عشرة مجلدات تنقص عن النسخة الكاملة مجلداً (المجلد السابع من المطبوع) ، وتحتوي مقدمتها على صيغة الإهداء المشار اليها (ورقة ٤ من المجلد الأول) مما يدل على أنها قد تكون صورة مطابقة للنسخة الأصلية المهداة الى بلاط فاس (١) .

والخلاصة أن نسخة « كتاب العبر » المتداولة التي أصدرتها مطبعة بولاق عن النسخ الخطية المشار اليها ، هي بالرغم من كثرة أغلاطها المطبعية ، من أتم النسخ التي انتهت اليها من أثر ابن خلدون .

— ٢ —

بعد أن نشرت مقدمة ابن خلدون في باريس بعناية العلامة كاترمير سنة ١٨٥٨ ؛ جاء البارون دي سلان فترجم المقدمة الى الفرنسية ، وهو العمل الذي كان يعزّمه كاترمير وحالت وفاته دون إتمامه . وظهرت ترجمة دي سلان الفرنسية بين سنتي ١٨٦٣ و ١٨٦٨ في ثلاثة مجلدات كبيرة بعنوان *Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun* (par M. de Slane Membre de l'Institut). واتباع دي سلان في ترجمته ، النص الذي نشره كاترمير إلا في مواطن

(١) تحفظ هذه النسخة بدار الكتب برقم (٦٥ تاريخ م).

قليلة جداً ، قارن فيها المخطوطات المختلفة . وصدر المقدمة بترجمة
« للتعريف بابن خلدون » وأكمل ترجمته حتى وفاته بالاعتماد على
المصادر المصرية المعاصرة (المقریزی والعيني وابن قاضي شهبه) ،
ويشكو دى سلان من أسلوب ابن خلدون ويقول إنه ركيك
وغامض في أحيان كثيرة ، وإنه يستعمل الضمائر بكثرة تحول أحياناً
دون فهم مقاصده^(١) . والواقع أنه يوجد في ترجمة دى سلان غموض
كثير ؛ ولكننا نعتقد أن ذلك لا يرجع دائماً الى غموض النص
الأصلي ، وإنما يرجع في معظم الأحيان الى ضعف الترجمة ذاتها .

كذلك نشر دى سلان قسماً كبيراً من تاريخ ابن خلدون هو
المتعلق بتاريخ الدول البربرية في مجلدين كبيرين بعنوان « تاريخ
الدول الإسلامية بالمغرب » (الجزائر سنة ١٨٦٣) ؛ ورجع في نشر
هذا القسم الى عدة نسخ مخطوطة ، واختصر فيه في بعض المواضع ،
وأضاف اليه مقتطفات لمؤلفين آخرين ، ونشر ترجمة فرنسية لهذا
القسم في أربعة مجلدات ظهرت بالجزائر سنة (١٨٥٢-١٨٥٦) بعنوان

*Histoire des Berbères et des Dynasties Musulmanes
de l'Afrique Septentrionale.*

وترجمت المقدمة الى التركية منذ أوائل القرن الثامن عشر ،
ترجمها إليها پرى زاده المتوفى سنة ١٧٤٩ م (١١٦٢ هـ) . وترجمت
الى الفرنسية أجزاء أخرى من التاريخ ، منها قطعة عن تاريخ بنى
زيان *Hist. de Benou Zayan* ، ترجمها دوزى ، وقطعة عن

(١) راجع ترجمة دى سلان ، ج ١ ص ١١٢ .

Hist. des Benou al Ahmar Rois de غرناطة بني الأحمر ملوك
 Grenade ، ترجمها جودفرى دمومبين ، وقد نشرتا فى المجلة
 الآسيوية (Journal Asiatique) ؛ وقطعة مطولة أخرى عن ملوك
 بنى عبد الواد ترجمها المستشرق بل ، وظهرت بالجزائر فى ثلاثة
 مجلدات بعنوان Hist. des Beni Abdel-Wad Rois de Telemçan
 وترجمت قطع الى الألمانية ، من ذلك ما ترجمه تيزنهاوزن عن
 تاريخ بنى عقيل : Die Geschichte der Oqailiden-Dynastie.
 وفصول عن تاريخ احتلال الفرنج لشواطئ سوريا أيام الصليبيين
 بقلم تورنبرج : Geschichte der Franken, welche die Küsten
 und Grenzlaender Syriens besetzten. وفصول أخرى مختلفة من
 المقدمة والتاريخ بقلمى فون هامار وفون كريمر. وظهرت سنة ١٩٣٢
 ترجمة ألمانية لآراء ابن خلدون عن الدولة بقلم ادوين روزنتال
 مقرونة بشرح وتعليقات تحت عنوان : Ibn Khaldouns Gedanken
 über den Staat.

وترجمت قطع من المقدمة الى الإيطالية إحداها عن الكتابة
 العربية بقلم لانشى ، وأخرى عن تاريخ صقلية بقلم العلامة أمارى.
 وترجم الجزء المتعلق بتاريخ اليمن الى الانجليزية بقلم كاسلس كى
 (Kay) وشذور أخرى بقلم الأستاذ فلنت . وترجمت أيضاً قطع
 مختلفة أخرى الى اللاتينية والروسية .

— ٣ —

وتوجد نسخ مخطوطة من المقدمة فى مكاتب برلين وليدن
 وفلورنس ولندنجراد والمتحف البريطانى وميلان وميونخ وباريس

وثينا . وتوجد نسخ مخطوطة من المؤلف كله أو بعضه بالقاهرة
بدار الكتب المصرية (وبها نسختان كاملتان تقريباً وبعض مجلدات
مفردة) ومكتبة الأزهر . وفي قسطنطينية في عثمانية وبنى جامع
وابراهيم باشا . وفي فاس بجامع القرويين . وفي المتحف البريطاني
وأكسفورد وتورينو وتبنجن وتونس والجزائر . وتوجد نسخة
كاملة من التعريف أو الرحلة بدار الكتب المصرية (مصطفى باشا) ،
وتوجد نسختان أخريان في استانبول ، وعنهما أخرجت الطبعة
المحققة من « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً » في سنة ١٩٥٢
وهي التي أشرنا إليها فيما تقدم (١) .

(١) راجع وصف هذه النسخ الخطية وتواريخ كتابتها في فهرس
هذه المكتبات .

الملحق الثانى

ثبت بالمصادر

- ١ -

المصادر العربية

- كتاب العبر (تاريخ ابن خلدون) ، والمقدمة .
- التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (النسخة المخطوطة) .
- التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً (النسخة المطبوعة)
- مقدمة ابن خلدون ، طبعة كاترمير (باريس سنة ١٨٥٨) .
- مقدمة ابن خلدون ، (مصر) سنة ١٢٧٤ هـ .
- لباب المحصل لابن خلدون (مخطوط بالاسكوريال) .
- لباب المحصل لابن خلدون (طبع تطوان ١٩٥٢) .
- اللمحة البدوية فى تاريخ الدولة النصرىة لابن الخطيب .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ .
- رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر (مخطوط) .
- أنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر (مخطوط) .
- المهمل الصافى لابن تغرى بردى (مخطوط) .
- الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى (مخطوط ومطبوع) .
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ للسخاوى .
- السلوك فى دول الملوك للمقرئزى (مخطوط ومطبوع) .
- الخطط والآثار للمقرئزى .

- إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقرئى .
عجائب المقدور لابن عربشاه .
تاريخ مصر لابن إياس .
حسن المحاضرة للسيوطى .
الأحكام السلطانية للماوردى .
قوانين الوزارة للماوردى .
الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية لابن
الطقطقى (جريفزولد سنة ١٨٥٨) .
سراج الملوك لأبى بكر الطرطوشى وبهامشه التبر المسبوك للغزالى .
المنهج المسلوك فى سياسة الملوك لعبد الرحمن بن محمد .
عيون الأخبار لابن قتيبة .
رسائل إخوان الصفا .
آراء أهل المدينة الفاضلة لأبى نصر الفارابى .
صبح الأعشى للقلقشندى .
مصر الاسلامية لمحمد عبد الله عنان .

المصادر الغربية

- هذا ونشر فيما يلى ثبنا بأهم المراجع والبحوث النقدية التى
ظهرت عن ابن خلدون وتراثه بمختلف اللغات الأوربية :
Von Hammer-Purgstall : Ueber den Verfall des Islams
nach den ersten drey Jahrhunderten der Hidschat
(1812).

- A. von Kremer : Ibn Chaldun and seine Kultur-
geschichte der islamischen Reiche : Wien 1879.
- L. Gumplowicz : Ibn Khaldun, ein arabischer Soziologe
des 14. Jahrhunderts ; in Sociologische Essays.
- T.J. de Boer : Ibn Chaldun : in Geschichte der Philoso-
phie im Islam : Stuttgart 1901. p. 177-84.
- Lewine : Ibn Chaldun, ein arabischer Soziologe des
XIV. Jahrhunderts. (بالروسية)
- Von Wesendonk : Ibn Khaldun, ein arabischer Kultur-
historiker des 14. Jahrhunderts (Deutsche Rundschau
Januar 1923). وألحقت ترجمتها العربية بقلم محمد عبد الله عنان بكتاب
فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .
- Müller : Der Islam ; II. p. 668 ff.
- Brockelmann : Geschichte der arabischen Litteratur ; II.
p. 243. ff.
- Wuestenfeld : Geschichtschreiber der Araber No. 456.
- Rosenthal : Ibn Khalduns Gedanken über den Staat ;
München, 1932.
- T. Khemiri : Der Asabisa Begriff in der Muquaddima
des Ibn Huldun (Hamburg 1936).

* * *

- Encyclop. de l'Islam: art.: Ibn Khaldoun par Alfred Bel.
- Biographie Universelle t. XX. art. Ibn Khaldoun par S.
de Sacy.
- Schulz : Ibn Khaldoun ; (art. au Journal Asiatique 1825).
- Reinaud : Ibn Khaldoun : dans Nouvelle Biographie
Générale (1858).
- De Slane : Les Prolégomènes d'Ibn Khaldoun.
- S. Colosio : Contribution à l'étude d'Ibn Khaldoun .
(Revue du Monde musulman XXVI, 1914).

René Maunier: Les idées économiques d'un philosophe arabe (Revue d'Histoire économique et sociale, 1912).

R. Maunier : Les idées sociologiques d'un philosophe arabe au XIVème siècle : (L'Egypte contemporaine, 1917, p. 31).

Taha Hussein : La philosophie sociale d'Ibn Khaldoun.
وترجمتها العربية : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية بقلم محمد عبد الله عنان .

* * *

Graberg de Hemsoe : Account of the great historical work of the african philosopher Ibn Khaldoun. (Transactions of the A.R.S. 1833).

R. Flint : Historical philosophy. Edinbourg 1893. p. 157 ff.

N. Schmidt : Ibn Khaldun. Historian, Sociologist and Philosopher, New-York 1930.

* * *

Ferreiro : Un sociologo arabo del secolo XIV (La Riforma Sociale anno III Vol. VI. Fasc. 4. 1886).

ورجعنا أيضاً الى الكتب الآتية :

N. Machiavelli : The Prince.

N. Machiavelli : Florentine History.

Aristotles' : Politics.

Dozy : Recherches sur l'Hist. et la Littérature d'Espagne au moyen-âge.

Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis.

الملحق الثالث

تراجم ابن خلدون

بأقلام معاصريه

ترجم لابن خلدون عدة من أكابر المؤرخين والمفكرين المصريين الذين عاصروه وعرفوه ، أو عاشوا قريباً من عصره مثل الحافظ بن حجر العسقلاني وقد ترجمه في كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر » وتقي الدين المقرئ وقد ترجمه في كتاب « درر العقود الفريدة » الذي لم يصلنا منه سوى قطعة صغيرة ، وأبي المحاسن ابن تغري بردي وقد ترجمه في كتابه « المنهل الصافي » ثم السخاوي وقد ترجمه في كتابه « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » . وقد رأينا أن ننقل هنا هذه التراجم ومعظمها مخطوط ، زيادة في التعريف بابن خلدون وبالأثر الذي أحدثته إقامته الطويلة بمصر ، في تقدير الكتاب المصريين وآراءهم بالنسبة لشخصه وتفكيره .

- ١ -

ترجمة الحافظ ابن حجر

منقولة عن كتاب « رفع الإصر عن قضاة مصر »

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر ابن ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي ، الإشبيلي الأصل ، التونسي المولد ، أبو زيد ولي الدين المالكي من المائة

التاسعة . ولد في أول شهر رمضان سنة اثنين وثلاثين وسبعماية ، واشتغل في بلده ، وسمع من الوادى آشى وابن عبد السلام وغيرهما ، وأخذ القرآن عن محمد بن سعد بن برال ، واعتنى بالأدب وأمور الكتابة والخط ، حتى مهر في جميع ذلك . وولى كتابه العلامة عن صاحب تونس ، ثم توجه الى فاس في سنة ثلاث وخمسين ، فوقع بين يدى سلطانها أبى عنان ؛ ثم حصلت له نكبة وشدة ، واعتقل نحو عامين ، وولى كتابه السر لأبى سالم والنظر في المظالم ؛ ثم دخل الأندلس وقدم الى غرناطة في سنة أربع وستين ، فتلقيه السلطان ابن الأحمر عند قدومه ونظمه في أهل مجلسه ، وأرسله الى عظيم الفرنج بإشبيلية ، فعزلوه وأكرموا وحمله وقام بالأمر الذى ندب اليه ؛ ثم توجه في سنة ست وستين الى بجاية ففوض اليه صاحبها تدبير مملكته مدة ؛ ثم نزع الى تلمسان باستدعاء صاحبها وأقام بوادى العرب مدة ؛ ثم توجه الى فاس من بسكره فذهب في الطريق ، ومات صاحب فاس قبل قدومه ، فأقام بها قدر سنتين . ثم توجه الى الأندلس ثم رجع الى تلمسان فأقام مدة أربعة أعوام . ثم ارتحل عنهم في رجب سنة ثمانين الى تونس ، فأقام بها الى أن استأذن في الحج فأذن له ، فاجتاز البحر الى أن وصل الى الاسكندرية ، ثم قدم الديار المصرية في سنة أربع وثمانين وسبعماية في ذى القعدة ، وحج ثم رجع فلازم أطنبغا الجوبانى ، فاعتنى به الى أن قرره الملك الظاهر بربقو في قضاء المالكية بالديار المصرية ، فباشرها مباشرة صعبة ، وقلب للناس ظهر الحجن ، وصار يعزربالصفع ، ويسميه الزج فاذا غضب على انسان قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته .

قرأت بخط البشيشي ، كان فصيحاً ، مفوهاً جميل الصورة ، حسن العشرة ، وخصوصاً إذا كان معزولاً . أما إذا ولى فلا يعامل بل ينبغي أن لا يرى . وقد ذكره لسان الدين بن الخطيب في تاريخ غرناطة ، ولم يصفه بعلم ، وإنما ذكر له تصانيف في الأدب وشيئاً من نظمه ، ولم يكن بالماهر فيه . وكان يبالغ في كتمان مع أنه كان جيد النقد للشعر . وسئل عنه الرراكي فقال ، عرى عن العلوم الشرعية ، له معرفة بالعلوم العقلية من غير تقدم فيها ، ولكن محاضرتة إليها المنتهى وهي أمتع من محاضرة الشيخ شمس الدين الغاري . ولما دخل الديار المصرية تلقاه أهلها وأكرموه ، وأكثروا ملازمته والتودد إليه ، فلما ولى المنصب تنكر لهم وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود . وقيل ان أهل المغرب لما بلغهم أنه ولى القضاء ، عجبوا من ذلك ونسبوا المصريين الى قلة المعرفة ، حتى ان ابن عرفة قال لما قدم في الحج كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب ، فلما بلغنا أن ابن خلدون ولى القضاء عددناها بالضد من ذلك . ولما دخل القضاة للسلام عليه لم يقيم لأحد منهم ، واعتذر لمن عاتبه على ذلك . وباشر ابن خلدون بطريقة لم يألفها أهل مصر حتى حصل بينه وبين الرراكي تنافس يتضمن الخط على برقوق فتنصل الرراكي وعقد له مجلس فأظهر ابن خلدون فتوى زعم أنها خط الرراكي من ذلك ، وتوسل بمن اطلع على الورقة فوجدت مدلسة ، فلما تحقق برقوق ذلك عزله وأعاد ابن خير وذلك في جمادى الأولى سنة سبع وثمانين ، فكانت ولايته الأولى دون سنتين ، واستمر معزولاً ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ، وحج في سنة تسع

وثمانين ولازمه كثير من الناس في هذه البطالة ، وحبس خلفه فيها ومازح الناس وبأسطهم ، وتردد الى الأكابر وتواضع معهم ، ومع ذلك لم يغير زيه المغربي ، ولم يتزى بزى قضاة هذا البلد . وكان يحب المخالفة في كل شيء . ولما مات ناصر الدين التتسي طلبه الملك الظاهر فوجده توجه الى القيوم بسبب بلد القمحية ، وكان له نصيب في تدريسها ، فحضر صخرة البريد ففوض اليه القضاء في خامس عشر شهر رمضان سنة احدى وثمانائة فباشر على عادته من العسف والجنف ، لكنه استكثر من النواب والشهود والعقاد على عكس ما كان منه في الأول فكثرت الشناعة عليه الى أن صرف ببعض نوابه ، وهو نور الدين بن الجلال صرفاً قبيحاً ، وذلك في ثاني عشر المحرم سنة ثلاث وثمانماية ، وطلب الى الحاجب الكبير فأقام للخصوم وأساء عليه بالقول ، وأدعوا عليه بأموار كثيرة أكثرها لاحقيقة له ، وحصل له من الإهانة ما لا مزيد عليه وعزل . ثم مات ابن الجلال بعد أربعة أشهر في جمادى الأولى ؛ فولى جمال الدين الأقفهسي ثم صرف بعد أربعة أشهر أيضاً في رمضان ، وأعيد بن خلدون وذلك بعد مجيئه من الفتنة العظمى وخلاصه منها سالماً ، وكانوا استصحبوه معهم معزولاً فتحيل لما حاصر تيمورلنك دمشق الى أن حضر مجلسه ، وعرفه بنفسه فأكرمه وقربه ، وكان غرضه الاستفسار عن أخبار بلاد المغرب فتمكن منه الى أن أذن له في السفر وزوده وأكرمه . فلما وصل أعيد الى المنصب ، فباشره عشرة أشهر ثم صرف بحمال الدين البساطي الى آخر السنة ؛ ثم أعيد ابن خلدون وسار على عادته إلا أنه تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات ومعاشرة

الأحداث وتزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط ، فكثرت الشناعة عليه . هكذا قرأت بخط جمال الدين البشيشي في كتابه القضاة . قال وكان مع ذلك أكثر من الازدراء بالناس ، حتى شهد عنده الإستادار الكبير بشهادة فلم تقبل شهادته مع أنه كان من المتعصبين له ولم يشهد عنه في منصبه إلا بالصيانة الى أن صرف في سابع شهر ربيع الأول سنة ثمانماية ، ثم أعيد في شعبان سنة سبع فباشرفي هذه المدة الأخيرة بلبن مفرط وعجز وخور ، فلم يلبث أن عزل في أواخر ذى القعدة . وقرأت بخط البشيشي أنه كان يوماً بالقرب من الصالحية فرأى ابن خلدون وهو يريد التوجه الى منزله وبعض نوابه أمامه وهو تاج الدين بن الطريف ، فالتفت فرأى البشيشي فتلا قوله تعالى : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له » فلما وصل ابن خلدون عاتب ابن الطريف ، فقال لم تلوت هذه الآية؟ فقال اتفق كذلك ، فقال بل أردت أن البشيشي بلغ جمال الدين البساطي . وقرأت بخط الشيخ تقي الدين المقرئ في وصف تاريخ ابن خلدون ، «مقدمته لم يعمل مثالا وإنه لعزير أن ينال مجتهد مثالا، إن هي زبدة المعارف والعلوم ، وبهجة العقول السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء وتعرف حقيقة الحوادث والأنباء ، وتعبر عن حال الوجود وتثني على أهل كل موجود ، بلفظ أبهى من الدرالنظيم والطف من الماء إذا مر بالنسيم » . انتهى كلامه . وما وصفها به فيما يتعلق بالبلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية مسلم فيه ، وأما ما أطراه به زيادة على ذلك فليس الأمر كما قال إلا في بعض دون بعض ، إلا أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسناً ما ليس

بالحسن . وقد كان شيخنا الحافظ أبو الحسن بن أبي بكر يبالغ في الغض منه فلما سألته عن سبب ذلك ذكر لى أنه بلغه أن ذكر الحسين بن على رضى الله عنه في تاريخه فقال قتل بسيف جده ؛ ولما نطق شيخنا بهذه اللفظة أردفها بلعن ابن خلدون وسبه وهو يبكى ، قلت ولم توجد هذه الكلمة في التاريخ الموجود الآن وكان ذكرها في النسخة التى رجع عنها . والعجب أن صاحبنا المقرئ كان يفرط في تعظيم ابن خلدون لكونه كان يحزم بصحة نسب بنى عبيد الذين كانوا خلفاء بمصر واشتهروا بالفاطميين الى على ، ويخالف غيره في ذلك . ويدفع ما نقل عن الأئمة في الطعن في نسبهم ويقول : إنما كتبوا ذلك المحض مراعاة للخليفة العباسى ؛ وكان صاحبنا ينتمى الى الفاطميين فأحب ابن خلدون لكونه أثبت نسبهم وغفل عن مراد ابن خلدون ، فانه كان لانحرافه عن آل على يثبت نسبة الفاطميين اليهم لما اشتهر من سوء معتقد الفاطميين وكون بعضهم نسب الى الزندقة وادعى الألوهية كالحاكم ، وبعضهم فى الغاية من التعصب لمذهب الروافض حتى قتل فى زمانهم جمع من أهل السنة ، وكانوا يصرحون بسب الصحابة فى جوامعهم ومجامعهم فاذا كانوا بهذه المثابة وصح أنهم من آل على حقيقة التصق بآل على العيب وكان ذلك من أسباب النفرة عنهم والله المستعان .

(ص ١٥٨ — ١٦١) نسخة دار الكتب

(ص ٢٧٤ — ٢٧٨) نسخة مكتبة الأزهر

ترجمة شمس الدين السخاوى

منقولة عن كتاب « الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع »

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر
ابن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن ولى الدين أبو زيد
الحضرى ، من ولد وائل بن حجر الإشبلى الأصل التونسى ثم القاهرى
المالكى ويعرف بابن خلدون — بفتح المعجمة وآخره نون . ولد فى
أول رمضان سنة اثنين وثلاثين وسبعماية بتونس ، وحفظ القرآن
والشاطبيتين ومختصر ابن الحاجب الفرعى والتسهيل فى النحو ، وتفقه
بأبى عبد الله بن عبد الله الحياى وأبى القسم محمد بن القصير
وقرأ عليه التهذيب لأبى سعيد البرادعى وعليه تفقه ، وانتاب مجلس
قاضى الجماعة أبى عبد الله محمد بن عبد السلام واستفاد منه وعليه
وعلى أبى عبد الله الوادياشى ، سمع الحديث وكتب بخطه أنه سمع
صحيح البخارى على أبى البركات البلقينى وبعضه بالإجازة ، والموطأ
على ابن عبد السلام وصحيح مسلم على الوادياشى انتهى . وأخذ
القراءات السبع إفراداً وجمعاً بل قرأختمه أيضاً بزاوية يعقوب عن المكتب
أبى عبد الله محمد بن سعد بن برال الأنصارى ، وعرض عليه
الشاطبيتين والتقى والعربية عن والده وأبى عبد الله محمد بن العربى
الخصائرى وأبى عبد الله بن بحر ، والمقرئ أبى عبد الله محمد بن الشواش
الزاوى وأبى عبد الله بن القصار ، ولزم العللاء أبى عبد الله الإشبلى
وانتفع به ، وكذا أخذ عن أبى محمد عبد المهيمن الحضرى .

وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلى شيخ المعقول بالمغرب وآخرين ، واعتنى بالأدب وأمور الكتابة والخط ، وأخذ ذلك عن أبيه وغيره ومهر في جميعه ، وحفظ المعلقات وحماسة الأعلم وشعر حبيب بن أوس وقطعة من شعر المتنبي وسقط الزند للمعري ، وتعلق بالخدمة السلطانية وولى كتابه العلامة عن صاحب تونس ؛ ثم توجه سنة ثلاث وخمسين الى فاس فوقع بين يدي سلطانها أبي عنان ، ثم امتحن واعتقل نحو عامين ، ثم ولى كتابه السر لأبي سالم أخى أبي عنان وكذا النظر فى المظالم ؛ ثم دخل الأندلس فقدم غرناطة فى أوائل ربيع الأول سنة أربع وستين وتلقاه سلطانها ابن الأحمر عند قدومه ونظمه فى أهل مجلسه ، وكان رسوله الى عظيم الفرنج بإشبيلية فعظمه وأكرمه وحمله وقام بالأمر الذى ندب اليه ، ثم توجه فى سنة ست وستين الى بجاية ففوض اليه صاحبها تدبير مملكته مدة ثم نزع الى تلمسان باستدعاء صاحبها وأقام بوادى العرب مدة ، ثم توجه من بسكرة الى فاس فذهب فى الطريق ومات صاحبها قبل قدومه ومع ذلك فأقام بها قدر سنتين ، ثم توجه الى الأندلس ثم رجع الى تلمسان فأقام بها أربعة أعوام ، ثم ارتحل فى رجب سنة ثمانين الى تونس فأقام بها من شعبانها الى أن استأذن فى الحج فأذن له فاجتاز البحر الى الاسكندرية ، ثم قدم الديار المصرية فى ذى القعدة سنة أربع وثمانين فحج ، ثم عاد اليها وتلقاه أهلها وأكرموه وأكثروا من ملازمته والتردد عليه بل تصدر للإقراء بجامع الأزهر مدة ، ولازم هو الطنبغا الجوبانى فاعتنى به الى أن قرره الظاهر برقوق فى تدريس القمحية بمصر ، ثم فى قضاء المالكية بالديار المصرية فى جمادى الآخرة سنة

ست وثمانين فتنكر للناس بحيث لم يقيم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه مع اعتذاره لمن عتب عليه في الحملة ، وفلك في كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وصار يعزر بالصفع ويسميه الزج فإذا غضب على إنسان قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته ، ويقال إن أهل المغرب لما بلغهم ولايته القضاء تعجبوا ونسبوا المصريين الى قلة المعرفة بحيث قال ابن عرفة كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب فلما وليها هذا عددناها بالضد من ذلك ؛ وعزل ثم أعيد وتكرر له ذلك حتى مات قاضياً فجأة في يوم الأربعاء بقين من رمضان سنة ثمان عن ست وسبعين سنة ودون شهر ودفن بمقابر الصوفية خارج باب النصر عفا الله عنه . ودخل مع العسكر في أيام انفصاله عن القضاء لقتال تيمور فقدر اجتماعه به وخادعه وخلص منه بعد أن أكرمه وزوده ، وكذا حج قبل ذلك في سنة تسع وثمانين وهو أيضاً منفصل عن القضاء ، ولازمه كثيرون في بعض عزلاته فحسن خلقه معهم وباسطهم ومازحهم ، وتردد هولاً لكبار وتواضع معهم ، ومع ذلك لم يغير زيه المغربي ولم يلبس زى قضاة هذه البلاد لمحبه المخالفة في كل شيء ، واستكثر في بعض مراته من النواب والعقاد والشهود عكس ما كان منه في أول ولاياته وكان ذلك أحد ما شنع عليه به ؛ وطلب بعد انفصاله في الحرم سنة ثلاث وثمانمائة الى الحاجب الكبير فأقامه للخصوم وأساء عليه القول وادعوا عليه بأمور كثيرة أكثرها لا حقيقة له وحصل له من الإهانة ما لا مزيد عليه . وقد ولى مشيخة البيبرسية وقتاً وكذا تدريس الفقه بقبة الصالح بالبيمارستان الى أن مات ، وتدریس الحديث بالصرغتمشية ،

ثم رغب عنه للزین التفهني . وقد ترجمه جماعة فقال الجمال البشيشي إنه في بعض ولاياته تبسط بالسكن على البحر وأكثر من سماع المطربات ومعاشرة الأحداث وتزوج امرأة لها أخ أمرد ينسب للتخليط فكثرت الشناعة عليه ، وكان مع ذلك أكثر من الإزدراء بالناس حتى أنه شهد عند الاستادار الكبير بشهادة فلم يقبله مع أنه كان من المتعصبين له ، قال ولم يشتهر عنه في منصبه الا الصيانة وأنه باشر في أواخر مراته بلين مفرط وعجز وخور يعنى بحيث أنه سمع بعض نوابه وهو راكب بين يديه يتلو حين رؤيته بعض المؤرخين « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له » فلم يرد على معاتبته وقال له وقد اعتذر النائب له بما لم يقبله منه إنما أردت أن تبلغ ذلك الجمال البساطي ؛ قال البشيشي كان فصيحاً مفوهاً جميل الصورة حسن العشرة إذا كان معزولاً فأما إذا ولى فلا يعاشر بل ينبغى أن لا يرى . وقال ابن الخطيب فيما حكاه عنه شيخنا : رجل فاضل جهم الفضائل رفيع القدر أصيل المجد وقور المجلس على الهمة قوى الجأش ، متقدم في فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا شديد البحث كثير الحفظ صحيح التصوير بارع الخط حسن العشرة مفخر من مفاخر المغرب ، وقال هذا كله في ترجمته وهو في حد الكهولة ومع ذلك فلم يصفه فيما قال شيخنا أيضاً بعلم وإنما ذكر له تصانيف في الأدب وشيئاً من نظمه ، قال شيخنا ولم يكن بالماهر فيه وكان يبالغ في كتمانها مع أنه كان جيد النقد للشعر ؛ وسئل عنه الركراكي فقال عرى عن العلوم الشرعية له معرفة بالعلوم العقلية من غير تقدم فيها ولكن محاضراته اليها المنتهى وهي أمتع من محاضرة الشمس الغامري .

وقال المقرئ في وصف تاريخه ، مقدمته لم يعمل مثالها وانه لعزير
أن ينال مجتهد منالها إذ هي زبدة المعارف والعلوم ، ونتيجة العقول
السليمة والفهوم ، توقف على كنه الأشياء وتعرف حقيقة الحوادث
والأنباء ، وتعب عن حال الوجود وتنبئ عن أصل كل موجود ، بلفظ
أبهي من الدر النظيم وألطف من الماء مر به النسيم . قال شيخنا
وما وصفها به فيما يتعلق بالبلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة
الحاظية مسلم فيه ، وأما ما أطراه به زيادة على ذلك فليس الأمر
كما قال إلا في بعض دون بعض ؛ غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى
ترى حسناً ما ليس بحسن ؛ قال وقد كان شيخنا الحافظ أبو الحسن
يعني الهيثمي يبالغ في الغض منه فلما سألته عن سبب ذلك ذكر لي
أنه بلغه أنه ذكر الحسين بن علي رضي الله عنهما في تاريخه فقال
قتل بسيف جده ، ولما نطق شيخنا بهذه اللفظة أردفها بلعن ابن
خلدون وسبه وهو يبكي ؛ قال شيخنا في رفع الإصر ولم توجد هذه
الكلمة في التاريخ الموجود الآن وكأنه كان ذكرها في النسخة التي
رجع عنها ؛ والعجب أن صاحبنا المقرئ كان يفرط في تعظيم
ابن خلدون لكونه كان يجزم بصحة نسب بني عبيد الذين كانوا
خلفاء بمصر واشتهروا بالفاطمين الى علي ويخالف غيره في ذلك ،
ويدفع ما نقل عن الأئمة من الطعن في نسبهم ويقول إنما كتبوا ذلك
المحضر مراعاة للخليفة العباسي ، وكان صاحبنا ينتمي الى الفاطمين
فأحب ابن خلدون لكونه أثبت نسبهم وغفل عن مراد ابن خلدون
فانه كان لانحرافه عن آل علي يثبت نسب الفاطمين اليهم لما اشتهر
من سوء معتقد الفاطمين ، وكون بعضهم نسب الى الزندقة وادعى

١٤ — ابن خلدون

الإلهية كالحاكم وبعضهم في الغاية من التعصب لمذهب الرفض حتى
 قتل في زمانهم جمع من أهل السنة ، وكان يصرح بسب الصحابة
 في جوامعهم ومجامعهم ، فإذا كانوا بهذه المثابة وصح أنهم من آل علي
 حقيقة التصق بآل علي العيب ، وكان ذلك من أسباب النفرة عنهم .
 وقال في أنبائه انه صنف التاريخ الكبير في سبع مجلدات ضخمة
 ظهرت فيه فضائله وأبان فيه عن براعته ولم يكن مطلعاً على الأخبار
 على جليتها لا سيما أخبار المشرق وهو بين لمن نظر في كلامه ،
 قال وكان لا يتزيا بزى القضاة بل هو مستمر على طريقته في بلاده .
 وقال في معجمه اجتمعت به مراراً وسمعت من فوائده ومن تصانيفه
 خصوصاً في التاريخ ، وكان لسناً فصيحاً بليغاً حسن الترسل وسط
 النظم مع معرفة تامة بالأمور خصوصاً متعلقات المملكة ؛ وكتب
 لي في استدعاء ، أجزت لهؤلاء السادة والعلماء القادة أهل الفضل
 والإجادة جميع ما سألوه من الإجازة ؛ وكذا أثنى عليه الحافظ
 الأقفهسي في معجم الحمال بن ظهيرة وهما ممن أخذ عنه وساق له
 شعراً ، وقال إنه باشر القضاء بحزمة وافرة . وقال العيني كان فاضلاً
 صاحب أخبار ونوادر ومحاضرة حسنة ، وله تاريخ مليح ، وكان يهتم
 بأمور قبيحة ، قال شيخنا كذا قال ومن نظمه في قصيدة طويلة جداً :
 أسرفن في هجرى وفي تعذبي وأطلن موقف عبرتي ونحبي
 وأبين يوم البين وقفه ساعة لوداع مشغوف الفؤاد كثيب
 لله عهد الظاعنين وغادروا قلبي رهين صباية ووجيب
 وعندى له تقریظ فی أحمد بن یوسف بن محمد الشیرجی
 وكذا لنزول الغيث لابن الدماميني ؛ وحكى لنا شيخنا الرشيدى

من أخباره جملة ، وهو وغيره من شيوخنا ممن روى لنا عنه ، وترجمه ابن عمار أحد من أخذ عنه بقوله ، الأستاذ المنو بلسان سيف المحاضرة وسحبان أدب المحاضرة كان يسلك في إقرائه الأصول مسلك الأقدمين كالإمام والغزالي والفخر الرازي ، مع الغض والإنكار على الطريقة المتأخرة التي أحدثها طلبة العجم ومن تبعهم في توغل المشاحة اللفظية ، والتسلسل في الحدية والرسمية اللذين أثارهما العضد وأتباعه في الحواشي عليه ، وينهر الناقل غضون إقرائه عن شيء من هذه الكتب ، مستنداً إلى أن طريقة الأقدمين من العرب والعجم وكتبهم في هذا الفن على خلاف ذلك ، وأن اختصار الكتب في كل فن والتعبد بالألفاظ على طريقة العضد وغيره ، من محدثات المتأخرين ، والعلم وراء ذلك كله ، وكان كثيراً ما يرتاح في النقول لفن أصول الفقه خصوصاً عن الحنفية كاليزدوي والخبازي وصاحب المنار ، ويقدم البديع لابن الساعاتي على مختصر ابن الحاجب قائلاً انه أقعد وأعرف بالفن منه ، وزاعماً أن ابن الحاجب لم يأخذه عن شيخ وإنما أخذه بالقول ، قال وهذا فيه نظر . وله من المؤلفات غير الإنشاءات النثرية والشعرية التي هي كالسحر ، التاريخ العظيم المترجم بالعبر في تاريخ الملوك والأمم والبربر ، حوت مقدمته جميع العلوم وجلت عن محبتها السنة الفصحاء فلا تروح ولا تحوم ؛ ولعمري ان هو إلا من المصنفات التي سارت ألقابها بخلاف مضمونها كالأغاني للأصبهاني سماه الأغاني وفيه من كل شيء ، والتاريخ للخطيب سماه تاريخ بغداد وهو تاريخ العالم ، وحلية الأولياء لأبي نعيم سماه حلية الأولياء وفيه أشياء جملة كثيرة ، وكان الإمام أبو عثمان الصابوني يقول كل بيت فيه الحلية

لا يدخله الشيطان ، وطول المقریزی فی عقوده ترجمته جداً وهو
كما قدمت ممن يبالغ في اطرائه ومدحه عفا الله عنهما .
(ج ٤ ص ١٤٥ - ١٤٩ طبع القاهرة)

- ٣ -

ترجمة أبي المحاسن بن تغري بردی

منقولة عن كتاب « المنهل الصافي »

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد
ابن جابر بن محمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الرحمن ، قاضى
القضاة ولى الدين أبوزيد الحضرمى الاشيبلى المعروف بابن خلدون .
مولده فى يوم الأربعاء أول شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين
وسبعمائة (بمدينة تونس ببلاد المغرب ونشأ بها) ، وحفظ القرآن
العزيز ، وقرأه على الأستاذ أبى عبد الله محمد بن سعد بن برال
الأنصارى بالقراءات السبع إفراداً وجمعاً فى إحدى وعشرين ختمة ،
ثم جمعها فى ختمة واحدة ، ثم قرأ ختمة بزاوية يعقوب جمعاً بين
الروایتين عنه ، وعرض عليه قصيدتى الشاطبى اللامية والرائية ،
وكتاب النفطى لأحاديث الموطأ لابن عسدر البر ، وكتاب
التسهيل فى النحو لابن مالك ، ومختصر ابن الحاجب الفقهى .
وأخذ العربية عن أبيه وأبى عبد الله محمد بن الشواش الزرزالى ،
وأبى العباس أحمد بن القصار وأبى عبد الله محمد بن بحر . ولازم
مجلسه ، وأشار عليه بحفظ الشعر فحفظ المعلقات وحماسة الأعلم
وشعر حبيب بن أوس وقطعة من شعر المتنبى ، وكتاب سقط الزند
لأبى العلاء المعرى . وسمع صحيح مسلم بتونس إلفوتاً يسيراً من كتاب
الصيد ، وسمع موطأ مالك على أبى عبد الله محمد بن جابر بن

سلطان القيسى الوادياشى ، وأجازه إجازة عامة . وأخذ الفقه بتونس عن أبى عبد الله محمد بن عبد الله الجيانى ، وأبى القاسم محمد بن القصير ، وقرأ عليه كتاب التهذيب لأبى سعيد البرادعى وعليه تفقه — وانتاب مجلس قاضى الجماعة أبى عبد الله محمد بن عبد السلام وأفاد منه وسمع عليه ، وأخذ عن أبى عبد الله محمد بن سليمان البسطى وأبى محمد عبد المهيمن الحضرمى وأبى العباس أحمد الزواوى وأفاد من القاسم عبد الله بن يوسف المالى وجماعة آخر .

واستمر بالمغرب الى أن كان طاعون الحارث سنة تسع وأربعين وسبعائة — ومات أبواه ، فاستدعاه أبو محمد بن تافراكين المستبد إذ ذاك بتونس الى كتابه العلامة عن سلطانه أبى إسحاق ابراهيم بن السلطان أبى بكر خامس الملوك الحفصيين بتونس ، فكتب العلامة عن السلطان وهى : الحمد لله والشكر لله بقلم غليظ .

ثم انصرف عن تونس عام ثلاث وخمسين ، وقدم على أبى عنان فارس بن على بن عثمان فنالته السعادة عنده وعظم ، ثم حصل له محنة عند موت فارس المذكور . ولحق بالسلطان أبى سالم فلما غلب على الملك رعى له السابقة ، وولاه كتابة الإنشاء . فصدر عنه أكثرها بالكلام المرسل الذى كان انفرد به ، حاكى فيها طريقة عبد الحميد ابن يحيى الكاتب .

ثم تنقل عنه عند عدة ملوك الى أن خرج عن تونس منتصفا شعبان سنة أربع وثمانين فوصل ثغر الاسكندرية يوم عيد الفطر . ودخل القاهرة فى عشر ذى القعدة من السنة ، واستوطن القاهرة وتصدر للإقراء بجامع الأزهر مدة وأشغل وأفاد .

ثم صحب الأمير علاء الدين الطنغا الجوباني فأوصله الى الملك الظاهر برقوق ، فولاه تدريس المدرسة القممحية ، بجوار جامع عمرو بن العاص رضى الله عنه . ثم ولاه الملك الظاهر برقوق قضاء القضاة المالكية بديار مصر فى يوم الاثنين تاسع عشر جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وسبعمائة ، فباشر بحرمة وافرة وعظمة زائدة وجمدت سيرته ، ودفع رسائل أكابر الدولة وشفاعات الأعيان ، فأخذوا فى التكلم فى أمره ، ولازالوا بالسلطان حتى عزله فى يوم السبت سابع جمادى الأولى سنة سبع وثمانين وسبعمائة بقاضى القضاة جمال الدين عبد الرحمن بن خير ، فلزم المذكور داره الى أن أعيد الى القضاء بعد مدة طويلة فى يوم الخميس النصف من شهر رمضان سنة إحدى وثمانمائة ؛ واتفق بعد توليته بمدة يسيرة موت الملك الظاهر برقوق فى شوال من السنة ، فصرف أيضاً فى يوم الخميس ثانى عشر المحرم من سنة ثلاث وثمانمائة .

وخرج مع السلطان الملك الناصر فرج الى البلاد الشامية لقتال تيمورلنك بطالا ، الى أن ملك تيمور دمشق وأحاط بها ، نزل اليه المذكور من سور دمشق بجبل ، وخالط عساكر تيمور وطلب منهم (أن) يوصلوه تيمور فساروا به اليه ، فأمر باحضاره فحضر فأعجبه حسن هيئته وجمال صورته ، وكلمه بعذوبة منطقته ودعاه بكثرة مقالاته باطرائه ، فأجلسه واستدناه ، وشكر له سعيه ، وحظى عنده ، الى أن أطلقه وزوده . وعاد الى القاهرة بعد عود تيمور خزاه الله الى بلاده .

ولما وصل الى القاهرة سعى ، فولى القضاء مرة ثالثة فى يوم

السبت ثالث شهر رمضان سنة ثلاث ، واستمر الى أن عزل في رابع
عشرين شهر رجب سنة أربع وثمانمائة . ثم أعيد في يوم الخميس
لأربع بقين من ذى الحجة من السنة ، ثم صرف يوم الاثنين سابع
شهر ربيع الأول سنة ست ، ثم أعيد في شعبان سنة سبع وثمانمائة ،
ثم صرف في سادس عشرين ذى القعدة منها ، ثم أعيد في شعبان
سنة ثمان وثمانمائة فلم تطل مدته .

ومات وهو قاض فجأة ، في يوم الأربعاء لأربع بقين من
شهر رمضان سنة ثمان وثمانمائة ، ودفن بمقابر الصوفية خارج باب
النصر وله من العمر ست وسبعون سنة وخمسة وعشرون يوماً .

وكان له نظم ونثر من ذلك قصيدة طويلة جداً (منها) :

أسرفن في هجرى وفي تعذيبى وأطلن موقف عبرتى ونحيبى
وأبين يوم البين موقف ساعة لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
وشعره كله من هذا النمط رحمه الله ، ما كان أحبه في المنصب .
(الورقة ٣٠٠ — ٣٠٢ من الجزء الثانى) .

ترجمة لسان الدين بن الخطيب

منقولة عن كتاب « الإحاطة في تاريخ غرناطة »

عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر
ابن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمى ،
من ذرية عثمان أنخى كريب المذكور في نهاء ثوار الأندلس ،
وينسب سلفهم الى وائل بن حجر ، وحاله عند القدوم على

رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة . انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك فاستقر بتونس منهم ثاني المحمدين محمد بن الحسن ، وتنازلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة . وتصرف جدامترجم به في القيادة . وأما المترجم به ، فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الحصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصى الزى ، على الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوى الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، خاطب للحفظ ، متقدم فى فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مغرى بالتجلة ، جواد ، حسن العشرة ، مبذول المشاركة ، مقيم لرسم التعين ، عاكف على رعى خلال الإصالة ، مفخر من مفاخر التخوم المغربية . قرأ القرآن ببلده على المكتب بن بوال ، والعربية على المقرئ الزاوى وغيره ، وتأدب بأبيه ، وأخذ عن المحدث أبى عبد الله بن جابر الوادى آشئ ، وحضر مجلس القاضى ابن عبد الله بن عبد السلام . وروى عن الحافظ أبى عبد الله السطى ، والرئيس ابن محمد عبد المهيمن الحضرمى ، ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الآبلى ، وانتفع به . انصرف من إفريقية منشأه ، بعد أن تعلق بالخدمة السلطانية على الحادثة ، واقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة عام ثلاثة وخمسين وسبعائة ، وعرف فضله ، وخطبه السلطان منفق سوق العلم والأدب ابى عنان فارس بن على بن عثمان ، واستحضره بمجلس المذاكرة ، فعرف حقه ، وأوجب فضله ، واستعمله على الكتابة ، أوائل عام

سنة وخمسين . ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة ، لبعده عن حسن التأني ، وشغوفه بثقوب الفهم وجودة الإدراك ، فأغروا به السلطان ، اغراء عضده ما جبل عليه عهدئذ من اغفال التحفظ مما يريب لديه ، فأصابته شدة ، تخلصه منها أجله ، كانت مغربة في جفاء ذلك الملك ، وهناة جواره ، واحدى العواذل لأولى الهوى في القول بفضله ، وعدم الخشوع وإهمال التوسل ، وإباداة المكسوب في سبيل النفقة ، والإرضاخ على زمن المحنة ، وجار المنزل الخشن ، الى أن أفضى الأمر الى السعيد ولده ، فأعتهبه قيم الملك لحينه ، وأعادته الى رسمه ، ودالت الدولة الى السلطان أبي سالم ، وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حظوته ، فقلده ديوان الإنشاء مطلق الجرايات ، محرر السهام ، نبهه الرتبة الى آخر أيامه . ولما ألفت الدولة مقادها بعده الى الوزير عمر بن عبد الله مدبر الأمر ، وله اليه وسيلة ، وفي حيله شركة ، وعنده حق ، رابه تقصيره عما ارتضى اليه أمله ، فساء ما بينهما بما آل الى انفصاله عن الباب المريني . وورد على الأندلس في أول ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعائة ، واهتز له السلطان ، وأركب خاصته لتلقيه ، وأكرم وفادته ، وخلع عليه ، وأجلسه بمجلسه ، ولم يدخر عنه برا ومواكلة ومراكمة ومطايبة وفكاهة . وخاطبني لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرنى الآن ، فأجبتة عنها بقولي :

حللت حلول الغيث في البلد المحل	على الطائر الميمون والرحب والسهل
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه	من الشيخ والطفل المهدي أو الكهل
لقد نشأت عندى للقياك غبطة	تنسى اغتباطي بالشيبية والأهل

أقسمت بمن حجت قریش لبیتہ ، وقبر صرفت أزمة الأحياء
لمیتہ ، ونور ضربت الأمثال بمشكاته وزیتہ ؛ لو خیرت أيها
الحبيب الذى زيارته الأمانة السنية ، والعارفة الوارفة ، واللطيفة المطيفة
بين رجع الشباب يقطر ماء ، ويرف نماء ، ويغازل عيون الكواكب
فضلا عن الكواكب اشارة وإيماء ، بحيث لا الوخط يلم بسياج لمته ،
أو يقدح ذباله فى ظلمته ، أو يقوم حواريه فى ملته من الأحابش
وأمتہ ، وزمانه روح وراح ، ومغدى فى النعيم ومراح ، وقصف
صراح ، ورقى وجراح ، وانتحاب واقتراح ، وصدور ما بها
الانشراح ، ومسرات تردفها أفراح ، وبين قدومك خلیع الرسن ،
ممتعاً والحمد لله باليقظة والوسن ، حكماً فى نسك الجنيد أو فتك الحسن .
ممتعاً بظرف المعارف ، مائلاً أكف الصيارف ، ماحيا بأنوار البراهين
شبه الزخارف ، لما اخترت الشباب وان راقي زمنه ، وأعيانى ثمنه ،
وأجدت سحائب دمعى دمنه ، فالحمد لله الذى رقى جنون اغترابى ،
وملكنى أزمة آرابى ، وغبطنى بمائى وترابى ، ومألف اترابى ، وقد
أغصنى بلذيد شرابى ، ووقع على سطورہ المعبرة اضرابى ،
وعجلت هذه مغبطة بمناخ المطية ، ومنتهى الطية ، وملتى السعود
غير البطية ، ومنتهى الآمال الوتيرة الوطنية ، فما شئت من نفوس
عاطشة الى ريك ، متجملة بزيك ، عاقلة خطى مهريك ، ومولى
مكارمه نشيدة أمثالك ، ومظان مثالك ، وسيصدق الخبر ما هنالك ،
ويسع فضل مجدك فى التخلف عن الأصحار ، لا بل اللقاء من وراء
البحار والسلام . ولما استقر بالحضرة جرت بينى وبينه مكاتبات
أقطعها الظرف بجانبه ، وأوضح الأدب مذاهبه .

(تأليفه) شرح البردة شرحاً بديعاً دل به على انفساح ذرعه
وتفنن إدراكه ، وغزارة حفظه . ونلخص كثيراً من كتب ابن رشد .
وعلق للسلطان أيام نظره في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق ،
ونلخص محصل الإمام فخر الدين الرازى ، وألف كتاباً في الحساب .
وشرع في شرح الرجز الصادر عنه في أصول الفقه بشيء لا غاية
فوقه في الكمال . (وأما نثره وسلطانياته السجعية) فخلج بلاغة ،
ورياض فنون ، ومعادن ابداع يفرغ عنها يراعه الجريء ، شبهة
البداءات بالخواتم ، في نداوة الحروف ، وقرب العهد بحرية المداد ،
ونفوذ أمر القريحة ، واسترسال الطبع . (وأما نظمه) فهض لهذا العهد
قدماً في ميدان الشعر، ونقده باعتبار أساليبه ، فاثالث عليه جوه ، وهان
عليه صعبه ، فأثى منه بكل غريبة ، خاطب السلطان ملك المغرب
ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعائة بقصيدة طويلة أولها :
أسرفن في هجرى وفي تعذيبى وأطلن موقف عبرتى ونحيبى
وهنا يورد ابن الخطيب نص القصيدة ثم يورد مختارات طويلة
أخرى من نظم ابن خلدون ثم يستأنف ترجمته فيما يلي :
وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والحظوة ، قد استعمل
في السفارة الى ملك قشتالة فراقه وعرف حقه ، مولده بتونس بلده
في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعائة .
قال المقرئ ، بعد أن أورد هذه الترجمة (في نفح الطيب) :
هذا كلام لسان الدين في حق المذكور (ابن خلدون) في
مبادئ أمره وأواسطه ، فكيف لو رأى تاريخه الكبير الذى نقلنا منه
في مواضع ؛ ورأيته بفاس وعليه خطه في ثمان مجلدات كبار جداً

وقد عرف في آخره بنفسه ، وأطال وذكر أنه لما كان بالأندلس ، وحظي عند السلطان أنى عبد الله ، ثم من وزيره ابن الخطيب رائحة الانقباض ، فقوض الرحال ، ولم يرض من الإقامة بحال ، ولعب بكرته صالحة الأقدار حتى حل بالقاهرة المعزية ، واتخذها خيراً دار ، وتولى بها القضاء وحصلت له أمور رحمه الله تعالى . وكان ، اعنى الولي ابن خلدون كثير الثناء على لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى . ولقد رأيت بخط العالم الشهير ، الشيخ ابراهيم الباعونى الشامى فيما يتعلق بابن خلدون ما نص محل الحاجة منه : تقلبت به الأحوال حتى قدم الى الديار المصرية ، وولى بها قضاءقضاة المالكية فى الدولة الشريفة الظاهرية ، وصحبته رحمه الله تعالى فى سنة ٨٠٣ عند قدومه الى الشام صحبة الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق فى فتنة تيمورلنك ، وأكرمه تيمورلنك غاية الإكرام وأعاده الى الديار المصرية ، وكنت أكثر الاجتماع به بالقاهرة المحروسة للمودة الحاصلة بينى وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين بن الخطيب ، ويورد من نظمه ونثره ما يشنف به الأسماع ، وينعقد على استحسانه الإجماع ، وتتقاصر عن إدراكه الأعلماع ، فرحمة الله عليهما ، وأزكى تحياته تهدى اليهما ؛ ولقد كان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان ، وله من النظم والنثر ما يزرى بعقودالجمان ، مع الهمة العلية ، والتبحر فى العلوم النقلية والعقلية ، وكانت وفاته بالقاهرة المعزية سنة ٨٠٧ ، سقى الله تعالى عهده ، ووطأ فى الفردوس مهده .

(تراجع الترجمة كاملة فى نفح الطيب (بولاق) ج ٤ ص ٤١٤ - ٤٢٦) .

فهرس

الكتاب الأول

حياة ابن خلدون

١ — في المغرب والأندلس

صفحة	
١٢	الفصل الأول : نشأة ابن خلدون
١٤	(١) أسرته
١٩	(٢) نشأته الأولى
٢٢	الفصل الثاني : ابن خلدون في بلاط فاس
٢٢	(١) إفريقية في القرن الثامن الهجري
٢٧	(٢) ابن خلدون والسلطان أبو عنان ..
٣٠	(٣) بقية أخباره في فاس
٣٨	الفصل الثالث : رحلة الأندلس
٤٦	الفصل الرابع : ذروة المغامرة...
٥٨	الفصل الخامس : العزلة والتأليف

٢ — ابن خلدون في مصر

٦٨	الفصل السادس : ولاية التدريس والقضاء
٦٩	(١) ابن خلدون في القاهرة
٧٤	(٢) ولاية القضاء الأولى.
٨٤	الفصل السابع : في دمشق وفي معسكر تيمورلنك
٨٧	(١) ابن خلدون وتيمور

صفحة

- (٢) عوده لولاية القضاء ٩١ ...
 الفصل الثامن : ابن خلدون والتفكير المصرى ٩٦ ...
 (١) الحصومة بينه وبين الكتاب المصريين ٩٨ ...
 (٢) ابن خلدون وابن حجر ٩٩ ...
 (٣) ابن خلدون والمقرئى ١٠٣ ...
 (٤) مقامه بمصر وقبره ١٠٩ ...

الكتاب الثانى

تراث ابن خلدون الفكرى والاجتماعى

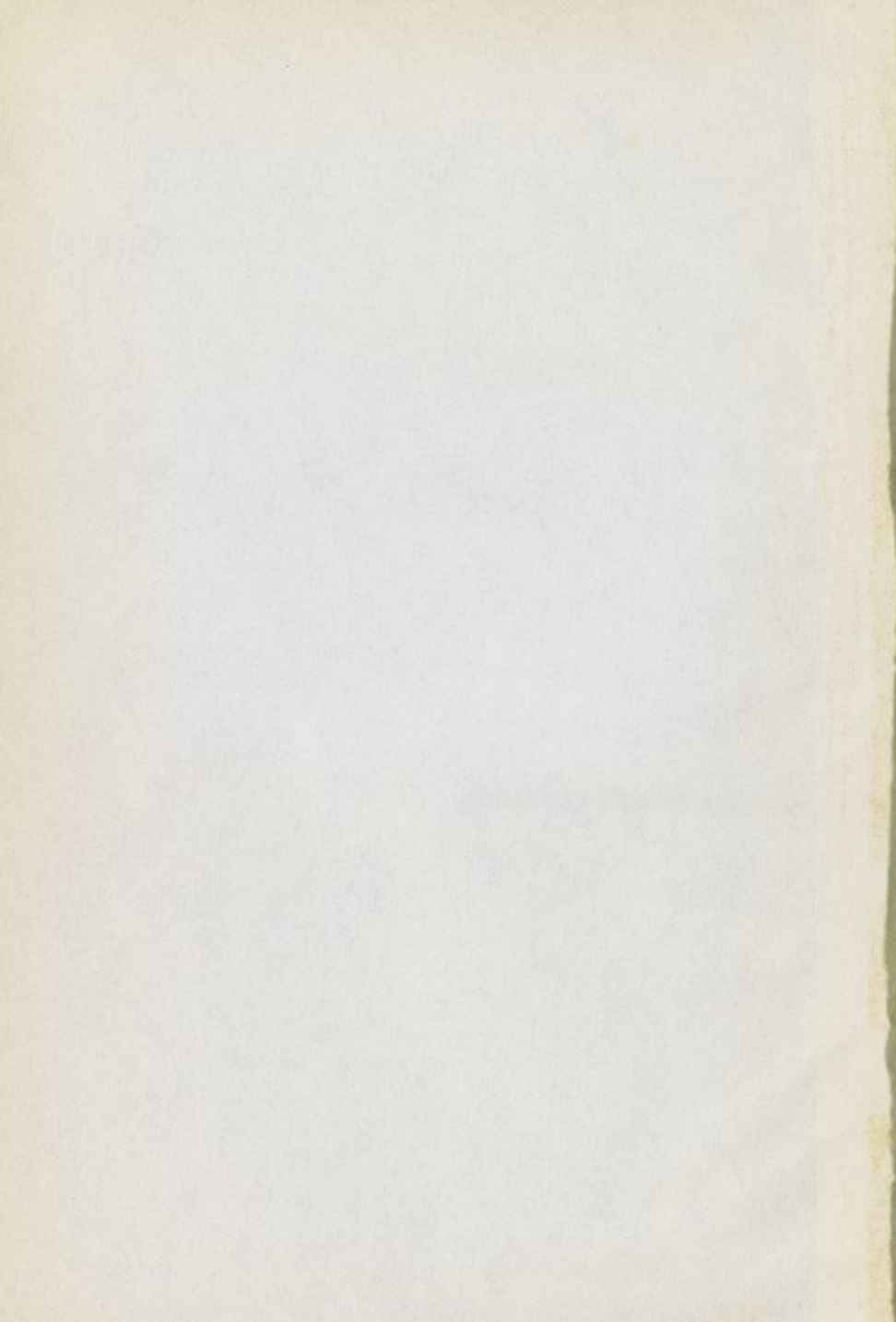
- الفصل الأول : علم العمران كما يعرضه ابن خلدون... ١١٤ ...
 (١) علم العمران البشرى. ١١٥ ...
 (٢) مقدمة ابن خلدون.. ١١٧ ...
 الفصل الثانى : علم السياسة والملك قبل ابن خلدون... ١٢٤ ...
 (١) ابن قتيبة والفارابى.. ١٢٦ ...
 (٢) رسائل إخوان الصفا ١٢٧ ...
 (٣) الأحكام السلطانية للماوردى ١٢٩ ...
 (٤) سراج الملوك للطوطوشى ١٣٠ ...
 (٥) الفخرى لابن الطقطقى ١٣٢ ...
 الفصل الثالث : كتاب العبر والتعريف. ١٣٦ ...
 (١) كتاب العبر أو تاريخ ابن خلدون. ١٣٦ ...
 (٢) التعريف أو ترجمة ابن خلدون... .. ١٤٤ ...
 (٣) مؤلفات أخرى ١٤٩ ...
 (٤) لباب المحصل ١٥١ ...
 (٥) شفاء السائل ١٥٤ ...

١٥٧	...	...	...	الفصل الرابع : ابن خلدون والنقد الحديث
١٦٠	...	...	...	(١) فيلسوف التاريخ...
١٦٣	...	...	...	(٢) فيلسوف الاجتماع ..
١٦٨	...	...	...	(٣) ابن خلدون الاقتصادي
١٧٠	...	...	...	(٤) الفيلسوف الجامع ..
١٧٤	...	...	...	الفصل الخامس : ابن خلدون ومكيافيلي
١٧٦	...	...	...	(١) كتاب الأمير
١٨٤	...	...	...	(٢) مكيافيلي وتراث ابن خلدون

ملاحق

١٨٨	...	...	...	١ — بيان فهرسى عن كتاب العبر
١٨٩	...	...	...	(١) أصول النسخ المتداولة
١٩١	...	...	...	(٢) ما ترجم من كتاب العبر .
١٩٣	...	...	...	(٣) المخطوطات ..
١٩٥	...	...	...	٢ — المصادر ...
١٩٥	...	...	...	١ — المصادر العربية...
١٩٦	...	...	...	ب — المصادر الغربية...
١٩٩	...	...	...	٣ — تراجم ابن خلدون بأقلام معاصريه
١٩٩	...	...	...	ترجمة الحافظ ابن حجر .
٢٠٥	...	...	...	» السخاوى .
٢١٢	...	...	...	» ابن تغرى بردى
٢١٥	...	...	...	» ابن الخطيب





LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 074442334